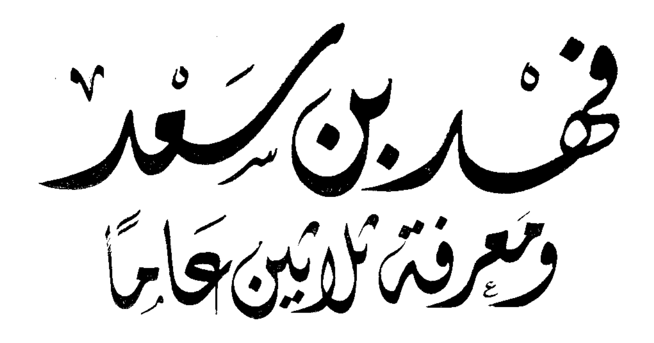
فهد بن سعد
ومعرفة ثلاثين عاماً

القسم الأول

في حياة الفقيد النبيل وسجاياه الكريمة

بقلم

فهد المارك



فهد بن سعد ومعرفة ثلاثين عاماً

القسم الأول

في حياة الفقيد النبيل وسجاياه الكريمة

بقلم

فهد المارك

طبع

بإشراف

دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر

الطبعة الأولى
١٣٩٣ هـ ـــ ١٩٧٣ م

فهد بن سعد





مَنْ ماتْ مِثْلِكْ يَا عَزِيزْ القبيلهْ   حيٍّ ولَوْ أنّ الثّرَى فوقه انْهال
حَقّكْ عليّ يا وَفِيّ لْخَلِيلِــهْ   مُجَلّدٍ يَقْرَاهْ جِيلٍ مع أجْيَالُ
سِفْرٍ يُخَلِّدْ لِكْ سجاياً جميلــهْ   يَشْهَدْبَهْ الأوّلُ ويَعْجَبْبَهْ التّال

(المؤلف)

تمهيد

...كل من تعاطى الكتابة والتأْليف ، يدرك ـ ولا شكَّ ـ أَنه سوف يصطدم بعقبتين : الأُولى : يصطدم بها مجرَّد ما يتخذ قراراً بتأْليف في الموضوع الذي ينوي الكتابة فيه ، وهي عقبة (مواد الكتاب ، وعناصره وفهارسه) ، ومتى ما توفرَّت في ذهن الكاتب هذه المعاني ، ورسم بنود كتابه على هذا الأَساس ، أَصبح الكتاب بحكم المنتهي . وكل ما في الامر أَنه يتوقف إِبراز الكتاب إِلى أَيدي القراءِ على طول المدة وقصرها التي يقوم الكاتب خلالها في إِخراج كتابه من عالم الخيال والتفكير به إِلى عالم الواقع العملي .

ثم بعد ذلك يواجه الكاتب العقبة الثانية التي تتوقف على حسن اختياره لاسم الكتاب . وهذه العقبة ـ وإِن

كانت تستدعي التفكير والتريث ـ إلا أنها دون الأولى أهميـــة .

وإذا كان العثور على عناصر ومواد بعض مؤلفاتي تـأخذ مني أحياناً مدة قد تبلغ السنة ـ مع توفر الفكرة ورسوخهـا في ذهني ـ بـل لا أذكر أن كتابـاً من مؤلفاتي التي تربو على العشرة مؤلفات ، توفرت لي عناصره في مدة أقـل من شهرين ... اللهم إلا هذا الكتاب ، الذي جاءت إليّ عناصره مترادفة ومتيسرة ووافرة مجرد ما دارت فكرة الكتابة به في ذهني .

وفي رأيي ان السبب في ذلك يعود إلى توفر العوامل التالية :

أولاً ـ أ) السجايا الفاضلة التي يتمتع بها الفقيد العظيم .

ب) الشيم العربية المطبوعة بدمه ولحمه .

ج) الرقة في المكان الذي يقتضي منه اللين والتسامح .

د) الشِّدة في المكان الذي يستلزم عدم التساهل .

هـ) الوجه الطَّلْق الذي لا تفارقه الابتسامة ، كما سيرى القاريءُ ذلك واضحاً في جميع صوره التي سوف أُوردها في هذا الكتاب في المكان اللائق بها .

و) أَدب النفس والسلوك اللذين فطره الله عليهما

ز) أَدب القريحة التي منّ الله بهـا عليه كأَديب يُنشد الشعر ويرويه .

ح) الحسب والنسب اللذين ينحدر منهما كشبل ينتسب إلى أَرومة أَجداده لأَبيه ذوي السيف والسنـان ، والبطولات ، كما ينتسب الى أَرومة أَجداده لأُمِّهِ ذوي العلم بالكتاب والسنة والتوحيد

ط) الثناءُ والمجد المشاعين عنـه عـلى لسان كل من عرفه أَو سمع به ، إلى درجة أَنك لم ولن تجـد من المواطنين الذين

عرفوه أَو سمعوا عنـــه شخصين ذوي أَخلاق وعدل يختلفان في تقديره واحترامه ، والثناءِ عليه بما هو أَهل له من الاخلاق الكريمة ،كل هذه القيم تُوَفِّر مَوَاداً لا ينضب معينها لأَيّ شاعرٍ أَو ناثرٍ يحاول أَن يكتب نثراً عن الفقيد أَو ينشد شعراً عنـــه .

ومما لا شك فيه ، أَن شيم ومُثُلَ وسجايا وأَخلاقَ الفقيد ، وحسبه ونسبه ، توحي بنفسها على الناثر والشاعر ، المواد الغزيرة على الشكل الذي قصده المتنبيءُ بممدوحه كافور في قصيدته البائية ، عندما قال :

وأَخْلاَقُ كافُورٍ إِذَا شِئْتُ مَدْحَه
وإِنْ لَمْ أَشَأْ تُمْلِيْ عَلَيَّ وأَكْتُبُ

ثانياً ـ استعدادي النفسي لقيامي بهذا الموضوع بالسعادة

والاطمئنان في استمراري بهذا العمل بل وإحساسي العميق في كون كتابتي في هذا الموضوع أَجِدُ فيهــا لذةً ومقاومة للآلام ، وطرداً للهموم ، وتبديداً للاحزان التي داهمتني عندما اصطدمت بفاجعة نبيل شهم كفهد بن سعد.

أَمَا وقد ذكرت العوامل التي سهلت لي اجتياز العقبة الأُولى ، فلا بُدَّ لي بعد ذلك من أَن أَذكر العقبة الثانية أَلا وهي اختيار اسم الكتاب. فهذه العقبة وإِن كانت – كمـــا اسلفت – دون الاولى ، إلا انها ليست سهلة كما يظن بهـــا من لم يكن مارس التأْليف. فقد يأْخذ المؤلف أَياماً وشهوراً محاولا اختيار الاسم الحسن للكتاب.

وإذا كان المثل المتواتر عندنا يقول: «الاسم مشتق من الفعل» ، فقد وجدت خلال الفترتين أَو المرحلتين اللتين عرفت بهما الفقيد مادة غزيرة استلهمت منها اسم الكتاب الذي جاءَ كمـــا يلي:

« فهد بن سعد ومعرفة ثلاثين عاماً »

وعندما أُسمي كتابي بهذا الاسم فإنني وإن كنت في الفصول الآتية قسمت معرفتي الفقيد إلى أَربع مراحل: المرحلة الأُولى معرفة الوجه للوجه، والثانية معرفة الأَديب للأَديب، والثالثة معرفة «الْخَوِيّ لِمُعَزِّبِهِ»، والأَخيرة فانها بالنسبة للاسلوب الذي يعاملني به الفقيد، طيب الله ثراه، تعتبر معرفة الصديق الوفيِّ المنعم المتفضل على «خَوِيِّهِ» سابقاً، وصديقه أَخيراً. وقد يكون من أَغزر تلك المراحل مادة المرحلتان الثالثة والرابعة اللتان اقتبست منهما اسم الكتاب. والملاحظة التي تجدر الاشارة اليها هي أَنني وإن كنت أَسميت هذا الكتاب «فهد بن سعد ومعرفة ثلاثين عاماً» فإن ذلك لايعني أَنني ملازمٌ له خلال تلك المدة ملازمة تمكنني من الإحاطة بكل شاردة وواردة من سجاياه الكريمة، المتعددة الجوانب، والسبب يعود إلى أَن المدة التي انضممت فيها إلى حاشيته (خَوِيّاً) لا تتجاوز الثلاث سنوات ـ وحتى هذه الفترة لم أَكن فيها (خَوِيّاً) ناجحاً يؤهلني نجاحي أَن أُلازمه

في كل سفراته وتنقلاته في داخل بلادنا أو في الخارج ، حيث سافر للخارج لأول مرة ليعالج عن مرض ـ (بلهارسيا) ولو انني (خَوِيٌّ) ناجح لكنت المرافق له في سفرته تلك التي ذهب بها ليعالج في القدس قبل ثلاثين سنة .

والواقع أنني لو كنت ملازماً للفقيد صاحب المروءة الجمّة منذ نعومة أظفاره حتى توفاه الله لأصبح لدي من المواد الغزيرة الدسمة التي يتكون منها أكثر من مجلد ـ من المواد الزاخرة بالشيم العربية ، والاخلاق الاسلامية ، والقيم الانسانية المثلى ، التي للفقيد الكريم منها رصيد لا ينضب معينه .

ولما كان اسم مؤلفي هذا متصلا بالمعني الذي يرمز إلى الفترتين اللتين قضيتهما في (مَعِيَّة) فقيد الوطن فإنَّ من مسلمات الأُمور أَن يضم بين دفَّتيه صفحاتٍ تشكل قسماً ليس بالقليل من الكتاب ، كما يضم بعد ذلك الفصول الآتية :

١ - فصل عن تاريخ ولادته ونسبه لأَبيه وأُمه .

٢ - فصل عن خلقته وأَخلاقه .

٣ - فصل عن وفاته

٤ - فصل عن شجاعته في الحروب وعن ثباته وجلده

٥ - فصل عن سخائه وكرمه .

٦ - فصل عن نجدته ووفرة مروءته .

٧ - فصل عن ثقافته وأَدبه وشعره .

٨ - فصل عن الأَعمال الانسانية والاجتماعية التي قام بها

٩ - فصل عن كفاءته عندما تولى إِمارة (حائل) .

١٠ - فصل عن مساعيه لإِصلاح ذاتِ الْبَيْنِ .

١١ - فصل عما نعته به الشعراءُ من السجايا الحسنة في حياته .

١٢ - فصل عما رثاه به الادباءُ شعراً ونثراً .

١٣ - فصل عن بداية الخبر المشؤوم

١٤ - فصل عن آخر رسالة مني اليه .

ثم يلي ذلك الخاتمة

ومما لا شك فيه أَن القاريءَ المنصف سوف يرى أَن ما كتبته في هذا السِّفْر لا يعدو كونه أَمانة تاريخية بعيدة كل البعد عن الاختلاق ـ أَمانة حفزني اليهـا الاعتراف بالجميل ، وقد سبق أَن قالت العرب :(المعروف يملك الكريم ويخدع اللئيم) ، فالأَول يكون مملوكاً للمعروف إِلى الأَبد ، والثاني يجعله المعروف مخدوعاً فترة وجيزة إِلى أَن يُبْذَلَ له مَعْرُوفٌ من جديد ، وإِلا فهو ينسيٍ الأَول بل ويتنكر له .

كما قالت العرب في هذا الشأْن : (اقبَلْ مَعْروفَ منْ شئت تكون أَسيرَهُ ، وَضَع المعروف في عُنُق منْ شِئْت تَكُنْ أَمِيرَهُ ، واسْتَغْنِ عَمَّنْ شئْتَ تَكُنْ نَظِيره) .

ولئن كنت ممن تقع عليه عبارة الفقرة الاولى ـ فإِنني أَعترف على نفسي بهذا الكتاب الذي عندما أَكتبه لابِنِيَّةِ كاتب قصير النظر ، يكتب لساعته أَو ليومه أَو لوقته ، بل أَكتب وأَنا واثقٌ أَن الكتاب سيظل سجلاًّ تاريخياً تَقرأُه الأَجيال بعد الأَجيال .

أَكتب وأَنا مؤمن بما أَكتب فيه واثِقٌ بأَن عظامي ستبلى ، ولكن كتابتي سوف تظل شاهدة بما كتبت ، وحجة لي إِن أَصبت وصدقت ، وحاكمة عليَّ إِن أَخطأْت وشططت .

أَكتب بهذه النية ، وبهذه العقيدة ، وبذلك الإِيمان

أَكتب وأَنا أَعترف بأَنني أَسِيْرٌ لمعروف ذلك الأَمير الذي خلقه الله لأَن يكون نبيلا شهماً ، قبل أَن يُسَمَّى أَميـــراً .

أَكتب وأَنا أَجد في كتابتي هذه شعوراً بالطمأْنينة ، واحساساً بالسعادة ، وراحة في ضميري ، وسروراً يَغْمُر وجداني ، وحبوراً يَمْلأُ كل جارحة من جوارحي .

أَكتب وأَنا أَجد في كتابتي هذه سلاحاً أُقاوم بـــه (الشجون) والأَحزان ، والآلام التي داهمتني ، وجثمت على مهجتي ، عندما سقطت علي الفاجعة ـ بنعي الفقيد النبيل ـ سقوط الصاعقة .

وبعد : فإِنه لا بُدَّ لي من ان أَذكر في هذا التمهيد

نصيحتين ، كل واحدة منهمـــا صادرة عن صديق حميم ، وكل واحد من الصديقين يقصد أن يعزيني ، اللهم الا أنهما وإن اتفقا بحسن القصد ، فإنهما اختلفا بالأُسلوب ، بصورة كان أحدهما بدلا من أن يحاول بنصحه تعزيتي جاءَ بحديث ضاعف فاجعتي بالفقيد ، مما أوحى إلي بنصحه بمعانٍ جاءَت ببيت أَوردته في قصيدتي التي رثيت بها المغفور له ، وهو هذا البيت :

لا تَنْصَحَنْ ظَنّك بِنِصْحِك تْهدِّينْ
إرْدَعْ تَرَى نصْحَكْ يِزِيْدَنْ مْصِيْبَه

والكلام الذي أَسمعني إياه صاحبي هو : (أَنا أعرف أَن الأَمير فهد رحمه الله لم يكن لديه نحوك يا فلان تلك المحبـــة ...) إلى آخره من المعاني التي لها ما بعدها ، وانما أوردت جوهرها الذي يغني قليله عن كثيره.

وقد أَجبت صاحبي الذي لا أَشك بأَنه أَراد بكلامه هذا تعزيتي وتهدئة أَعصابي أَجبتـــه بالكلام الآتي نصه حرفياً :

(عليك أَن تثق بأَنه لو خرج فهد بن سعد من قبره وقطع رأْسي – ثم عاد رأْسي إلى جسدي وعاد فهد وقطعه ثانية ، ثم عاد رأْسي وجاءَ فهد وقطعه ثالثة – ثم عدت بعد ذلك حيًّا إلى الدنيا ، لما طرأَ علي بفاجعتي بفهد أَي تبدل يخفف ثقلها علي)

حينما أَسمعتُ صاحبي هذا الكلام ، كنت منفعلا حقّاً ، ولذلك كان كلامي له هذا صادراً عن انفعالٍ عاطفي . أَما الكلام الذي ينبغي أَن يكون صادراً عن العقل ويقبله المنطق فهُو الآتي :

« يحدثنا تاريخ الأُمم بصورة خاصة ، وتاريخ العالم العربي والاسلامي بمفهوم عام وشامل – أَن الحكام والامراءَ لا ينبغي لمواطنيهم أَن يطلبوا منهم المحبة والعطف ، وانما المطلوب منهم تجاه مواطنيهم العدل والإِنصاف في ساعة الغضب ، والاحترام والتقدير في ساعة الرضا – وتلك حكمة مستلهمة من صميم تاريخنا العربي والاسلامي بالدليل التاريخي الآتي :

كان أَبو مريم الحنفي قد قتل زيدَ بن الخطاب شقيق الخليفة عمر (رضي الله عنهما) ، قتله أَبو مريم وهو مشرك – ثم أَسلم وجاءَ يسلِّم على الخليفة عمر – وبعد أَن رد عليه الخليفة التحية الاسلامية ، قال له عمر: إنني لا أُحبك يا أَبا مريم ، وأَنت قاتل أَخي!. ، فأَجابه أَبو مريم فوراً قائلاً : « احتفظ بمحبتك لأَطفالك ولذويك الأَدنين ، ولذوي رحمك الأَقربين – أَما نحن فلا نريد منك الا العدل في ساعة الغضب ، والاحترام في ساعة الرضا » .

أُكرر القول بأَن انفعالي العاطفيَّ أَضاع عني هذه الحجة التاريخية ، وفي رأْيي وحسب تجاربي أَن الانسان إذا كان منفعلا مفجوعـاً أَو ساخطاً ، فإنه لا ينبغي لصديقه مهما كان مُحِبّاً له أَن يبدي أَيـة محاولة لصدِّه عما هو فيه . فإذا كان لا بد له من ذلك فتكون المحاولة بعد أَن تهدأَ عاطفته إن كان مفجوعاً ، أَو تخفَّ ثورة

سخطه إن كان غضبان ، وتسكن أَعصابه عن الانفعال في كلتا الحالتين.

وبعد: دعني أُسلم جدلاً بصحة كلام صديقي الذي أَراد تعزيتي بنية حسنة ، وقلب سليم ، أَقول: هَبْ أَنَّ رواية صديقي حقيقة لا يأْتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفهــا.

فهل لي أَن أَنسى مــا كَرُم علي به الفقيد النبيل من معروف كان ولا يزال طوقاً مكبلا لي من هامتي إلى أَخمص قدمي ؟!

أَ أَنسى ذلك المعروف الذي أَسداه إلي ونشلني به من بؤرة الفقر إلى صفوف الاغنياء ؟! أَيصح أَن أَتنكر لذلك ؟! أَ أَنسى ذلك المبلغ الباهظ الذي طلبته منــه بحكم حاجتي إليه ورغبت بأَن يكون قرضاً لا هِبَةً ، ودفعه إلي فوراً قاصداً أَن يكون هِبَةً ، ورفضت إلا أَن يكون قرضاً. وهكذا فعلت ، لأَن المبلغ كان باهظاً ،

ورفضت نفسي استغلال أَريحية ذلك الامير النبيــل الكريـم ،

أَأَنسيِ ما فعله الفقيد النبيل ـ عندما جئت أَعرض عليه ورقة تحمل كشف الحساب ؟! أَأَنسى يده الكريمة التي وضعها على عينيه مغطياً مقلتيه بأَصابعه الخمس خجلا وحياءً من أَن تقع عيناه على ذلك الكشف ؟! وهي قصة سوف أذكرها في مكانها من هذا الكتاب .

وإِذ انتهيت من ذكر ما أَوجزته عن معروفه الماديّ ، فهل لي أَن أَنسى ما أَسداه إِليَّ من معروف أَدبي ومعنويّ وأَخلاقي ـ وهو ما سيجده القاري موضحاً في هذا الكتاب

أَأَنسى ذلك الصوت الذي لا زال رنينه في صميم مهجتي عندما أُكلمه بالهاتف من دمشق وهو في المستشفى بباريس أَولاً ، ثم في مستشفي واشنطن مؤخراً ، فأَسأَله مستفسراً عن صحته ، وقبل أَن يجيبني يسأَلني وهو في مرض الموت عن صحة أَولادي ، ثم يعيد السؤال مكرراً فيقول : أَيلزمك شيء ؟؟!!

أَأَنسى هذه الْمُثُلَ وتلك القِيمَ وذلك الخُلُقَ الساميَ الرفيعَ ، الذي يعجز قلمي عن وصفه ويخرس لساني عن التعبير عنه ؟ ويقصر خيالي عن تصويره .

أَيكون لديَّ ما يزن جناح البعوضة من الوفاءِ فيما إذا نسيت ذلك الأَمير النبيل ؟

أَلا يصح أَن يُحْكم علي باللُّؤْم وعدم الوفاءِ بنسياني له ، وأَنــا الذي اعتقد ان كل سجية من سجايا بني الانسان قابلة ان يلتزم المرءُ فيها الموقف الوسط ، الا الاعتراف بالجميل والوفاءَ لمسديه ، لأَن الوسط عَيْبٌ يُزْري بالمرءِالذي ينتهج سبيل الوسط في هاتين السجيتين

والشيءُ الذي أَرجوه من القاريءِ الكريم – هو أَن لا يتصور أَنني أَدَّعي لنفسي الوفاءَ ، بقيامي بمــا يفرضه علي الواجب تجاه الفقيد الكريم الذي غمرني بفضله . كَلاَّ فعمل كهذا لا يجوز لي بأَن اعتبره وفاءً بقدر ما أَومن بأَنه واجبٌ مقدس ، وتعريف الواجب بالمعنى

الأَدبي والديني ، هو الذي يعاقب تاركه .

اما تعريف الوفاءِ بمعناه العملي الصحيح فهو ذلك العمل الذي يقدم على القيام به الحرُّ الأَبيُّ الوفيُّ – وهو مؤمن بأَن حياته مهدَّدة لا محالة – كما فعل عبد الحميد الكاتب مع وليِّ نعمته مروان بن محمد الأُمويّ – ذلك الوفاءُ الذي أَصر عبد الحميد إلا أَن يدفعَ حياته قرباناً لوفائه – هذا هو تعريف الوفاءِ الذي يجدر بصاحبه أَن يُنْعَتَ به .

وهذا مما يجعلني أَربأُ بنفسي بأَن يتخيل القاريءُ أَني أَدَّعي هذا الواجب وفاءً .

وإذا كان المثل الشعبي عندنا يقول لمن يتقاعس عن القيام بواجب كهذا : (فلان ما هو ولادة حلال) أَي فلان ابن سفاح . أَقول : إذا كان هذا المثل من صميم الواقع الذي نعيشه – فهل يمكن أَن أَثق بأَن أُمي حفظتني من صلب أَبي فيما إذا تقاعست عن القيام

بما يفرضه علي الواجب تجاه ذلك المنعم المتفضل عليَّ ، مجرد أَنه انتقل من الدنيا ، أَو لأَن فلاناً قال عنه : إنه لا يحبني ؟! أَأَتَخَلَّى عن واجبي تجاه فهد بن سعد ناسياً له او متناسياً ؟ كيف ؟!!

كيف انساه وأَنا القائل :

عَدِمْتْ نَفْسي كان الأَيّام تِنْسِيْــنْ
وْتحْرَمْ علي شيَمَ الْعَرْب ما آعْتنِي بَهْ

أَأَنسى ثلاثين عاماً قضيتها (مع الفقيد النبيل) ؟! منها فترة كنت ساكناً في منزله آكلا شارباً ، ومنها ما قضيتهـا وإن كنت موظفاً في الدولة ، ولكن عنايته ورعايته وفضله وعطفه ، وإجلاله ومعروفه ، كل ذلك لم يغب عني كما سيري القاريءُ توضيحاً لذلك في الصفحات القادمة ....

أَأَنسى هذه السنين الطويلة ، وتلك الإلفة الراسخة ؟ أَأَنسى هذه وتلك وأَنا الانسان الأَلوف المُبْتَلَى برقة العاطفة ، بصورة لا استطيع بها الجفاءَ والقطيعة مع

من كان لي بهم صلة سابقة وارتباط قديم ، حتى ولو رأَيت منهم الصدود والجفـاءَ ، بل والهجران والقطيعة أَحيانـاً ؟! والغيبة البشعة فيما إذا أَردت أَن أُصغي بأُذني لناقليها عنهم .

فما دمت امرًأ خلقني الله أَلُوْفاً على النهج الذي عناه المتنبي بقوله :

خُلِقْت أَلوفاً لو رجعْت إلى الصِّبَا
لفارَقْتُ شَيبِي مُوْلَعَ الْقَلْبِ بَاكِيَا

فكيف بي ، والحالة هذه ، أَن أَنسى أَو أَتناسى ذلك الفقيد النبيل ، الذي منذ أَن عرفته إلى أَن اختاره الله إلى جواره — وأَنا لا أَذكر منه أَيّةَ عبارةٍ أَو أَدنى إشارة تعزيني عنه ، بل كل سجية من سجاياه الكريمة وكل خُلُق من أَخلاقه الفاضلة ، وكل صفة من صفاته النبيلة كل هذه القيم تفرض عليَّ أَن أَسعي ما استطعت لتخليدها.

أَما وقد انتهيت من إجابتي لذلك الصديق الذي أَراد تعزيتي اجتهاداً منه ، ولكنه بعبارته تلك زادني حزناً ،

وضاعف عليَّ وطأَة فاجعتي بالفقيد النبيل .

فما عليَّ بعد هذه الإجابة للصديق الأَول إلا أَن آتي بما أَورده إليّ الصديق الثاني الذي كان موفقاً في نصحه وتعزيته ، كما أَجد بنصيحته تلك ما يشجعني على المضيّ في تأْليف هذا الكتاب ، حيث أَبدى رأْيه ناصحاً إياي ، ومُعَزِّياً لي قائلا : إن خير عمل تقوم به للمغفور له الأَمير فهد بن سعد هو أَولا أَن تسأَل الله له الرحمة والغفران ، لأَن دعاءً كهذا هو الذي ينفعه في آخرته ، ثم أَضاف : أَمَّا إذا أَردت القيام بعمل يخلد ذكره في الدنيا فما عليك إلا أَن تصدر عنه كتاباً شاملا لسجاياه ومثله وفضائله وقيمه .

كانت الفكرة في إعداد كتاب عن الفقيد النبيل عالقة في ذهني ، فجاءَت هذه العبارات من ذلك الصديق تحفزني إلى الأَمام ، فذهبت ساعياً وراءَ الحصول على عناصر الكتاب ومواده وفهارسه ، وسرعان ما جاءَت هذه الأَشياءُ مستجيبة وملبية لصوت الداعي لها .

وإذا كان الحديث الشريف يقول : « من اجتهد فأَصاب فله أَجْرَان ، ومن اجتهد فأَخطأَ ، فله أَجر واحد » ، فإنني أَسأَل الله أَن يرزق صديقي الأَول الأَجر ، كما أَسأَله تعالى ان يرزق الصديق الثاني الأَجرين .

وأَما الكلمة التي أَعطتني دليلا واضح المعالم ، عن قصر نظر قائلها هي تلك التي اسمعنيها ذلك الشخص المسرف بالغباءِ عندما قال : ماذا تكتب عن فهد بن ابن سعد ؟! فهو لَمْ يَتَوَلَّ وظيفةً إلا في آخر حياته ، وهي مدة وجيزة الخ ...

ما أَضيق أُفق هذا الإِنسان الساذج الذي يظن أَن قيمة الرجال محدودة ، ومحصورة على الوظائف ، ومن لم ينـــل وظيفة – على رأْيه – فانه لا يستحق الذكر .

أَما الأَمر الذي لا بُدَّ لي من الإِشارة اليه فهو أَن لا يعجب القاري فيما إذا وجدني واضعاً صفة النبل في نعتي للفقيد ملازمة له ، والسبب في ذلك هو أَن النُّبْلَ –

اسم يشمل بمعناه ومفهومه جميع السجايا الفاضلة كالوفاءِ والسخاءِ والشجاعة الخ ...

وإذا كانت سجية النبل متصلة بالفقيد اتصالا لا ينفصل ، فإنني أسأَل الله أن يجعل نبله هذا شافعاً له عند ربه ومرجحاً لحسناته . آمين

المقدّمة

إذا كانت غايتي المنشودة عندما أَصدرت مؤلفي ذي الاربعة الأَجزاءِ من كتاب «شيم العرب»، بعيدة عن الكسب الماديّ كل البعد، وكل الذي استهدفته من تلك الاسفار، هو أَن ياخذ منهـا الناشئة عبرة ودرساً عن مُثُلِ الأَجداد، التي حرصت أَن تكون تُراثاً للأَحفاد، فإنني لا أَعدو الصدق والحقيقة فيما إذا أَكدت أَن الحافز لتأْليفي لهذا الكتاب ناحيةً لا أَستطيع أَن أَكتمها عن القاري، وهي شعوري براحة الضميـر عندمـا أَجدني قُمْتُ بقليل من الواجب الذي يفْرضه علي الاعتراف بجميل صاحب الترجمة، كما أَن هناك ناحية أُخري مشتقة من غايتي السالفة الذكر ذات الصلة بكتابي «من شيم العرب» متصلة بهـا اتصالا لا

ينفصل ، وهي أن في كتابي هذا « فهد بن سعد ومعرفة ثلاثين عاماً » مادّة دسمة من شيم العرب التي يسرني أَن يتحلى بها الجيل ، وأَن يأْخذ من وفاءٍ وشجاعة ومروءة وسخاءٍ وانسانية فقيد الوطن قدوة يسير على ضَوئها الجيل الصاعد .

أَجل ! وهل هناك غاية في قراءة تاريخ الأُمم ، وتاريخ حياة العباقرة الأَفذاذ ، أَعز وأَشرف من أَخذ العبرة والدروس من محاسن وقيم وفضائل أَولئك الرجال .

وبعد : فإِنَّ من يصاب بالأَمراض الجسدية يعالجها بالعقاقير الطبية ، والحقن المسكنة لآلام الجسد ، كذلك من يصاب بفاجعة نفسية يلجأُ إلى العلاجات المسكنة لآلام النفس والمهدئة لشجون المصاب .

والعلاجات النفسية تأْتي عن طريقين : إمـا باستعمال المخدرات الروحية والمنبهات ، وإما عن طريق النثر والشعر .

فالأَولون في حالة مواجهتهم للفواجع النفسية يلجأَون

إلى الإدمان إلى درجة يظل بهـا أحدهم جُلَّ وقته ثملا محاولا بعمله هذا أن يغيب عن عالم الدنيا ليطرد همومه ، فيتوارى عن آلامه ، هذا إذا كان ممن سبق له أن رشف بنت الكرم ، أو يذهب إلى الاسراف بالمنبهات كالدخان والقهوة ، إن كان من أهلهـا ، أو الانهماك بكـل من المشروبات والمنبهات حتى تقضي هذه وتلك على حياته .

ومن أجل ذلك نجد مدمني الخمر يقولون :

أَلاَ فَاسْقِنِي خَمْراً وقُلْ لِيْ هِيَ الْخَمْرُ

ولا تَسْقِنِي سِرّاً إذا أَمْكَنَ الجَهْـرُ

ويصفهـا الآخر في تبديدها للهموم ، فيقول :

وَنَشْرَبُهَا فَتَتْرُكُنا مُلُوكاً

وَأُسْداً ما يُنَهْنِهُنـا اللقاءُ

أما شعراؤنا الشعبيون الذين لم يتعاطوا الخمر ، وكل ما يعرفونه في مقاومة الآلام النفسية هو المنبهات المحصورة في الدخان والقهوة ، فهؤلاءِ نجد منهم شاعرنا الشعبي

محمداً الْعَوْنيَّ الذي يعتبر أَنبـغ وأَفحل شعرائنا في مطلع هذا القرن. هذا الشاعر نجده عندما أَصابته الفاجعة بمصرع صديقه الحميم (عبد العزيز أَبا الخيل) في معركة الْمُلَيْدَا عام ١٣٠٨هـ ينشد قصيدة طويلة كلهـا رثاءٌ مُؤَثِّرٌ ، ولا داعي لسرد القصيدة ، وإنمـا نورد منهـا ما هو مناسب للموضوع في هذه الأَبيات :

والله لَوْلاَ جَرْعَةَ التّتِنْ مَرَّهْ
وْفِنْجالْ بُنٍّ نِصْفْ عُفْرٍ بْهَارَهْ
لَخَذتْ من زَيْنَ الْغَلايِيْنْ جَرَّهْ
واتْبعتها الفنْجالْ يِطْفِي حَرارهْ
لَصِيْرْ مِثْلَ الِّلي حَدِيْدِهْ يِجِرِّهْ
هَبِيلْ قَلْبٍ لَلْخلايِقِ سْفارِهْ[1]

والجواب لمن يقول: ماذا يفعل المرءُ إذا فوجيءَ

(١) أعتقد أن الشاعر يقول : (هبيل قـلْب مُطلقٍ لهشكاره) وإنما تركنا شطر البيت على ما كان عليه لأمانة النقل ، وإن كان خطأ .

بمصيبة كُبرى وفاجعة عظمى ، وهو ممن لا يتعاطى المشروبات الروحية ولا المنبهات ؟ الجواب على ذلك بمنتهى البساطة ، هو أَن يلجأَ في حالة كهذه إما إلى الإِيمان والصبر ، وإما إلى الانتحار ، في حالة عدم الإِيمان وعدم قدرته على الصبر .

ولا يفوتنا الانتباه إلى حقيقة واقعية ومنطقية ، وهي أَن الإِيمان والصبر ، وإن كان فيهما عزاءٌ كبير لذوي الفواجع الجسام ، إلا أَن هناك مكاناً سيظل فارغاً ، وأَعني به مكان التهدئة والتسكين للآلام ، الأَمر الذي سيجعل هذه الآفة تغدو ذهاباً وإياباً مقلقة صاحبها ، منكدة عليه حياته ، فاتكة بصحته ، ومؤثرة على أَعصابه ،ومؤذية لنفسه مدى الدهر ،بصورة قد تجلب له الموت البطيء أَو الامراض العصبية .

ومن هنا يستلزم الأَمر العودة إلى العامل الثاني للعلاج ، أَلا وهو النثر أَو الشعر . فهذا العلاج ، مع الصبر والإِيمان ، فيه مقاومة للهموم والآلام النفسية ،

بدون أَن يكون له عواقب مهددة لصحة الانسان ، كالعلا ج الأَول ، بـل العكس ، كما أَن في بعض العقاقير والحقن مواد «فيتامينية» تعالج الجسد وتغذيه في آن واحد ، كذلك في هذا العلاج النفسي تسكين وتهدئة للشجون والآلام ،وصقل لموهبة الناثر وإذكاءٌ لقريحة الشاعر .

ولما كان الله تبارك وتعالى قد منَّ عليَّ بموهبة الشعر ، كما رزقني موهبة النثر ،فقد وجدت في هذه وتلك مجالاً فسيحاً أَتنفَّس من خلاله الصعداءَ ، عندما أُواجه أَية كارثة من كوارث الزمان ، أَو اصطدم بفاجعة من فواجع الدهر .

ولما كانت نكبة فلسطين الأُولى عام ١٩٤٨ من أَشد العوامل التي استولت على كل جارحة من جوارحي كجنديٍّ عاشها وهُزِم فيها ، ومن شيمة الجنديّ إذا كان ذَا إِحساس وإِبَاءٍ أَن يشعر بخدش كرامته ،متأَثراً نفسياً بعار الهزيمة ،واضِعاً نصب عينيه الفوز باحدى

الْحُسْنَيَيْنِ: إمــا النصر وإما الشهادة. ولما لم تُتَحْ لي الفرصة بنيل هذه ولا تلكِ ، فقد ظللت أُعاني عارَ تلكِ الهزيمة آلاماً جارحة تنخر في كياني وتفتك بأَعماقي.

ولم تهدأْ وطأَة هذه وتلك عن كاهلي حتى انفجرت موهبة النثر ، وتفتقت قريحة الشعر ، فنشأً عن ذلك أَن كتبت عدداً من المؤلفات في هذا الموضوع ، منها ما طبع ونشر كـ« سجل الشرف » ، و « كيف ننتصر على اسرائيل » ، و « الهدامون والبناؤون » ، و« افتراها الصهاينة وصدقها مغفلوا العرب» ... ومنهــا ما هو مهيأ للطبع ، ولم تأْت الفرصة المناسبة لنشره بعد: وهي «جيل يتهم جيلا » ، و « كيف هُزِمنا ؟ » و « الجهاد الصامت » . يضاف إلى ذلك مقالات متعددة ـ هذا بالنسبة للنثر ، أَما ما هو خاص بالشعر ، فقد أَنشدت عدة قصائد لم أَنشر منها شيئاً حتى الآن.

إلا أَنني رغم ما كتبته نثراً ومــا نظمته شعراً ، رغم ذلك ظلت تلكِ النكبة تأْكل وتشرب معي ، فهي شغلي

الشاغل ، ولئن كنت لا أحمل في نفسي حقداً على أي كائن كان ، حتى الذين أساؤوا إلي ، فانني قد أسخط عليهم فترة وجيزة ، ولكنني أعود بعد ذلك متراجعاً عن سخطي ، ونادماً عليه . أمـا حقدي على اليهود فقد امتزج بدمي ولحمي لا لأنهم يهود ، فتلك عقيدة ومذهب موكل الأمر فيهما إلى الله . وإنما مصدر حقدي عليهم لأنهم معتدون ظالمون سفاكون ، شتتوا وشردوا وسجنوا ما يزيد عن مليون من الشعب الفلسطيني ، علاوة على الشبان الذين قتلوهم ، وعلى النساءِ اللواتي رمّلوهنَّ ، وعلى الاطفال الذين يَتَّمُوهُمْ .

ويقابل هذا الحقد عندي على الصهاينة الظلمة ، يقابله مني عاطفة جمـة على الشعب الفلسطيني – راحماً لهم ، وساعياً ما استطعت لمؤازرة هذا الشعب البريءِ المظلوم ، بكل ما أملكِ من القدرة ، إلى درجة أَنَّ أَحد أَبنائي وجه إليّ السؤال التالي : (أَحقيقة يا والدي أَنك فلسطيني الأَصل والولادة ، وأَن جنسيتك السعودية

مكتبسة ؟) فسأَلت ابني عمن أَوحى اليه بهذه الدعاية ،
فقال : سمعتها من الناس ، ومما جعلني أَصدق ذلك هو
أَنني رأَيتك تعطف على الفلسطينيين بصورة أَراك أَكثر
اجتماعاً بهم من السعوديين ، كما أَرى زوارك منهم
أَكثر من زوارك من السعوديين ؛ ولما لم تكن هذه
الكلمة من ابني وحيدة من نوعها بل سبق أَن
سمعتها ، فقد قلت لابني : (إن عطفي على
الفلسطينيين لا لأَنني فلسطيني الأَصل والولادة كما
قلت ، بل لأَنني عشت كارثتهم ، ورأَيت بعيني رأْسي
كيف شرد أُولئك اليهود الظالمون الغزاة ، هؤلاءِ المواطنين
الأَبرياءَ ، وكيف فرّ الشيوخ والنساءُ والأَطفال والْمُخَدَّرَات
والارامل ، كيف فرّ هؤلا من بلادهم ، وكيف فتك
بهم الجوع والعري والبرد القارس ، والامراض الفاتكة ،
رأَيت يا بني هذا المنظر ، وعشته بدمي ولحمي ،
وعطفت ، وسأَعطف على الفلسطينيين لا لأَنهم عرب
ومسلمون ،بل لأَنهم مظلومون ، ولو أَن هؤلاءِالفلسطينيين

أسرفوا بظلمهم لليهود ، ورأيت اليهود مظلومين بنفس العينين اللتين رأيت بهمـا ظلم الفلسطينيين ، لوجدت ديني الاسلامي وشيمي وعروبتي وانسانيتي تجعلني أقف بجانب اليهود كمظلومين موقفاً لا يقل عن موقفي الآن بجانب الفلسطينيين ، لأنني أكره الظالمين ، ولو كانوا أهلي وأعطف على المظلومين مهما كان جنسهم أو لونهم أو مذهبهم) ؛

وهكذا ظل حقدي على الصهاينة يزداد كظالمين ، وظلت عاطفتي تجاه الفلسطينيين تنمو باطراد ، كل هذا وذاك ناتج عن مشاهدتي لنكبة ١٩٤٨ .

ولم يخطر لي ببال يوماً مـا أن لو أُصاب بأيـة فاجعة كانت ، أن تنسيني تلك النكبـة أو تذهلـني عنهـا أية مصيبة ، حتى اصطدمت وجهاً لوجه بفاجعتي بالأمير فهد بن سعد ، عندئذ طغت هذه على تلك حتى أن الأخ ياسر عرفات عندما التقيت به ، وشاهد مني ذهولا لم يألفه سألني عمـا أصابـني سؤالاً يوحـي

بعتاب منه علي ، فقلت : (أَعتقد جازماً ومؤمنـــاً انك تدرك أَنه لو جاءَت إِلي فاجعة ذهبت بكـــل أَبنائي ، وكل ما أَملك من حطام الدنيا لمـــا طغت آلام وهموم هذه الفاجعة على فاجعة فلسطين ، كمـــا أَنني لا أَتصور ولا مجرد خيـــال أَن أَية فاجعة مهما عظمت أَن تنسيني فاجعة عام ١٩٤٨ . هذا ما كنت أَعتقده وأُؤمن بـــه ، إِلا أَنني عندما اصطدمت بفاجعة الامير فهد بن سعد نسيت كل شيءٍ وطغت هذه حتى على قضيتكم التي أَخذت مني كل وقتي) .

وحيث أَن الاخ عرفات سبق أَن عرف الفقيد ، وجلس معه فترة في احدى زياراته للرياض ، بل وأَقام له الفقيد حفلة عشاءٍ دعاه ورفاقه اليها ، لذلك فقد تأَثر عرفات عندما بلغه نبأُ وفاته ، ومما لا ريب فيه أَنه لو حكمت الظروف على ياسر عرفات كمـــا حكمت علي بمعرفة الفقيد النبيل ، ولو عرف سجاياه الفاضلة ، كما عرفتها أَو بعبارة أَوضح : لو عاشر عرفات الفقيد

النبيل ثلاثين عاماً – كما عاشرته – وبات بينهما اتصال روحي كما كان بينه وبيني ، وأسره بخلقه كما أسرني ، وملكه بفضله كما ملكني ، ونشله من حضيض الفاقة إلى قمة اليسر كما نشلني . أقولها مرة ثانية: أن لو حكمت الأيام على القائد عرفات كما حكمت علي بالشكل والنوع والواقع والصورة التي ذكرتها لوجدت فاجعة فهد بن سعد عندما يواجهها أبو عمار – كما واجهتها – جديرة أن تطغى آلامها على شعوره وعواطفه كما طغت علي .

هذا ما أعتقده بالأخ ياسر ، لأنني أعرفه وفِيّاً كريم العاطفة .

وبعد ، فلئن حمدت الله وشكرته على هبته إياي ، قريحة الشعر وموهبة النثر اللتين بتعبيري بِهما خَفَّتْ عني وطأة نكبة ١٩٤٨ فإنني أكرر حمدي وشكري للباري الذي عندما ابتلاني بفاجعة ذلك الفقيدالكريم ، رزقني ويسر لي العلاج المهدي والمسكن والمقاوم لآلام

وأوجاع تلك الفاجعة الرهيبة ، وأعني بهذا العلاج موهبة النثر ، وقريحة الشعر اللذين تنفست من خلالهما الصعداءَ ، فلله المنة ،الذي جعل لكل داءٍ دواءً ، وهو تعالى الذي أسأله أن يلهم ذوي الفقيد وعارفي فضله العزاءَ والصبر ويسكنه فسيح جنانه .

و (إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون) .

المؤلف



الفَصْلُ الأوّل

معرفتي الاولى للفقيد النبيل

عندما أَبدأُ الكتابة عن الفقيد النبيل ، يتحتم علي بأَن أَقسم معرفتي إِياه إلى أَربع مراحل ، ولكل واحدة منها صفة خاصة بها على الوجه الآتي :

الاولى : المعرفة العابرة . أَو كما يقال :(معرفة الوجه للوجـــه)

الثانيـــة : المعرفة الأَدبية

الثالثـــة : معرفة (الْخَوِيْ) لِمُعَزِّبِهِ أَوْ لِعَمِّـــه

الرابعة : وهي التي يجدر بي أَن أُسميها معرفة الصديق لصديقه ،

وإذا شئت أَن أُعبر تعبيراً أَصح وأَوضح وأَصرح ، قلت عن معرفتي الفقيد في المرحلة الأَخيرة ، إِنهـــا (معرفة النبيل المنعم المتفضل للمواطن المعترف للنبيل بالجميل في حياته وبعد مماته) .

وإذا كان لا بُدَّ من سرد الكتابة عن هذه المراحل الأَربع واحدةً تلو الأُخرى ، فإِنه ليطيب لي أَن أَبدأَ بالمرحلة الاولى .

المعرفة الأولى للفقيد النبيل

أَول يوم عرفتُ فيه فهد بن سعد كان في عام ١٣٥٣ (١٩٣٤ م). عرفته في مدينـــة الطائف. وذلك بعد عودته من غزوة اليمن التي جاءَت نتيجة للخلاف الذي وقع بين الملك عبد العزيز والامام يحيى حميد الدين. وهناك ذهب الفقيد غازياً في الجيش الشعبي الذي جهزه الملك عبد العزيز بقيادة شقيقه الأَمير فيصل بن سعد.

وكان الأَمر طبيعيًّا أَن تكون معرفتي لـــه هذه مجرد معرفة وجه لوجه ، – كما يقولون – وإن كـــان المفروض أَن تكون معرفتي هذه قبل ذلك التاريخ ، لولا امران: الأَول :هو أَنـــه ولد في مدينة الرياض ، بينما ولدت في مدينة حائل. وهذا سبب رئيسي منعني من معرفـــة

الطفولة ، التي من طبيعتها أَن تكون الإِلفـــة بين الطفلين -في رأْيي- راسخة متينة أَبديـــة .

الأَمر الثاني : هو أَن ظروفي القاسية التعيسة التي عشتها في فترة الطفولة فرضت علي أَن أُغادر مسقط رأْسي - بل وأُغادر بلادي كلهـــا - أَي المملكة العربية السعودية - ولم أَبلغ سن الرشد إلا في مدينة من مـــدن السودان تدعي سواكن .

وقد أَجد من يقول : إِن كثيراً من أَمثالي من المواطنين عاشوا تلك الفترة بنفس الظروف القاسية الي عشتها ، ومع ذلك ظلوا في بلادهم إلى أَن شاخ منهم من شاخ ، ومنهم من توفاه الله ؟ .. فالجواب على ذلك ما يلي :

صحيحٌ هذا القول - إلا أَن نفوس بني الإِنسان تختلف في تكوينهاونشأَتها ، وجبلتها التي فطرها الله عليها - فهناك انسان فطرت نفسه منذ أَن كان طفلا على قبول الأَمر الواقع ، وهناك إِنسان منذ طفولته ونفسه عزوف عن الاستسلام للأَمر الواقع فيمـــا إِذا كان هذا الواقع وَاقِعَ تعاسةٍ واستكانةٍ وخمول .

الشاهد هنا ، أن ذلك العام المشار إليه آنفاً هو العام الذي تعرفت فيه على الفقيد ، وهذا العام نفسه أيضاً هو الذي عدت فيه إلى بلادي بعد غربة دامت ثمان سنوات ، قضيتها بين السودان والقاهرة ، مروراً بفلسطين والاردن ، ومكوثاً في سورية .

ولم تكن معرفتي في ذلك العام محصورة على الفقيد فحسب ، بل تعرفت فيه وما بعده من الأعوام على جميع الأمراءِ وعلى كثير من موظفي الدولة . هذا ما أذكره عن المعرفة الأولى التي لا تعدو أن تكون (معرفة وجه لوجه) ليس أكثر من ذلك .

المعرفة الأدبية للفقيد النبيل

كانت معرفتي بالفقيد هذه معرفة ما يسمي (معرفة الأَدب بالأَدب) ، فكمـا أَن النبيل كان أَديباً بأَخلاقه وسلوكه ومعاشرته ، كذلك كان أَديباً بفطرته ، فهو ينشد الشعر ويرويه ويتذوقه .

وقد كانت الفترة التي ابتدأَت معرفتي الأَدبية به تعتبر عندي الفترة التي كنت بادئاً بهـا في قرض الشعر مزهواً به ، بـل وراغباً بأَن اتحدى شعراءَ وقتي بمقدرتي الشعرية . واعتقد ان الفقيد هو كان في المرحلة الاولى من بداية قريحته بالانطلاق ....

وهكذا التقينـا على صعيد واحد حيث تبادلنا النشيد ، وكنت البادئ في هذا المضمار ، وهي بداية لا تخلو من

تحدّي الشاعر المتواري ، القابع في صومعته ، مخفيـاً نفسه ، طالباً المبارزة الادبية على النحو الذي قال عنـه المتنبي بميدان الحروب:

وإِذَا ما خَلاَ الْجَبَانُ بِـأَرضٍ
طَلَبَ الطَّعْنَ وَحْـدَهُ والنِّـزَالا

هكذا كنت عندما أَنشدت قصيدة جاءَ الشطر الأَول منهـا قافية يتعذر في اعتقادي على كثير من الشعـراءِ مهمـا كانوا أَقوياءَ القريحة أَن يجدوا القدرة للإِجابة عليهـا من نفس القافية .

وقبل أَن أُورد القصيدة أَود أَن أَذكر الأَسباب التي دعت لإِنشادي لهـا ، وهي أَسباب جاءَت كما يلي :

كان للمغفور له عبدالله المتعب الرشيد فرس دائماً تكسب الرهان ، في ميدان سباق الخيـل ، الذي يقام بين فترة وأُخرى في مدينة الرياض ، بحضور المغفور له الملك عبد العزيز .

وفي الحين الذي كان عبد الله جالساً في ذلك الحفل

وواثقاً كل الثقة ان فرسه هي الكاسبة للرهان لا محالة ، مستغرقاً في هذا الخيال مسروراً ، وإذا بثقتــه بجواده تنقلب إلى يأس كمــا ينقلب سروره إلى كدر وبؤس ، حيث لم تكسب فرسه الرهان كما كانت من قبل ، بل سبقت خيل تركت فرسه في المنزلة الثانية ، أَو هي الثالثة . فمــا كان من صاحبها إلا أَن فقد قدرته على الصبر ، وخرج ساعتهــا من مجلس الملك ، مكسوف البال ، غاضًا طرْفَهُ . في تلك الفترة ، وبمحض الصدفة التقيت به ، وعند ذلك اسمعني بيتــاً أَنشده ارتجالا في تلك المناسبة ، وإليك نصه الحرفي :

فَزَّيْتْ مِنْ سِلْطانْ نَجْدِ مْنَ الْغلْبْ
ولا قُويْتَ اَقْعِدْ مَعَ الشيخْ سَاعَهْ

لقد أَراد عبد الله أَن يكمــل البيت ويجعل منه قصيدة ، ولكنه لم يستطع ـ وعند ذلك طلب مني أَن اكمل القصيدة ، وأَبدى لي رغبتــه بأَن أَجعل القصيدة وكأَنها موجهة منه إلى صاحب الترجمة .

وأَلَحَّ أَبو متعب عليَّ بأَن لا يكون في القصيدة معنى يشير إلى طلبه من الفقيد فرساً ، بدلا عن فرسه الخاسرة للرهان ، وإنما يكون الطلب مقصوداً به إجابة منه بقصيدة مماثلة ، بحكم أن المعروف عن النبيل أنه شاعر ، وكريم ، فخشية من أن يكون الجواب منه كرماً بفرس ثمينة لأَن الخيل في تلك الفترة باهظة الثمن ، وهبة الجواد وقتها هي أَكبر هبة .

فتناولت البيت ووعدت صاحبه أَنني سوف آتي إليه غداً مكملا للقصيدة ، إلا أَنني عندما أَنشدت البيت الأَول والثاني هناك شعرت أَن قافية الشطر الأَول من البيت ، فيه من الصعوبة ما يجعل الشاعر يكاد أَن يكون متعذراً عليه الاستمرار في القصيدة على اعتبار أَنه بجزم اللام والباءِ في آنٍ واحد ، وزادني يأْساً في عدم استمراري في إكمال القصيدة أَنني عندما استعرضت محفوظاتي من الشعر مما أَنشده شعراؤُنا الشعبيون ، لم أَجد قصيدة واحدة على قافية ووزن ذلك الشطر .

هنا أُدركت أَنه يتعذر الاستمرار بقافية كهذه إلا بأَبيات محدودة لا تزيد عن ثمانية عشر بيتــاً . وعند ذلك قررت أَن استوفي واستعمل مــا استطعت من جميع الالفاظ التي على وزن ذلك الشطر ، سواءً كان باللغــة الشعبية او بالعربية الفصحي ، لِأَرْبِكَ الشاعر ، وأُعجزه عن الإجابة على القصيدة التي سوف أَنشدها باسم عبد الله المتعب ، وهكذا فعلت .

وإليك القصيدة بادئاً بالبيت الأَول الذي أَنشده عبد الله عندما قال :

فَزَّيْتْ من سِلْطانْ نَجْدِ مْنَ الْغُلْبْ

ولا قُوَيْتَ ٱقْعِدْ مَعَ الشيخ ساعهْ (١)

فأَلحقت هذا البيت بالأَبيات التالية :

ما كنيّ ٱلاّ واحْدٍ قِيْــلْ لِهْ عَلْبْ

يا كُبُرْ هَمِّهْ شَاف رَاسِهِ طْمَاعَهْ

الله يِعِيْنِه انْخَفَقْ خافْقه خَلْــبْ

عِقْبَ الشّجاعهْ صارْ قَلْبِــهْ رَعَاعهْ

(١) فزيت : أي قفزت . والشيخ يقصد به بتعبيرنا الشعبي الزعيم وهو يقصد الملك عبد العزيز .

وَاللِّيْ جُوَادٍ سِبّتِكْ يا مَا لَلْهَلْبْ
وِشْ غَيَّرَكْ مِنْ عُقْبْ ذِيْكَ الْبتَاعَهْ
فأنكانْ ذَا طَبْعِكْ فعندي لِكَ الجلْبْ
نِبِيْعْ ما نَقْنِي ، رديَّ الْبْضاعَهْ
وَأقُوْل : عَنِّي إِذْلِفِي ذلْفِةَ الْكلْبْ
لْيَا عَادْ لاَ فِعْلٍ ولا بِلكْ شِفَاعَهْ [1]
وْلاَنْتِي مْنَ اللِّيْ يِرْتَجي مِنِّك الْحَلبْ
وَلِّي جُوادٍ أَفْقَدَتْنِي الْمَنَاعَـه [2]

* * *

أَشْكِيْ عَلَيْكَ الْحَالْ يَا مرويَ « الصّلْب » [3]
يَا بُو سَعَدْ يَا وافي بَالشّجَاعَـهْ
يا بَاذْلٍ جَاهَه لْمنْ يَشْكِي الْوَلبْ
يَا شوْقْ مِنْ حَطَّ الحلي فِيْ ذْراعه [4]
أَبْغِيْك تْعَزّينيْ وتسلِّيْ لْيَ الْقَلبْ
بْشِعْرِكْ لأَنْ شِعْرِك عْطُـور الجَمَاعَهْ

---

(١) إذلفي : إذهبي بعيدة .
(٢) اللي : الذي
(٣) الصلب : الرمح
(٤) الولب : الهم أو المرض .

القصيدة اكثر من هذه الأبيات ، إلا أن مسودتها فقدت مني ، كما فقد الكثير من شعري الذي لم أعبأ بحفظه ، إلى درجة أنَّ بعض الاخوان الرواة يسمعني أحياناً قصيدة من قصائدي فيبدو لي أن هذه القصيدة غريبة علي ، ولا ادرك أنها من شعري حتي ينبهني الراوي .

المقصود أنني تعمدت أن استقصي ما أعرف من الالفاظ التي تأتي على قافية الشطر الأول من تلك القصيدة

أجاب الفقيد النبيل على غير القافية

كنت وطيد الاعتقاد أن الفقيد أو أي شاعر مهما أوتي من قوة القريحة ، فإنه لا يستطيع أن ينشد قصيدة كاملة على هذه القافية .

ومما قوى اعتقادي هذا هو أنني علاوة على كوني استعرضت جميع الالفاظ الشعبية واستنفدتها ، عدت إلى « القاموس المحيط » وراجعت حرف اللام والباء وأخذت منهما ما هو صالح للقافية ، وزيادة بالاحتياط جئت بالقصيدة نفسها ووضعت نفسي كشاعر وردت اليه

هذه القصيدة ، وطلب منه أَن يرد عليهــا على وزنها وقافيتها ، ومن ثم حاولت أَن أَجد بيتــاً على هذه القافيــة ولكنني لم أَجد ، وعندمــا ثبت لديَّ أَن الإجابة على هذه القصيدة متعذر ، سلمتها لعبد الله المتعب ، وأَكدت له أَن الإجابة من نفس القافية بقصيدة كاملة مستحيلة .

وقد أَخذ أَبو متعب القصيدة وسلمهــا للفقيد ، على أَنه هو الذي أَنشدها ، وبعد أَيام أَجاب الفقيد على القصيدة بقصيدة توحي لمن لم يكن شاعراً وملمًّا بوزن الشعر أَن الشطر الأَول على وزن قصيدتنا ، ويؤسفني أَنني لم أَحفظ من تلك القصيدة إلا الشطر الأَولَ الذي جاءَ كما يلي :

الضّيْغَمِيْ مِثْلَكْ صُبُورٍ إلَى وَثْبْ

ولئن كانت هذه القصيدة التي جاءَت من الفقيد لا تقل عن قصيدتنا من حيث عدد الأَبيات ، فإنها لم تكن على القافية المكونة من حرفين في الشطر الأَول

منهـا[1] ، وهذا يعتبر باصطلاح الشعراءِ الشعبيين خطأً ، بـل ويعتبر قصوراً أَو عجزاً من الشاعر الذي يتولى الإِجابة خاصة إِذا كانت القافية من النوع الذي تستعصي الإِجابة عليه .

ومن المعروف في اصطلاح الشعراءِ عندنا أَنه إِذا أَراد شاعر ما أَن يتحدَّى شاعراً آخر ويعجزه عن الإِجابة ، فإِنه بامكانه أَن يستقصي قافية من القوافي المتعذر الاجابة عليها ، ومن ثم ينظم قصيدته على وزن تلك القافية المستعصية ، فيكون بعمله هذا قد سبب الارتباك والحرج لذلك الشاعر .

إِلا أَنني بتلك القصيدة لم تكن النيـة عندي مبيتة ، لإِحراج النبيل الشاعر ، وإِنمـا المناسبة ، هي وحدها التي تحكمت في الموضوع .

لم يدرك عبد الله المتعب أَن قافيـة قصيدة الفقيد مخالفة لقافية قصيدتنـا . ولذلك لما جاءَ بها إِلي قال :

---

(١) وهو ما يعرف عند علماء الشعر المتقدمين بـ (لزوم ما لا يلزم) .

ها هو فهد أَجاب علي القصيدة في حين أَنك تزعم أَن الإجابة عليهـا متعذرة .

وما إن تناولت القصيدة منه حتي بدا لي للوهلة الاولى أَن القافية للشطر الأَول مخالفة لقافية قصيدتنا . وعندها أَكَّدْتُ لعبد الله أَنني لا زلت على قولي . ومن ثَمَّ أَوضحت له وجه الخلاف .

ولم يكن من عبد الله إلا أَن أَعاد القصيدة محتجاً على أَنهـا لم تكن على طريقة القافية ، ولكن النبيل وإن لم يكن جوابه شعراً على طريقة القافية ، فإن الإجابة منه كلاماً كانت حجة بالغة جعلت عبد الله يعجز عن الجواب ، وكان كلامه لعبد الله ما يلي :

لقد قبلت مني القصيدة بدون أَن تبدي اعتراضك هذا ، فإن يكن هناك شخص من وراء قصيدتك التي وردت إلي منك ، ويزعم هذا الشخص أَن قافية قصيدتي ليست على قافية قصيدتكم فما على هذا الشخص إلا أَن يأتي إلينا ليناقشنا وجهاً لوجه ، بدلا من أَن يختفي ويتهرب من المواجهة ... الخ . .

لم يسع عبدالله المتعب إلا السكوت والتجاهل لهذه القصيدة من أَصلها ، أَما الفقيد فقد عرف ببديهته أَنني الناظم لتلك القصيدة. وقد ازداد يقيناً بعد أَن التقيت به في فترة المرحلة الثالثة والآتي ذكرها ، وذلك انه جرى بينه وبيني بحث تطرق إلى موضوع القصيدة ، فوجدته قانعاً أَنني أَنا الذي نظمتها فلم أَنكر ذلك طبعاً.

وهكذا كانت معرفتي الفقيد ، ابتدأَت بمعرفة الوجه للوجه ، ثم معرفة الادب بالاسلوب السالف الذكر ، ثم جاءَت المعرفة الثالثة التي أَود قبل أَن أَبدأَ بالحديث عن ذكري لهذه المعرفة أَن آتي أَولا بذكري للأَسباب والعوامل التي جذبتني إلى معرفته تلك المعرفة التي وإن كانت معرفة مباشرة ولكنها لم تكن معرفة راسخة الجذور عميقة الأُسس ، كمعرفتي له في المرحلة الرابعة.

الفصل الثاني

ذكريات الشباب وصلتها بالفقيد النبيل



ذكريات الشبابَ وصِلتها بالفقيد النبـيل

حينما آتي إلى ذكري لهذه الفترة الثالثة التي عرفت فيها النبيل معرفة مباشرة ، فإني سوف أَعود إلى ذكرى الشباب التي كثيراً ما يشعر المرءُ بالنشوة حين يذكرها ، فيظل يجترُّ تلك الذكرى سعيداً بها مسروراً منها ، طَرِبـاً بذكراها .

كما أَنني في ذكري لهذه الفترة سوف أَعود إلى الحديث عن الظروف والاسباب والمسببات التي دعتني إلى معرفة الفقيد .

وإذا كانت تلك الظروف فيها من الهبوط والنزول إلى مستوى من الحياة التعيسة ، التي قدر لي أَن أَمُرَّ بها كمـا مر بها أَغلبيـة الجيل في ذلك العهد ، فإنني أَشعر بحيويـة تغمر كياني ، وحبور يهيمن على كل

جارحة من جوارحي ، وتلك ظاهرة محسوسة لا يدرك كنهها إلا من عاشهـا وَمَرَّ بتجربتها ، وكم تَغَنَّى بهـا الشعراءُ ،وتغزلوا بها كقول شاعرنا الشعبي محمد العوني:

وِشْ لذّةَ الدّنيـا لْيَعَاذْ ما بْهَا
حِلْوٍ تِذُوقه عِقْبْ جَرْعَةْ مْرُورْها

وقد أَنشد بهذا المعني شاعر الإسلام محمد إقبال وترجم شعره الدكتور عبد الوهاب عزام ، رحمهمـا الله أَنشد يقول :

إِنَّ الذي لمْ يَعْرف آنّـات الأَسىَ
ولَمْ تُسَاهِرْ عَيْنُهُ نَجْمَ السُّهَـى
وَالْمُتْرَفُ الْمَحْظِيُّ طُـولَ عُمْرِهِ
وَلَمْ يُصَارِعْ لِلْبَقَا شَرَّ الْبَـلاَ
فَكُلُّ هٰـؤلاءِ مَهْمَـا سَعَـدوا
مِنْ أَنْعُمِ الدُّنْيَا بِعَيْشٍ وَرَخَـا

---

(١) يقول الشاعر : ما قيمة الحياة وما هي لذة العيش فيها إذا المرء لم يعان الشدائد فيهـا ويكافح كفاحاً مريراً ثم بعد ذلك يقطفُ ثمر كفاحه وهو مسرور قرير العين ؟!

فَإِنَّ أَسْرَارَ الْحَيَـاة تَخْتَفِـي
عَنْهُمَ وهُمْ عَنْها دوامـاً بِاخْتِفَـا

أَجَلْ ، إن من لا يعرف طعم الحنظل لا يمكن أن يتلذذ بطعم العسل ، ومن لم يبت الطَّوَى جوعـاً لا يشعر بأَيِّ معني من معاني النعيم ، حتي ولو بلغ القمة من العزة والمجد والرفاهية .

وإذا كان هناك فريق من الناس ـ خاصة في عالمنـا العربي ـ يحاول أن يجحد ماضيه ويتنكر له ، فيما إذا كان ذلك الماضي تعيساً شائكاً ، موهماً نفسه ومزيفاً على الناس أنه منذ أن شَعَّ بصره على الدنيا وهو رضيع المجد والعز والثروة والنعيم ، فإنني لا أُخالف هؤلاءِ الجاحدين لماضيهم فحسب ، بـل أَشعر باعتزاز عندما آتي إلى الحديث عن أَيام التعاسة والخمول ، ومن ثَمَّ أُؤَكِّدُ أَنني تمردت على ذلك الواقع الشاق ، ولم استسلم له أَو أَقنع بـه .

وكم أُعجبت وأُعجبت برئيس جمهورية غينيـا

السابق « نكروما » عندما قرأْت مذكراتــه ووجدت أَن أَحد خصومه السياسيين حينمــا أَراد أَن ينال منه ، وجه إِليه السؤال الآتي :

أَحقيقة أَنك يا سيادة الرئيس كنت عاملا في إِحدى البواخر ؟! فأَجابــه نكروما بعد أَن عرف مغزاه الذي يرمي إِليه من وراءِ سؤاله هذا فقال باختصار وعلى الفور : « بــل وكنت ماسح أَحْذِيَةٍ » !! .

لقد أَسهبت وسوف أُسهب في الكتابة عن هذه المرحلة الثالثة التي عرفت فيهــا الفقيد ، لأَنها هي العمود الفقري في جميع المراحل الأَربع ، سواءً الاثنتين السالف ذكرهمــا ، أَو المرحلة هذه ، أَو المرحلة الرابعة الاخيرة .

ومهما أَردت أَن أَنعت معرفتي له في هذه المرحلة أَو أُسميهــا باسم ما ، فإِنني لا أَعدو الحقيقة والواقع فيما إِذا قلت : إِنها معرفة « الْخَوِيِّ لِمُعَزِّبِهِ » ، وقد جاءَت هذه المعرفة على الوجه التالي :

كان ذلك في سنة ١٣٥٩هـ ـ ١٩٣٩ م حينمــا تخليت عن (خُوَّة) ابن عمه الأَمير محمد بن عبد العزيز .

الفضل لجليس الخير لصلتي بالفقيد

لم يخطر لي ببال أَن أنضم إلى (خُوَّة) الفقيد ، بل لم يخطر لي ببال أَن أَنضم إلى (خُوَّة) أَيِّ أَمير ، والسبب أَن المؤهلات التي ينبغي أَن تتوفر في (الْخَويِّ) لم تكن متوفرة عندي. فـ(الخويُّ) يطلب منه خاصة بعد أَن وَحّدَ البلاد المغفور له الملك عبد العزيز أَن يكون سريع الحركة ، خفيف الظل ، كمـــا ينبغي منه أَن يكون « ازْكرتي دق »[1] ، كمـــا يقال ، أَو أَن يكون على الأَقل «صقَّاراً»[2] ، فكل هذه المؤهلات أَجدني مجرداً منهـــا ، علماً بأَنني حاولت بذل جهـــدي حينما كنت ضمن (خُويا) الأَمير محمد أَن أَتمرن على إتقان العمل الأَول ، وفعلا مارسته فترة من الوقت ، ولكنني

(١) يعرف (الزكرتيون) معناها ولا داعي لشرحها .

(٢) اي يحسن ترويض الطير الصقر والقنص به

في نهاية المطاف عجزت ، بـــل فشلت فشلا ذريعاً ـ وحتى عندما التحقت بـ(خوة) الفقيد حاولت إتقان ذلك العمل ولكني أيضاً فشلت ، كما سيأْتي ذكر ذلك . وأَعتقد أَنني لم أَكن (الخَوِي) الوحيد الفاشل في هذا المضمار ، بـــل قد يكون هناك عدد كثير ممن يضارعني في الفشل . وإِنمـــا الفرق بيننا هو أَن هناك نوعاً من بني الإِنسان إِذا فشل في مسلك واحد من مسالك الحياة يئس وقنط ، وخمدت همته ظانّاً أَن أَبواب الدنيا كلها مقفلة في وجهه ، وهناك من لا يستسلم لواقع أَمره ، فيما إِذا وجد نفسه فاشلا في عمل ما من أَعمال هذه الدنيا . هناك من يسعي ويُجِدُّ ويجتهد ، ويتوقف أَمره بعد جده واجتهاده يتوقف على الحظ . فقد يسعده الحظ وينتقل من الحضيض إِلى القمة ، وقد يخونه جـــده لا اجتهاده ، ولكنه يكون مطمئنَّ النفس ، عندما يبذل مختلف وسائل الجد والاجتهاد ، ولا يسعده الجد ، فعندها يحق له أَن يردد قول الشاعر :

وَفي السَّعْيِ عُذْرٌ لِلفَتَى لو تَعَذَّرَتْ
عليهِ الْمَساعِي ، أَوْ جَفَتْهُ الْمَقَاصِدُ

هذا ، وقد نسيت أَن أُفسر معنى الغاية الأَساسية التي قامت عليهـا الحاجة إلى من يسمي اليوم بـ(الخَوِيْ) أَو (الخويا) بالجمع ـ لقد كانت الغاية المطلوبة ممن يسمي بـ (الخوي) اليوم الغاية منه أَن يكون محاربـاً شجاعاً ، وهذه الغايـة كانت قائمة ، ولا زالت أَيـام الغزوات ـ والحروب ، أَي قبـل أَن يوحِّد المغفور له الملك عبد العزيز شبه جزيرة العرب .

وكان إلى الأَمس القريب يطلق على (الخويـا) اسم (الفداوية) بالجمـع ، و (الفداوي) بالمفرد ـ أَي الفدائيين بالجمع ـ والفدائي بالمفرد ـ أَمـا وقد زالت الغاية من وجود الفدائي بالأَمس زالت بزوال ظرفهـا وزمانها ، فإن الأَمر طبيعي بأَن لا يستنكر بأَن يكون اسم الفدائي بالأَمس خادماً اليوم ، كمـا لا يستغرب أَيضاً أَن يفشل المرءُ الذي يرى أَن تكوينه الذي فطره

الله عليه أَن يكون فدائياً لا خادماً. وهذه سنة الله في خلقه التي عمر الكون على أَساسها ، (ولنْ تَجِدَ لِسُنَّتِهِ تَبْدِيْلاً) . وقد ورد في الحديث قوله عليه الصلاة والسلام : « اعملوا فَكُلٌّ ميسر لما خلق له » .

سبق أَن قلت قبل قليل: إنني عندما شعرت أَني (خويّ) فاشل عند الأَمير محمد ، لم يخطر لي ببال أَن أُعيد الكرة عند أَيّ أَمير اعتقاداً مني أَن القصور جاءَ نتيجة لعدم مقدرتي ومهارتي بالمؤهلات المطلوبة من (الخويّ) . وما دام الأَمر كذلك فلا معني لمحاولة الرغبة مني إلى تكرار الماضي – بل كان هدفي يدور حول عودتي إلى البلاد الي قضيت فيها فترة الفتوة .

ولما كان الجليس غالباً مـــا يؤثر على جليسه ، فقد أَثر علي جليس الخير ، الذي كان السبب المبارك في في صلتي بالفقيد النبيل. وهذا الجليس هو المغفور له عبد الله المتعب الرشيد ، أَجـــل ... لقد أَثر علي بالعدول عن المضي لتنفيذ فكرتي ، الرامية إلى عودتي إلى البلاد

التي جئت منهـا منذ سنوات قليلة ـ وبعد أن أدرك أبو متعب أنه استطاع أن يقنعني بالعدول عن تنفيذ فكرتي الأُولى ذهب يستعرض أَسماءَ الأُمراءِ الذين يمكن أَن انضم إلى (خوّة) واحد منهم ، بدون أَن يأْتي إلى ذكر اسم الفقيد ، وفجأَةً دار في ذهني هذا الاسم ـ فقلت لعبد الله : ما هو رأْيك بفهد بن سعد ؟! فأَجاب ـ بالموافقة ، بل وبالتأْييد القويِّ مبدياً لي السجايا الحسنة والْمُثُلَ التي يتحلى بهـا الفقيد النبيل .

ولما كان بين فهد وعبد الله غفر الله لهمـا صداقة متينة ، إلى درجة أَنه قل أَن تمر ليلة لم يسهر بهـا الأَخير في منزل الأَول بمكة ، لذلك فقد رجوت عبدالله بأَن يستمزج رأْي صديقه في قبوله إياي (خَوِيّاً) له ، فتعهد لي بذلك. وفي اليوم التالي أَخبرني عبد الله بأَن الفقيد يرحب بقبولي ، إلا أَنه يريد أَوّلاً أَن يقابلني على انفراد ، مؤكداً أَنه سوف يبعث لي رسولا من قبله مساءَ ذلك اليوم .

شروط لقبول (خُوَّةِ) الفقيد

وما إن جاءَ الوقت المحدد حتى وصلني رسوله وهو الأَخ الاستاذ عبد الله بن خميس الذي كان أَقدم مني في (خوة) الفقيد ـ وكانت تلك الليلة أَول ليلة عرفت بهـا الأَخ عبد الله معرفة كانت مقدمة لصداقة الخويّ للخوي ، ثم صداقة الزميل لزميل الدراسة ، ثم صداقة الأَخ لأَخيه كما سيأْتي ذكر ذلك ـ

عندما وصلت إلى منزل الفقيد الكائن في (حيّ الْحَلَقَة) بمكة المكرمة ـ هناك ذهب الآذِنُ إليه حيث كان جالساً في مجلسه الخاص ، وعنده على مـا علمت من الآذِن عبد الله المتعب الرشيد وابن عمه محمد الطلال الرشيد ، ومـا إن أَخبره الآذِنُ بـأَنني حضرت حسب طلبـه حتى جاءَ إلي . وبعد تبادل السلام التقليدي ـ بدأَ الحديث قائلا :

« إنني سمعت بأن أسباب خروجك من محمد[1] كان من أجل أنك طلبت منه بأنك لا تقبل البقاء في (خُوَّتِهِ) ما لم تكن راكباً معه في سيارته الخاصة ، فيما إذا طرأ عليه أن يذهب إلى المقناص ، أو إلى أية جهة كانت خارج الرياض – ثم مضي الفقيد وقال : إذا كان ما سمعته صحيحاً فإنني أحب أن أؤكد لك من الآن بأنني لا أستطيع أن أعطيك قولا بأنك سوف تصحبني في تنقلاتي أو بسيارتي الخاصة ، وذلك لأنه كثيراً ما تأتي لي ظروف أضطر فيها إلى السفر بصحبة ولي العهد سعود أو فيصل ، فيكون ركوبي بسيارة واحد منهما ، فأضطر وقتها إلى أن أترك سيارتي الخاصة ولا يتبعني إلا سيارة « البوكس » – أي (البيك

---

(١) لقد نقلت العبارة التي نطق بها الفقيد بنصها الحرفي حرصاً على أمانة النقل وعندما ينطقها الفقيد باسم محمد مجرداً عن لقب الامارة فان السبب في ذلك هو أن الفترة التي نحن بصدد الحديث عنها لم يكن فيها عندنا أي لقب نلتزم به لا من أفراد الاسرة بل ولا حتى الملك نفسه كان يدعى باسمه المجرد عبد العزيز . ومن المؤسف أن أصحاب الألقاب الذين أوردوها لنا نبذوها ، بعدما جلبوا عدواها لنا .

آ ب) أَو الحمّالي ـ أَي اللوري ـ التي يكون في واحدة منهما فراش نومي و (شنطة) ملابسي . وختم حديثه بقوله : هــل لك أَن تقبل (خوتي) على هذا الشرط وإلا نكون من الآن مفترقين على رضا . ثم أَضاف : فإذا قبلت الحالة الي أَنــا بها فَذٰلِكَ ، وعليَّ في حالة قبولك أَلا يقصر عليك شيءٌ من أُمور الدنيا ما دمت قادراً على ذلك .

وبعد أَن انتهى الفقيد من حديثه أَجبتــه قائلا : ما دمت صريحاً معي في عرضك لشرطك هذا فإنني أَود أَن أَكون معك صريحــاً في عرضي لشرطي ، الذي سوف أَوضحه لك الآن ، ثم قلت : إنه لا يهمني أَن أَركب في معيتك في سيارتك الخاصة أَو في أَيــة سيارة كانت صغيرة أَو كبيرة . وإنمــا الذي يهمني هو أَن يكون في نفسك لي احترام وتقدير ، وأَن لا أَشكو العسر وأَنت موسر ... فقال : لك علي أَلاَّ ترى مني ما يسوءُك وأَن لا تشكو عسراً ما دمت قادراً على معونتك

واسعافك. فقلت: هناك أَمر يهمني أَن أُصارحك به منذ الآن، فقال: ومـا هو؟ قلت: هؤلاءِ الرجال الذين تركتهم في مجلسك ـأَقصد آل رشيدـ أُمراءُ بلادي (حائل) سابقاً، أَنت يا طويل العمر أَول من يعرف أَن بيني وبينهم صلة تاريخيـة، فنحن وإِياهم (جضعا[1] رضعا) وهم الآن عندكم إِخوة كرام، وضعفاءُ، لا يرجى لهم قوة ولا ناصر فمـا دمتم أَنتم حكامنا تعاملونهم معاملة المضيف الكريم لضيفه العزيز أَلا ترون أَنه ليس من المروءَة ولا من الشيمـة من أَمثالي أَن يتظاهر لهؤلاءِ بالجفاءِ والقطيعة؟! والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: «أَكرموا عزيز قوم ذَلَّ» وهـل يُعقل أَن من يتظاهر لهؤلاءِ بالجفاءِ وهو من نفس بلادهم (حائـل) أَيمكن أَن يتصور العاقل أَن من يكون بهذا الخلق لحكام بلاده السابقين، أَنه سيخلص لكم أَو يفي معكم؟!

---

(١) جضعا، رضعا: كلمة شعبية تقال في حالة كهذه، ويعرف معناها الشعبيون عندنا، أي كنّا نضطجع جميعاً ونرضع جميعاً في صغرنا.

أَم أَن الواقع والذي أَعتقده ويحدثنا به التاريخ والتجاوب هو أَن أَمثال هؤلاءِ لو يقلب الزمان ظهره لكم ـ لا سمح الله ـ لوجدتموهم أَول مـن يطعنكم من الخلف ، ومن المسلم به أَن من يعطف منـا على هؤلاءِ وهم في حالة يـأْس لا يُرْجَى نفعهم كما لا يخشى بالمستقبل ضررهم ، فإِنه سيفي معكم إِلى أَبعد الحدود ـ ثم مضيت في كلامي وقلت : ولذلك أَود أَن أُصارحك من الآن بأَنني لا أَستطيع أَن أَقطع صلاتي المستمرة بهؤلاءِ ، كما لا أَستطيع أَن أَسمع من ينالهم بسوءٍ وسخرية ما لم أَنتصر لهم ، ولكن لك علي أَنه إِذا نقل لكم عني أَن هناك واحداً من هؤلاءِ نالكم بحديث يشم منه رائحة أَيِّ عملٍ من الأَعمال السيئة ضدَّكم أَنتم (معازيبنا) وأَولياءُ نعمتي وكنت حاضراً وصامتاً دون أَن يبدو مني ردُّ فعلٍ لهذا المتحدث عندئذ اعتبروني خائناً لا يملكني المعروف ، ولا عهد لي ولا ذمة ولا دين ولا أَمانة .

ثم استرسلت في الحديث وقلت : ما دمتم أَنتم يا

(معازيبنا) تحترمون هؤلاءِ كل الاحترام والتقدير ، وتغدقون عليهم الهبات ، فإنه يتحتم علينا على الأقل أن نحترم من تحترمون ، ونعادي من تعادون قريباً كان أم بعيداً [1].

فأجابني الفقيد النبيل بقوله : لقد كبرت في عيني الآن اكثر ، فامضِ في سبيلك ، فنحن وآل رشيد عائلة واحدة وهم إخواننا الكرام الاعزاءُ.

وهكذا تم الوفاق بين الفقيد وبيني . وقد قضيت في معيته السنة الأُولى والثانية ووضعي المادي والمعنوي على خير مايرام ـ وقد دفع عني أُجرة بيت ، أَوسع وأَجمل وأَغلى أَجراً من البيت الذي كنت أَسكنه سابقاً ويدفع اجرته « معزبي » الأَول . كما أَنه كان يتعهدني بإغداقه علي الهبات المالية بصورة لا انقطاع فيها .

لقد داعب خيالي ظَنٌّ عرفت فيما بعد أَنه كان

---

(١) ولعل الاخ فيصل الرشيد يذكر ونحن في (روضة التنهات) مناسبة وإن كانت مزحاً ولكنها على ما فيها تعبر عن تنفيذي ما التزمت به للفقيد .

ظنًّا خاطئاً. وهذا الظن هو أَنني تصورت نفسي (خويّاً) ناجحاً ، وأَنَّ مصدر فشلي عند الأَمير محمد يعود إلى أَن التوفيق والحظ لم يحالفني عند الأَول كمـا حالفاني عند الأَخير ، هكذا خدعتني أَوهامي ، تلك الأَوهام التي سرعان ما مزقتهـا الحقيقة ، واتضح لي الأَمر جلياً أَن فشلي كـ(خوي) في معيـة الأَمير محمد لم يكن من أَجل أَن الحظ والتوفيق لم يحالفاني فحسب ، بـل لأَن الله سبحانه لم يرد لي أَن أَكون (خويّاً) ناجحاً ـ وكان الخير كل الخير فيما يريده الباريءُ ، ويختاره لعبده ، لا فيما يختاره العبد لنفسه .

أَجَلْ: فكم نرى أَشخاصاً يُسْرَقون من أَهلهمويسترقُون ، فمنهم من يظل عبداً ذليلا قانعاً خانعاً ، ومنهم من يَتَمَرَّدُ على واقع أَمره فيعيش فارساً أَو أَميراً ، بل حاكماً وما قصـة كافور عنـا بالبعيدة ، بـل ما قصة سيدنا يوسف الصديق عليه السلام .

الفصلُ الثالث

أردت أن أكون (خَوِيًّا) ناجحًا ففشلت



لقد بذلت كل ما لديَّ من الجهد والاجتهاد ، وكرست كل ما أَملك من الطاقة لكي أَكون (خَوِيّاً) ناجحاً ، ولو بصورة موقتة حَتَّى أَحقق هدفي الذي هو التعليم ، ولكنني لم أَنجح ، والوسائل الي قمت بها في بداية الأَيام الي التحقت بها في (خُوَّة) الفقيد قاصداً أَن أَكون (خَوِيّاً) ناجحاً ، هي أَنني في السفرات التي يذهب بها الفقيد لـ (المقناص) وأَصحبه ـ هناك (أَعقد ردوني) [1] أَي أُشمر عن ساعدي لأَكون أَكثر رفاقي (الخويا) نشاطاً في جلب الحطب لِعِنَّة [2] الفقيد ، ومن ناحية أُخرى روضت نفسي بأَن أَكون على أُهْبَّةِ الاستعداد لتلبية أَيّة إشارة تبدر منه ، لأَكون السبَّاق الأَول في تلبية طلبه ، قافزاً كالسهم ، خفيفاً مسرعاً . وإِذا كنت حاولت بأَعمالي هذه أَن أَجرَّ نفسي وأُسخِّر

---

(١) الرّدون جمع رُدْن ، وهي أطراف طويلة من أكمام قميص كان معروفاً إلى عهد قريب ، ثم ترك الآن .

(٢) العِنّة : حضار يعمل من الشجر ليقي من الهواء والبرد .

أَخلاقي ، وأَغتصبهمـــا على سجايا لم تكن منبثقة من أَعماق الخُلُق والسجايا والطباع التي أَراد الله أَن يجعلها جزءًا متصلا بدمي ولحمي ، فإنني فِعْلاً نجحت في بداية الأَمر ، وأَخذت كأْس الرهان على أَقراني (الخويا) في هذا المضمار . ولكن نجاحي هذا لم يكن طويل المدى ، بل سرعان ما عدت إلى خلقي الأَصيل ، أَي بطيءَ الحركة ، وعديم الانتباه إلى درجة تعطي مجالا رحباً لمن يحاول أَن يتهمني بالبلاهة ، إذا أَراد هذا أَن يتساهل معي بحكمه ، كما تعطي مجالا للثاني باتهامي بالغرور والكبرياءِ ، وربما يتهمني آخرون بمـــا نقلــه إلي أَصدقائي الصريحون بمـــا يقوله البعض عنِّي بأَنني أُعاني عُقَداً نفسيَّة ، كونت في طباعي مُرَكَّب نقص.

المهم ... لا أَقول أَنني تخليت عن تلك الحركات السريعة والقفزات أَو (المطامَرُ) العجل فحسب ، بل أَنبني ضميري واستهجنت نفسي وعاتبتهـــا على ما بدر مني من الخفة على تلك الحركات ، وعلى ذلك التصرف الرياضي النشيط ، وإن كنت حينئذ شاباً تشفع لي صحتي ويشفع لي جسدي وعضلاتي .

وإذا كنت فشلت من هذه الناحية على اعتبار أن فشلي هذا جاءَ نتيجة لأَني تخلقت في حركاتي بأَخلاق لم تكن موجودة في خلقي الأَساسي ، فإنني أَيضاً فشلت من ناحية أُخرى فشلا مماثلا لفشلي السابق ، حيث تكلفت أَمراً لم يكن مطبوعاً بسجيتي . وهذا الأَمر هو أَنني تعمدت الصمت فكأَنني جماد ، أَو كأَنني أَصم أَبكم ، مقدراً القول المأْثور : (إذا كان الكلام من فضة فإن السكوت من ذهب) ، وهذه الحكمة المأْثورة لا تخلو من الواقع فيما لو كان صاحب الصمت صامتاً عن مقدرة على الحديث ، وعن حكمة لا عن عجز وغباءٍ ، أَو إذا كان صمته خُلُقاً لا تَخَلُّقاً مُصْطَنَعا كما فعلت . ولما كان صمتي تَصَنُّعاً فإنني ما لبثت أَن عدت إلى خلقي الأَصيل .

والشاهد هنا هو أَن هذين الخلقين اللذين تخلقت بهما برهة قصيرة من الزمن ، قاصداً أَن أَحظى برضى الفقيد ، ثم هجرتهما فجأَة عائداً إلى فطرتي التي لا

تكلف فيهــا ولا تصنع ـ أمــا الاخلاق الي يمارسها المرءُ عن تصنع وتكلف فإنه على طول المدى سوف يلفظها نابذاً إياها ، وعائداً إلى طباعه وسجيتــه ، وتلك ظاهرة أَشار اليهــا أَبو الطيب المتنبي بقوله :

وأَسْــرعُ مَفْعُــول فعلت تغيراً
تَكَلُّفُ شيءٍ في طِباعِكَ ضِــدُّهُ

أَقول : إن هذين الخلقين اللذين هجرتهمــا فجأَة بعد التزامي بهما كانا من الأُمور الي أَثقلت ظلِّي عنــد الفقيد .

أُصبحت ثقيلاً حتى عنــد ذوي القُربى

يضاف إلى ذلك أَن هناك أَمراً زاد ظلي ثقلا ، لا عند الفقيد فحسب ، بــل أَصبحت موضع اشمئزاز حتى عند أَقرب المقربين من أَصدقائي بما فيهم عبد الله المتعب الرشيد ، وهذا الأَمر هو أَنني في حقيقة وضعي وفي قرارة نفسي لم أُفكر يومــاً من الأَيام بأَن انضمامي إلى (خوة) الفقيد أَو إلى (خوَّة) الأَمير محمد من قبله

عمل يمكن أَن ابني عليه مستقيل حياتي إلى المدي البعيد. وإنمـا كان هدفي من التحاقي بـ (خوة) الأَول والأَخير ليس إلا وسيلة ، ولم يكن غاية بحد ذاتها ـ وسيلة أَستعين بها على ما يقوم بأَودي في تأْمين الْبُلْغَةِ ـ أَما الغاية عندي فهي السعي في حصول العلم ـ الذي اعتقدت جازماً أَنني لا أَستطيع أَن أَضمن لنفسي مستقبلا كريماً ما لم أَنَـلْ نصيباً من العلم ، أَنَّى كان ذلك العلم وحيث يكون. وكان العلم السائد وقتهـا هو علوم الدين ، ولم يكن هناك بنجد خاصة أَيـة مدرسة من المدارس على نهج العصر الحديث الجاري الآن ، وكانت المدرسة الوحيدة لعلوم الدين مجالِسَ المغفور له الشيخ محمد بن ابراهيم آل الشيخ ـ فكنت أَتسلل إليها خلسة بعد صلاة الفجر ، حيث يلقي الشيخ دروسه في تلك الفترة ، وكان من أَهم الأُمور التي تجعلني أَخفي مسلكي هذا وجود البون الشاسع بين مجتمعي الذي أَعيش بين ظهراني أَهله من (الخويا) وأَمثالهم ، وبين مجتمع

طلبة العلم لدي الشيخ محمد بن إبراهيم. فالمجتمع الأَول وإن كان جيله ملازماً للتقاليد والعادات العربية، ولكنه يعتبر متحرراً إذا قورن بالمجتمع الذي يعيشه الشيخ محمد بن ابراهيم وطلابه، ومثالٌ على ذلك شرب الدخان، ففي الحين الذي يستطيع المرءُ أَن يشرب الدخان بين أَفراد المجتمع الأَول، فإنه لم ولن يفكر أَن يشربــه بين رجال المجتمــع الثاني الذين يرون شربــه من الكبائر.

وكان بإمكاني أَن أَمضي شوطاً بعيداً، وطويلا بإخفائي لمسلكي هذا عن جميع زملائي ورفاقي (الخويا) وأَميرنـــا لكي لا ينفروا مني ويستثقلوني - أَجـــل كنت أَستطيع أَن أُواري مسلكي هذا، ولكن المشكلة هي أَن عَدْوَى مجتمع الشيخ محمد تسللت إليَّ، حتى هيمنت على كل جارحة من جوارحي، فتــأَثرت نفسياً وأَخلاقياً ودينياًّ في مجتمع ذلك الحبر العظيم، والعالم الجليل، وتــأَقلمت به تــأَقلماً فظيعــاً. انقلبت به رأْساً على عقب،

فأُصبحت من أُشد المتعصبين ، بل من أُعنف الجامدين المتزمتين ، فأَصبح بعض أَصدقائي الذين بالأَمس يشربون الدخان أَمامي ، بل ويشروبنـــه في منزلي ، وأَحياناً أَشتريـــه لهم كمضيف إِياهم ، هؤلاءِ النفر أَصبحوا يتحاشون أَن يشربه أَي واحد منهم أَمامي ، بل أَصبحت أَتصور أَن من يشرب الدخان أَمامي في أَي مجلس أَحضر فيـــه فإِنه بعمله هذا يتعمد إِهانتي . وكم من مرة ومرة ثرت ، وغضبت على من يشربه أَمامي ، وكم من مرة خرجت من منزل بعض الرفاق غاضباً ، ومحتجاً على صاحب المنزل الذي يسمح لزائره بأَن يشرب الدخان أَمامي – وكم من مرة احتجب عني أَحد أَصدقائي عندما أَطرق بابه زائراً كالعادة ، كمـــا وقع مني ذات مرة حيث ذهبت إِلى منزل عبد الله المتعب الرشيد . وما إِن وصلت هناك واجتزت الباب الخارجيّ . وجئت قاصداً أَن أَدخـــل إِليه في مكانه الذي اعتدت أَن التقي به فيه حتى ردني الحاجب قائلا : إِن عمـــه

ليس موجوداً ـ وفيما بعد أُخبرت أَن صاحب المنزل كان موجوداً وجالساً في مجلس حافـل ، يضم عدداً كبيراً من أَقاربه وأَصدقائه وزواره ، أَي إن المجلس لم يكن سِرِّيّاً أَو محصوراً على أُناس دون أُناس. وأَذكر أَن من بين أَقاربه وأَصدقائه الأَخ فيصل الرشيد ، الذي لا زال على قيد الحياة. وقد علمت فيما بعد أَن الاخ فيصلا استنكر من عبد الله أَن يمنعني حاجبه من الدخول اليه ، نظراً لما يعرفه فيصل من صلة وطيدة الجذور بيني وبين عبد الله ، فكان جواب عبد الله لفيصل قوله : (إن فهد المارق لم يكن فهداً الأَول).

والجدير بالذكر أَن هذه الرواية لم ينقلهـا لي فيصل ، بل الذي أَخبرني بها عبد الله نفسه ، وقد أَسمعني إياهـا في مناسبة عتاب جرى بيننـا حيث كنت (أَشره عليه)[1] على مـا بدا لي منه من الجفاءِ ، وعندها كان عتابه لي صريحـاً كعادته ، أَخبرني أَنه

---

(١) (أشره عليه) ـ أي أعتب عليه عمله بلطف ومحبّةٍ .

أَبلغ الحاجب بأَن يمنعني عن الدخول إليه كمـا أَكد لي استنكار فيصل السالف الذكر ، وكان في عتابـه الصريح يثبت بل يؤكد عن قناعة أَنِّي أَصبحت في وادٍ وهو في واد ـ وأَكثر من ذٰلك قال لي في إحدى المناسبات غفر الله له : (أَنا لا أَعتب عليك بأَن تطلب العلم ، وأَن تستمر في طلبك هذا ـ بـل إني أُوَكد لك أَنك بدون العلم مهمـا اعززناك وأَحببناك ، فإنك لن تتجاوز أَو تتعدى المنزلة الي ينالهـا أَطيب الناس الذين من أَمثالك ، ولكنك إذا تعلمت فإنه سوف يأْتي اليوم الذي تستطيع به أَن تجلس بجانبي جلسة النِّدِّ لِنِدِّهِ ـ ثم مضى وقال : ولكن هذا لا يمنعني من أَن أَقول : (إننا خسرناك) .

وبعد ، فقد يتصور القارئُ السطحي الذي يقرأُ بعينيه لا بعقله وفكره ، أَو الذي يقرأُ ولا يستوعب ما يقرأُه ، وإنما يقرأُ ليلتقط العثرات والزلات ، أَو الذي يقرأُ وهو يحب ويود أَن يجد كبوة وزلة ، ويسره أَن

يجد شيئاً من ذلك ، أَقول ربمـــا يتصور القاريءُ الذي
من هذا النمط أَنني قد أَسهبت في الحديث الذي له صلة
بعبد الله المتعب ويفوت القاريءُ الذي من هذا النوع أَنني
عندما آتي إلى ذكري لهذا الحديث فإِنَّ هدفي من وراء
ذلك أَن أُثبت أَن الجفاءَ الذي واجهتـــه من الفقيد لم
يكن ناتجاً عن عدم التزامه بما تعهد لي به في الحديث
الذي سلف ذكره ، وإِنمـــا سببه كان ذلك النهج الذي
سلكته ، وعندما أَذكر الجفاءَ بـــل النفور الذي وقع
من عبد الله المتعب بالنسبة إِليّ فإِنني أَردت أَن أُقدم
دليلا واضح المعالم بأَنه ما دام سلوكـــي الأَخير جعل
عبد الله المتعب ينفر مني – وظل نافراً حتى توفاه الله – .
أَقول : ما دام أَن ذلك صدر من عبد الله ، الصديق
القديم الحميم ، فكيف والحالة هذه لا يستثقلني الفقيد
وحاشيته معـــاً ... ؟!!!

فرصة أتيحت كادت تبدل وضعي

على الرغم من أني أصبحت كالْمُقَاطَعِ بين مجتمعي ومحيطي السابقين ، كما لم أكن منسجماً مع رجال مجتمعي الأَخير ، ما عدا أُستاذي الشيخ محمد غفر الله له . وصديقي الشهم الشيخ عمر بن حسن آل الشيخ [1] أمد الله بأَجله ، رغم ذلك أَتيحت لي فرصة ذهبية من حيث الكسب المادي ، وهي فرصة لو استغللتها لوجدت أَوضاعي المادية منقلبة من الحضيض إلى القمة .

والجدير بالذكر أَن تلك الفرصة لم تبعدني عن انضمامي إلى (خُوَّة) الفقيد ، وإنما تزيدني قرباً منه – مهما كنت ملتزماً بسلوكي واتجاهي الأَخير – بل قد

---

(١) انظر كتابي « من شيم العرب » الجزء الرابع – صفحة ١٣٦ .

يكون في منهجي الذي ثقلت به من ناحية عند الفقيد وغيره ـ يكون من ناحية ثانية هو الذي يرغب الفقيد بي ، ويقربني منه كل القرب ، بل ويجعلني من (حَمَام البيت) ـ كما يقال في المثل الدارج عندنا . واليك شرح تلك الفرصة :

يوجد لدى زوجة الفقيد فتاة محصنة شريفة ، وأَبوها من أَبرز فرسان زمانه الغابر ، وخالها ذو منصب مرموق ، يحسد عليه وقتذاك ... وأُم الفتاة يقال إِنها مرضعة ومربية لزوجة الفقيد التي هي ابنة عمه الملك عبد العزيز .

وقد بلغني أَن هذه الفتاة تعتز بنفسها ، وتأْنف من قبول أَيِّ بعل كان ، بل يقال عنها بأَنها دائماً تعلن رأْيها بأَنها ترغب أَن يكون قرينها في الحياة شابًّا من طبقتها لا يعرف عنه إلا السمعة الحسنة ، ولو كان فقير الحال .

وفي إِحدى المناسبات الي تبادلت فيها الحديث مع

صديق العمر الاخ صالح الفريحان ـ غفر الله له ـ سأَلْته عن هذه الفتاة مجرد سؤال عابر ، فأَثنى عليها خيراً ، ثم انتقل سؤالي له الطاريُّ إلى استشارته وأَخذ رأْيه في الزواج منهـا ، فَحَبَّذَ الفكرة واستحسنهـا ، وعندئذ تم الاتفاق بين صالح وبيني على أَن تذهب والدته لأَخذ رأْي الفتاة أَولا ، فذهب صالح على الفور ، وطلب من والدته أَن تتصل بالفتاة ، فعادت الوالدة بخبر يفيد أَن الفتاة لا مانع عندهـا . فتبادلنا الرأْي صالح وأَنـا على أَن يذهب خال صالح ـ وهو المرحوم عيد السعد ـ إلى والد الفتاة ليطلبهـا منه ، وفي وقتها ذهب صالح إلى خاله ، وفي اليوم الثاني عاد عيد إلينا ليخبرنا أَن والد الفتاة موافق ، إلا أَنه يرى أَن من المستحسن بأَن أُخبر الفقيد بالأَمر ، بصفة أَنَّ الفتاة في منزله . وأَن أَطلب من الفقيد بأَن يخبر خالهـا صاحب المقام الرفيع لتتم موافقته ، إذ لا يتم الأَمر إلا بموافقة الخال الوزير ، وأَكَّد لي عيد نقلا عن والد

الفتاة بأَن الخال سوف لا يرفض طلب الفقيد ، ولو كان لديه نيـــة بعدم الموافقة ، كان هذا الحديث في حوالي عام ١٣٦١ (١٩٤١ م) وكنـــا وقتهـــا في مدينة الرياض ولكننا على أَهبة الاستعداد للذهاب إلى ما يسمى بـ (المقناص) .

وكنت في الفترة التي ذهبت بها والدة الأَخ صالح إلى الفتاة ، والفترة التي ذهب بهـــا خاله عيد إلى والدها ــ في تلك الفترة ــ أَخبرت الفقيد بالموضوع فرحب به ترحيباً يعبر عن رغبتـــه ورضاه ، بل قال لي : (إن أَيَّ شخص يتم له الزواج من هذه الفتاة فإنه سوف يكون واحداً ممن يتوغلون في دخول منزلنا ، وسوف لا أَقبـــل أَن يتزوجهـــا سوى شخص أَطمئن وأَثق بدينه وأَخلاقه ، ولذلك فإنني مطمئن منك ، وأُرحب بزواجك منهـــا ــ ثم أَضاف : هناك منزل في الشرقية اشتريته بثلاثين أَلف ريال ــ يساوي الآن ثلاثة

ملايين ريال ـ وهذا المنزل سوف أَهبه لك حالما يتم زواجك من هذه البنت) .

لقد شعرت أَن الفقيد انبلج وجهه سروراً وغبطة حالما أَبديت له هذه الفكرة ، وبدا لي منه أَثناءَ حديثي أَنني ـ وإن كنت انساناً ثقـــل ظله وروحه عند رجال مجتمعي قاطبة بما فيهم أَصدق صديق ، وأَقرب قريب لي أَيضاً ، بسبب سلوكي الجامد المتحجر الذي أَضفته إلى بطْءِ حركاتي وثقل روحي إلا أَنني أَحسست بـأَن سلوكي هذا أَصبح ـ بالنسبة للفقيد ـ مدعـــاة لقبولي عنده قبولا يختلف كثيراً عن ذي قبل .

عاملان تصارعا في كياني

ولا بد أَن أَعترف أَنني بعد أَن نقلت فكرة الزواج من هذه الفتاة من حَيِّز الخيال ، والكلام ، إلى مرحلة التنفيذ؛ بعد ذلك استولى على كياني حافزان: الأَول يدفعني بعنف ، لأَن أَقبل شظف العيش ، وأَبيت على الطَّوَى جُوْعاً ، وأَنا موفور الكرامة ، والآخر يدعوني إلى الدعة ، بل يحضني أَيضاً بشدة ، ويغريني بقوة على قبول المرتع الخصب ، والفراش الوطيء ، والعيش الهنيء...

كان هذا الصراع بين الحافزين المختلفي الاتجاه يختلج في نفسي ، منذ أَن قال لي الفقيد: إنه سيهبني منزله الذي اشتراه بثلاثين الف ريال. منذ سمعت تلك

الكلمة بدأ ذلك الصراع يدبُّ في نفسي بصورة مستترة صامتة ، إلا أنه عندما دنا الأمر من مرحلة التنفيذ ، وأصبح وَشِيْكَ التحقيق ، ازداد ذلك الصراع اصطداماً .
وكان ذلك ـ عندما خرجنا من مدينة الرياض ذاهبين إلى « المقناص » وحينما نزل الملك عبد العزيز في (روضة التنهات) ونزل معهُ الامراءُ وحاشيتهم والنبيل من جملة الامراءِ ، وكنت من جملة حاشيته . وبعد أن استقررنا في تلك الروضة الغناءِ ، النافح عبيرها بأزهار الاقحوان ، وأشجار ربيع الصحراءِ ، المختلف نباته ، بعد ذلك سألني الفقيد عما تم في الموضوع ؟ فأخبرته أن الأمر انتهى من جميع الجهات ، ما عدا خال المخطوبة الذي يتوقف نهاية الموضوع عليه ، سلباً كان أو إيجاباً ، فقال النبيل : أنا ذاهبٌ الآن بعد تناول طعام العشاءِ إلى جهة « المخيم » الذي فيه خالها ، وسوف أَمُرُّ عليه في طريقي ، وانهي الموضوع معه . كان هذا الحديث من الفقيد بعد صلاة

العصر ، بمقدار ساعة واحدة ، وكان طعام العشاءِ عادة بعد صلاة المغرب .

لقد بات مفهوماً أَنه بين جلوسه وبين تناوله طعام العشاء ، وذهابه إلى (المخيم) ما يقارب ساعتين ، ولكن تينك الساعتين شعرت أَن مدة فترتهما علي بمثابة السنتين - وذلك ان الصراع السالف الذكر بين الحافزين المتصارعين بدأَت نيرانه تلتهب في أَعماقي بعنف شديد ، ولا عجب فقد شعرت أَنَّ انتصار أَحد هذين الخصمين على الثاني سوف يتحدد لا محالة في هاتين الساعتين - فإما أَن أَتَلاَفى الأَمر ، وأَطلب من النبيل بأَن يترك موضوع الخطبة من أَساسه ، وإما أَن « أُصَهْيِن » كما يقال - وفي سكوتي هذا ما يجعل الفقيد يستمر في تنفيذ المشروع .

والواقع الذي لا أَستطيع جُحَودَه هو أَن وَخْزَ ضميري بدأَ يقلقني في تلك الفترة ، بصورة أَشد من جميع الأَيام السابقة ، وقد ازداد وخز الضمير وعذابه وظلاَّ

يقلقاني عندما جاءت علامات الاستفهام تترامى علي ، واحدةً تِلْوَ الأُخرى بالأَسئلة الآتية : لماذا لم يفكر « مُعَزِّبِي » بأَن يهبني هذا البيت الثمين إلا عندما أَبديت له رغبتي بالقران من تلك الفتاة ؟ ..

ثم يأْتي السؤال الثاني : ماذا يكون مقدار مركَّب النقص الذي سيعتريني عندما أَسكن هذا البيت الضخم ، ويتبدل وضعي الماديُّ من الحضيض إلى القمة ، وعندما أَذهب أُقيم وليمة لأَصدقائي ، ومن ثَمَّ يقول أَحـــد أَصدقائي بعد تناول الطعام الكلمة المأْلوفة : (خلف الله عليك) وعندئذ يميل أَحدهم إلى الناطق بهذه الكلمة ، ويهمس في أُذنه بكلمة غير مسموعة ، وقد تكون تلك الكلمة بعيدة عن الموضوع ، الذي يخيل إلي الشعور بمركب النقص الذي أُعانيـــه ، بأَن هذا الهامس في أُذن رفيقه يقول : لا خلف الله على ابن مارق بـــل خلف الله على .... زوجته ابنة فلان !!!!

ثم يأْتي إلي السؤال الثالث ليقول : ماذا يكون موقفي

عندما يقع خلاف ومشاجرة بيني وبين العروس ، ومن ثَمَّ يحاول كل واحد من الزوجين أَن يثبت مِنَّتَهُ على قرينـــه كما جرت به العادات المأْلوفة ، والكثيرة الوقوع بين الزوجين ، مهمـــا كان بينهما من وئام ووفاق ، وفي اثناءِ هذه المشاجرة قالت لي العروس: من الذي تبارك عليك بإِسكان هذا البيت سواي انـــا ؟!! ومن الذي جعلك تقيم الولائم تِلْوَ الولائم لأَصدقائك وزوارك بصورة لم تنقطع إلا أَنا التي اقدم لك الطعام الشهي ، من الغذاءِ الدسم ، الذي يأْتيك صباحاً وظهراً ومساءً مقدماً لك في (بوادي) أَي جفنات يَختلف أَنواع الطعام فيها ومن نفس طعام وغذاءِ العمة الأَميرة ، والعم الأَمير؟ من أَين لك أَن تحصل على شيءٍ من هذا النعيم الرافل والحظ الوافر لو لم يسعدك الحظ بالزواج مني ؟! ... ومتي كان عمِّي يا فهد المارق ينظر إليك كأَنك واحد من أَهل بيته ، بعد أَن كان يراك (خَوِيّاً) ثقيل الظل والروح ، والنفس والجسد والحركة ؟! ... ثم يأْتي

إلي السؤال الرابع فيقول : إذا اصطدمت بهذه الأسئلة وجهاً لوجه وهي أسئلة لا بُدَّ من مواجهتها ، فماذا يكون موقفي منها ، هل استسلم للأمر الواقع وأَظل ذليلا مهاناً ظاهري الاسمي أنني أنا الزوج ، بينما الزوج الحقيقي هي لا أنا - أم أنني سوف أصرم حبالها فوراً عندما اصطدم بالسؤال الأول دون أن أنتظر مواجهة الاسئلة الباقية .

ثم يأتي السؤال الأخير والمحرج قائلاً : هل إذا طلقتها ، سيظل الأمر موقوفاً على طلاق هذه الفتاة أم أنه قد ينتقل إلى انقطاع الصلة نهائياً بين « مُعَزِّبِي » وبيني ، لأنه سوف لا يستمر في عطفه عليَّ هذا بعد الطلاق ؟! وهل الذي يخرج من ذلك البيت الضخم هي أم أنا ؟!

كل هذه الأسئلة المتحتم وقوعها كانت تقلقني ، ولكن إقلاقها لم يشتدَّ ويحتدم إلا في تلك الفترة السالفة الذكر - أي بعد صلاة العصر وحتى تناول الفقيد

لطعام العشاءِ إلا أَنني قبل أَن يذهب الفقيد بساعة واحدة اتخذت القرار الحاسم الذي انتصر به الحافز الداعي إلى قبول شظف العيش ، وهجران المجتمع ، واحتمال مضاعفة جفاءِ الفقيد .

أَجَل !! انتصر هذا على الحافز الثاني انتصاراً شعرت به ولا زلت أَشعر براحة ضميري ، واطمئنان نفسي ، فذهبت أَتناول طعام العشاءِ مع الفقيد بشهية أَكثر بكثير مما لو ظللت متردداً بين الإِقدام والإِحجام في اتخاذ هذا القرار .

لم يعلم الفقيد أَنني اتخذت هذا القرار ، بل ولم يخطر له ببال أَنني سأَتخذ قراراً كهذا ، وذلك أَنني لم أُبْدِ له خلال تلك الفترة بذلك المجلس أَيَّةَ إِشارة تعبر عن رأْيي الأَخير . وإِنما تركته حتي ركب سيارته قاصداً الذهاب . وقبل أَن تتحرك عجلات السيارة مِلْتُ إِليه وقلت له : إِنني استخرت الله وتراجعت عن موضوع الخطبة ، لأَنها على ما يبدو لي تعقدت ، ومن تعقيدها

أنهـا لم تتم بكل سهولة ، ما لم تتوسط أَنت فيها ... وما دام أَنهـا لا تتم إلا بوساطة جاهك ، فإِنَّ جاهك عندي عزيز ، وأُريده أَن يكون في أَمرٍ أَكبر من ذلك. فقال : بالنسبة إليَّ فإن الأَمر لم يكن به كلفة ، بـل سوف أُنْهيـه الليلة هذه بكل سهولة. قلت : ولكنني عقدت النيـة والعزم على ترك الموضوع من أَساسه ، وأَود أَن تعتبره ـ طال عمرك ـ كأَنه لم يكن ....

كان الفقيد أَثنـاءَ هذا الحوار جالساً بجانب قائد السيارة السيد مفتاح ، الذي لا بدَّ أَنه يذكـر ذلك الحوار ، بصفتـه لا يزال حيّاً يرزق [1] الآن . وكان محرك السيارة له هدير ومقود السيارة بيد السائق ، فما إن سمع النبيـل مني تلك الكلمة حتي انحرف عني بوجهـه ، واتجه إلى قائد السيارة وقال : امش ... فبادرت مسرعـاً وقبضت على يد سائق السيارة وقلت

(١) في ١٠ ذي القعدة ١٣٩٢ ـ ١٩٧٢/١٢/١٥ كنت في مدينة الرياض وطلبت من الامير بندر نجل الفقيد قبل رحيل الفقيد بأن يحضر السيد مفتاح . فاحضره فسألته بحضور بندر عما إذا كان يذكر الكلمة الأخيرة التي قلتها للفقيد فأجاب بنعم .

للفقيد: أرجو ألا تؤاخذني فيما إذا قلت: إن هذه البنت طالقة من ذمتي طلاقاً بالثلاث قبل أن يتم عقد النكاح عليها، قلت هذه الكلمة ثم انصرفت بدون أن أنتظر جواباً من الفقيد، الذي لم يبحث معي هذا الموضوع، اللهم إلا منذ سنوات خلت ليست بالبعيدة، حيث جرى حديث مع الفقيد في هذا الموضوع. وهو حديث لا يخلو من اجترار الإنسان لأحداث الماضي. وكنت البادئ بالحديث من قبيل الذكري فقط، وكان حديثنا هذا في لبنان في مدينة (عاليه) ، في إحدي الفترات التي كان يأتي فيها الفقيد إلى المصيف - تغمده الله برحمته -

الفصل الرابع

صُدودٌ مِن الفقيد عنّي وعَطفٌ منهُ عليَّ



أَجل ... لقد تقلصت فعلا معونة الفقيد التي يهبني إِياها كأُجرة البيت وهباته ، التي ـ وإِن لم تكن منتظمة شهرياً ـ إِلا أَنهـا كانت لا تنقطع ،

كنت قانعاً أَنني المسؤول عن اسباب تقلص هباته ، وقد جاءَ ذلك التقلص نتيجة للعوامل الآتية :

أَولا ـ أَنني لم أَكن (الخويَّ) الناجح .

ثانياً ـ سلوكي الذي انتهجته ـ الذي جعل أَقرب الناس إِليَّ ينفر مني كما اسلفت .

ثالثاً ـ الاسلوب الذي اتخذته بعدم قبولي للزواج بتلك الفتاة ، وحطمت به آخر أَمَلٍ يمكن أَن يجعلني مقبولا لدي الفقيد ، كل هذه العوامل جعلتني اشعر أَنني (خوي) له بالاسم فقط لا بالفعل .

حينما شعرت أَنني صفر اليدين من أَي مورد أَستعين

به على كفاف العيش شحذت تفكيري ، وهنا وجدت
ان خير وسيلة أَلتمسها هي أَن أَبعث زوجتي إلى أَهلها
في حائل ومن ثم ابيع جميع أَثاث منزلي ، واضع ثمنه
بيدي ، مكتفياً بسكن غرفة في منزل الفقيد الفسيح ،
وقد نفذت تفكيري هذا فبعت الأَثاث كما تباع
تركة الميت بربع قيمته الأَساسية ، فظل بيدي نقود
لا بأْس بها - وبالامكان أَن أُنميها بدون أَن أَحتاج
إلى الإنفاق منها - على اعتبار أَن سكني وطعامي على
حساب الفقيد ، وإنما المشكلة عندي هي أَنني أَعول
زوجتي وابني الطفل الرضيع محمداً ، ولا تقبل نفسي
أَن أَتركهما عالة على والد زوجتي الذي وإن كان خالي
شقيق والدتي فإن ضميري لا يرتاح إلى ذلك حتى
ولو كان والدي ، والواقع أَن التجارب ودارسة تاريخ
الرجال أَعطياني درساً غزير المادة - يؤكد بوضوح
أَنه لا يجوز للمرء ان يربط نفسه بالزواج وانجاب
الذرية قبل ان يضمن مصدر النفقة الذي يقوم بأَوده

هذا هو الواجب ، كما يجب على والد الفتاة الا يزوج ابنتـــه رجلا ليس لديه مورد مضمون ، هذا ما ينبغي ان اطبقه فيما لو استقبلت من امري ما استدبرت ، وكان علي أن آخذ عبرة عن واقع حال البلاد التي بلغت رشدي فيها كمصر والسودان ، ولكن الانسان ــ وخاصة حديث السن ــ مهما درس ومارس وجرب ، فإن محيطه وبيئته يؤثران على حياته تأثيراً عملياً وجذرياً ، وهكذا أثر علي مجتمعي وبيئتي وذهبت أتزوج واسعى في تكوين الاسرة قبل ان أضمن لنفسي مورداً يوفر لي الكرامة .

عندما توفر لديَّ ثمن أثاث منزلي خطر ببالي أن أقوم بعمل أوفق به بين مواصلة دراستي على الشيخ محمد من ناحية وبين تنمية المال الذي هو ثمن أثاثي .

كان أي شيء يأتي من البحر إلى جدة يريع مكسبه في الرياض ربحاً لا حدود له وذلك بحكم عـــدم توفُّر المواصلات وعدم الطرق المعبدة وقتذاك .

وقد تبادر إلى ذهني بأن اطلب من الفقيد بذل جاهه

لدي وزير المالية المرحوم عبد الله بن سليمان بأَن يمنحني سيارة (لوري) لكي أَحمل فيها بضاعة آتي بها من الحجاز إلى الرياض.

قلّ أن ينطق الفقيد بكلمة لا

كنت واثقاً ثقة وطيدة أَنني عندما اطلب من الفقيد بذل جاهه لدي وزير المال بأَن يمنحني سيارة (اللوري) بأَن لا أَسمع منه كلمة (لا) ومصدر ثقتي هذه جاءَ لا من اجل أَنه غفر الله له لم يخسر شيئاً من ماله ـ وهو لم يبخل به ولو خسر، كما لم يبخل بجاهه مهما كان الأَمر ـ بل لأَنه بطبيعته لم يعتد أَن ينطق بكلمة (لا) ولا أَعتقد أَنه نطق بها صاداً ـ طالبه. أَو راداًّ وافده، وأَثقل كلمة ينطق بها النبيل، إذا شاءَ ان لا يلزم نفسه بوعد لم ينفذه هي قوله لمن يطلب منه حاجة ما:(نشوف) أَي ندرس الموضوع.

كنت أَخشي ان يجيبني بـ (نشوف) ظانًّا ان ما في

نفسه علي بحكم انقطاع صلتي به يجعله يقول هذه الكلمة ، أَو بسبب الأُسلوب الذي سلكته بعدم قبولي الزواج من تلك الفتاة التي يرغب ان يتم زواجي بهـا كما سبق ان ذكرت ذلك.

ولكن الفقيد الشهم كان أَرحب صدراً ، وأَسمح خلقاً ، وأَكرم نفساً ، وأَطيب قلباً ، وابعد نظراً ، وأَفسح عقلا ، مما كنت اظنه به خطأً ، بل وافق على طلبي بدون تردد ، اكثر من ذلك قال : (اكتب طلبك الذي تريده ، وائت به لأُوقِّع عليه) فذهبت وكتبت رسالة للوزير تتضمن طلب الفقيد منحي سيارة لوري لِحَمْلِ اكياس من (الاسمنت) ومجرد ما قدمت تلك الرسالة اليه ، وقع تحتها فوراً بدون ان يكلف نفسه قراءَتهـا ، فأَخذتهـا . وذهبت بها إلى الوزير عبد الله آل سليمان الذي يقيم وقتها في جدة . وعندما قدمت الرسالة اليه كان الرد منه سلبيًّا ، حيث اعادها إلي بدون أَن أَرى منه ما يعبر أَقل تعبير عن تنفيذه لما تحتويه تلك الرسالة ،

وكانت الكلمة التي اجابني بها الوزير قوله:(إن السيارات الحكومية التي تذهب من هنا إلى الرياض دأَبها حمل ما يحتاج اليه الملك وضيوفه لا (الاسمنت).

كان كلام الوزير هذا من شأْنه ان يحطم أَملي الذي شددت الرحال من الرياض إلى جدة من أَجله ـ قاطعاً ما يزيد عن الف كيلو متر بحثاً لتحقيقه .

اجل كان علي ان ايأَس ، ولكن من حسن توفيق الباريء هو أَن لا أَجعل لليأْس سبيلا يستولي به على مهجتي بل كنت مؤمناً بالبيتين اللذين انشدهما شاعر المهجر ايليا ابو ماضي عندما قال :

إنّي لأُزْهَى بِالفتي وأُحِبُّه
يَهْوَى الحياةَ مَشقّةً وصِعابا

وإذا تقوض صرحُ آمالٍ بَنَى
أَملاً جديداً من رَجَاءٍ خَابَا

وهكذا دفعني عدم يأْسي إلى أَن أَتجاهل رفض الوزير وأَن أَذهب عائداً إلى مكة التي يقيم فيها أَخو الوزير

المرحوم حمد آل سليمان قاصداً أَن أَعرض عليه رسالة الفقيد ـ وهكذا فعلت ، حيث قدمت الرسالة اليه بصفته يقوم في كثير من الأَحيان مقام أَخيه الوزير في غيابه وحتي في حضوره وقد تناول الشيخ حمد الرسالة ثم شرح في اسفلها بجملة مضمونها تنفيذ ما تحتويه .

وقد ذهبت برسالتي هذه إلى (مدير كراج سيارات الحكومة) وما إن عرضتهـا عليه حتي سلمني ذلك اللوري ـ بقائده ـ وبأَوراق بنزينه .

كانت قيمة كيس الاسمنت في جدة بـ (عشرة اريل) بينما هو في مدينة الرياض بخمسين ريالا ، ولذلك وجدتني حالما أَعطيت السيارة ـ ذهبت وحملتها خمسين كيساً من الاسمنت ، وركبت بجانب قائد السيارة ذاهباً إلى الرياض ، وما أَن وصلتهـا حتي بعت بضاعتي على شخص يدعي محمد الزيداني من اهـل عنيزة فكان مكسبي الفي ريال ـ وهو مبلغ في ذلك الوقت مُغْرٍ ، ويعتبر من يملك مبلغاً كهذا ثَرِيًّا في تلك الأَيام .

كان وجود ذلك المبلغ لديَّ - وعدم مطالبة الفقيد لي بأَن أَلتزم (خُوَّته) هذا من ناحية ومن ناحية أُخرى حرصي بأَن أُوفر بين يدي من المال ما يجعلني أَعيش هادئ البال عندما أُكرس جهدي لمواصلة دراستي، وانقطاعي للعلم والتحصيل، كل من هذا وذاك حفزني أَن أَسعي أَكثر للحصول على المال عن طريق التجارة، ولذلك ذهبت بتجارة غامرت بها إِلى العراق، ولئن كنت في تلك المغامرة كدتُ أُلاقي حتفي على يد غادرٍ من (الصَّلبَة) وهي قصة يطول شرحها - إِلا أَنني ربحت في تلك السفرة ربحاً جيداً، وإِذْ كانت صداقة الرجال الأَخيار من أَعظم الفوائد فإِنني ربحت في سفرتي تلك معرفة بل صداقة الدكتور عبد الكريم زيدان الكريم[1] الشهم البغدادي الأَصل الذي له معي قصة نبل سوف اشرحها بمؤلفي الجزء الخامس «من شيم العرب».

---

(١) الدكتور عبد الكريم زيدان تولى وزارة المواصلات في عهد حكومة عبد الرزاق النايف بالعراق ويقال انه من الاخوان المسلمين بل زعيمهم في العراق.

عدت بعد هذه الرحلة إلى الرياض ساكناً في منزل الفقيد ثم ذهبت إلى مدينة بريدة- حيث اشتريت غنماً ، وبعتها على عبد العزيز بن سليم بمكسب جيد .

ظللت بعد ذلك أُواصل دراستي على الشيخ محمد بن ابراهيم وقد توفر بيدي من المال الشيءُ الذي مكنني من مواصلة الدراسة ، هاديءَ البال .

والشيءُ الذي لا جدل فيه . هو ان المبلغ الذي جاءَني بسبب جاه الفقيد ،كان عاملا رئيسيًّا في نموّ المال ،ذلك انه وإن صَدَّعني ، فإنه لم يحرمني من عطفه حيث كنت ساكناً في منزله آكلاً شارباً كما لم يحرمني من جاهه الذي سلف ذكره .

اللهم اغفر له واسكنه فسيح جناتك !! ....

الفصل الخامس

من "خوّة" الفقيد إلى الدراسة المنظمة



كانت دراستي الابتدائية أو البدائية في مسقط رأسي مدينة (حائل) على يد المرحوم الشيخ عبد الله الخُلَيْفِي ، وكانت هذه الدراسة صورة عن دراسة ذلك الجيل ، حيث لا تعدو تعليم القرآن الكريم وحروف الهجاء حتى سورة البقرة. وقد أكملت هذا الشوط إبَّانَ طفولتي ، ثم ذهبت إلى القاهرة ، وظللت أدرس الحساب والخط والإملاء في إحدى المدارس الاهليــة الليلية ، إلا أن كفاحي في سبيل العيش فتي يافعاً لا عائل لي إلا كسب يميني عاملا تارة في معمل البلاط ، وتارة أخرى ملاحظ عمال عند شيخ دين مصري تبَنَّانِي وعطف علي ، كان ذلك يحول دون استمراري في التعليم. وهذا الكفاح في سبيل عيش الكفاف هو ايضاً الذي حال دون مواصلة دراستي على يد الشيخ محمد بن ابراهيم كما سلف ذكره

أَمَا وقد توفر لديَّ من المال مـا يقوم بِأَوَدِي فيمـا إذا كرست وقتي كله للعلم ـ وأعني هذا المبلغ الذي استحوذت عليه من (الاسمنت) ومن المكاسب التي ربحتها في سفرتي للعراق، تلك السفرة التي اختصرت ذكرها لطول شرحهـا ، لما فيها من مغامرة عنيفة. وهذا المال وإن كان محدوداً ، إذا أردت أن أقيسه بأموال أهل وقتنا الذي نحن فيه ـ إلا أنه في الفترة التي أتحدث عنهـا كان كفيلا بأن يكون خير عون لي فيمـا إذا قررت الاستمرار في التعليم بدون انقطاع ، وجدير أن يغنيني هذا المال عن مزاولة أيّ عمـل يشغلني عن الدرس والتحصيل ، وهذا مـا جعلني أتخذ من نفسي قراراً حاسماً يرمي إلى أن أواصل دراستي ؛ لكي أحوز مؤهلات علمية ما دمت لم أزل أتمتع ببقية شبابي.

عدت أُواصل دراستي على ذلك العالم الجليل المغفور له الشيخ محمد بن ابراهيم ، وقد بلغني خبر مفاده أَن الحكومة سوف تفتح مدرسة ثانوية في الطائف يطلق عليها اسم (دار التوحيد) ولمـا كان شرقي المملكة لا

يوجد فيـــه آنذاك أيـــة مدرسة على هذا المستوى فقد رأي المرحوم الملك عبد العزيز بأن لا يحرم مواطنيه في تلك المنطقة من العلم الذي يتمتع به إخوانهم في المنطقة الغربية. ولذلك كانت الغاية التي استهدفها الملك الراحل من تأسيسه لتلك المدرسة هي أن يكون الطالب المنتسب إلى هذه المدرسة من أهل المنطقة الوسطى والشرقيـــة.

وكان من شروط الانتساب إلى تلك المدرسة ان يكون الطالب حاملا للشهادة الابتدائية، أو مـــا يعادلها من المعلومات، ولما لم يكن وقت ذاك في تلك المنطقة من يحمل الشهادة الابتدائية - بمـــا في ذلك مدينة الرياض عاصمة المملكة - ولمـــا كانت حلقات طلب العلم على المشايخ وعلى رأسهم وفي مقدمتهم الشيخ محمد بن ابراهيم - تعتبر المدرسة الابتدائية والثانويـــة والجامعية والتخصص معاً، فإنه وإن تعذر على المنتسبين لدار التوحيد نيـــل الشهادة الابتدائية - (باستثناء عدد

قليل من مدينتي شقراء وعنيزة) فإنه لم يتعذر على من لديهم مؤهلات علميــة تفي بالشرط المطلوب للانتساب من الذين نالوا قسطاً من التعليم على يد المشايخ.

وقد كنت واحداً من هؤلاء - حيث اتيح لي التعليم في القاهرة في إحدى المدارس الأَهلية، كما أُتيح لي التعليم على يد الشيخ محمد بن ابراهيم تغمده الله برحمتــه. وذلك على النهج السالف الذكر، وقد ذهبت من الرياض إلى الطائف وقدمت طلبي إلى تلك المدرسة، فأُجري لي الامتحان فنجحت.

وهكذا كان واقع امري حيث تدرجت في تلك الأَيام من صحبة الفقيد إلى الدراسة المتقطعة ثم إلى الدراسة المنتظمة.

كادت صلتي بالفقيد أن تنفصل

ولما كان الصديق القديم الأَخ الشيخ عبد الله بن خميس زميلا لي في (خُوَّة) الفقيد قد توسمت فيه خير من ان أَلجأُ اليه في المؤانسة والمجالسة ، خاصة عندما أَقيس انسجامي النفسي معه إلى غيره من أُولئك الرفاق (الخويا) ، لذلك فقد شحذت همته ولفتُّ انتباهه مؤكداً له بأَن وضعه الراهن (خويًّا) لا يمكن أَن يُبنى عليه مستقبل شاب طموح ، تتوق نفسه إلى حياة افضل ، ومستقبل أَضمن للعزة والوقار ، مما هو عليه آنذاك. وقد وجدت كلمتي هذه اذناً صاغية ، وقلباً واعياً ، حيث تجاوب معي على الفور ، فذهبنا معاً للطائف. وكنت قبل ذلك ـ كما أَسلفت ـ قد اجتزت الامتحان خاصة في النحو ، أَما الاخ عبد الله فإنه كان وقتها صفر اليدين من هذه المادة ـ أَي النحو ، الأَمر الذي جعل رئيس دار التوحيد الشيخ بهجة البيطار يصر

إصراراً شديداً على عدم قبوله لو لم أُوفق لاقناع الشيخ عبد الله الخُليفي مؤكداً أَن لدى هذا الشاب موهبة قلَّ أَن تتوفر لدي كثير من زملائه الطلاب ، وبعد الإلحاح الشديد الذي أَبداه الشيخ الخليفي لرئيس الدار – وافق الرئيس على قبول الأَخ عبد الله كارهـاً وبشرط ان لا يرسب في مادة النحو في امتحان آخر السنة الدراسية .

ولكن ما إن جاءَ امتحان آخر السنة إلا وهذا الطالب قد شقَّ طريقه ، وأَثبت ما كنت اتوقعه به من موهبة أَدبية – كاد شيخنا بهجة – سامحه الله – أَن يحرم البلاد من هذا الأَديب الذي لمع نجمه ، حتي أَصبح الآن في مقدمة أُدباءِ وطننا البارزين .

وإنني عندما اذكر رأْيي الذي أَبديته للأَخ عبد الله ، وكان التوفيق حليفاً له ، فإن من الواجب علي أَن اعترف للاخ عبد الله برأَيه الموفق السديد ، الذي أَسداه إلي حينمـا حررت رسالة للفقيد ، عندما كنت طالباً في دار التوحيد ، وخلاصة تلك الرسالة إخبار الفقيد النبيل أَنني أَصبحت منقطعاً للدراسة ولم أَعد (خويًّا) له –

لكي يعتبرني من الآن فصاعداً منفصلا عن (خُوَّته) — هكذا كان موضوع رسالتي .

ولما كنت في أَغلب الأَحيان عندما يبدو لي أَي رأْي كان ،لاأَتَّخذ قراراً ولا امضي في تنفيذ ذلك حتى أَستنير برأْي من أَثق بصداقته ، وأَطمئن إلى صواب رأْيه كالأَخ عبد الله ، اللهم إلا تكون الأَبواب كلها موصدة أَمامي ، والسبل جميعها مغلقة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أُخرى أَجدني في مأْزق شديد الأَسي والبؤس ، ولم يكن أَمامي أَيٌّ اختيار للحل الوسط . حينئذ يبدو لي أَن الرأْي السديد بل الواجب على المرءِ في حالة كهذه هو القيام بمغامرة قابلة لفتح هذه الأَبواب ، وتذليل تالك السبل ، وإن كانت هذه المغامرة أَكثر قبولا للفشل الذريع أَو الموت السريع ، وفي مواجهتي لحالة كهذه أَمضي في سبيلي بدون مشورة أَي أَحَدٍ كائنــاً من كان ، خوفاً من أَن يثني عزيمتي من أُبدي له رأْيي ، هــذا الذي قد يكون (انتحارياً) ولكن لا محيص لي منه .

ولما كان رأْيي الذي أَشرت إليه آنفاً لم يحمل أَي معنى من المعاني التي تستدعي إقدامي عليه بدون مشورة — فقد

وجدت أَن خير صديق أُشاوره في رسالتي للفقيد النبيل ، هو صديقي وزميلي في (الخوة) سابقاً ، وفي الدراسة وقتذاك ،وفي الأَدب الآن ، وأَعني به الاستاذ الأَخ عبد الله بن خميس . فما كان من هذا الصديق إلا أَن لفت نظري ، وأَيقظ انتباهي إلى عدم الفائدة المرجوة من تلك الرسالة ، ما دام أَن النبيل تاركٌ لي مطلق الحرية في ذهابي وإيابي .

وإنني اشكر الأَخ الاستاذ عبد الله على رأْيه الذي لم يكن محصوراً آنذاك على عدم الفائدة فحسب من تلك الرسالة التي تحمل طابع الانفصال من الفقيد النبيل ، بل كان لرأْيه أَطيب الأَثر على المدي البعيد ، الذي جعل الصلة بالفقيد تزداد رسوخاً ، بقدر ما أَصبحتُ فيما بعد أَقطف ثمر هذه الصلة ، بصورة مستمرة دون انقطاع ، حتي لقي الفقيد النبيل ربـــه ــ أَسأَل الله تعالى له المغفرة ، والأَجر والثواب .

لقد مكثت في (دار التوحيد) سنتين قدمت فيهما امتحاناً كنت ناجحاً ، إلا أَنني فجأَة قطعت الدراسة في أَول العام الثالث ، لماذا ؟ الجواب يراه القاريءُ في الصفحات القادمة .

أُمنية عَبّرتُ عنها في مناسبتين

ما من أمر في الحياة ، إلا ويبدو في الوهلة الأُولى خيالاً وأماني وآمالاً ، ثم ينتقل ذلك الخيال وتلك الآمال وهذه الاماني من المرحلة الأُولى كخيال صامت إلى المرحلة الثانية التي هي عبارة عن حديث عابر ، ثم تأتي المرحلة الثالثة والأخيرة ، فينتقل ذلك الخيال الصامت ، وهذا الحديث العابر إلى التنفيذ العملي .

حينما أتكلم عن هذه المراحل الثلاث لم يكن كلامي هذا مستمداً من أحاديث التاريخ فحسب ، بل أتكلم كلام مُجَرِّبٍ ، مارس هذه المراحل بفتراتها الثلاث — أجل !! مارستها خيالا ، وعشتها كلاماً وقولا ، وطبقتها عملا وفعلا .

ولا بد لي من أن أورد هذه المراحل الثلاث كشاهد عيان ، أوردها كما تخيلتها وعشتها وطبقتها ، وإليك أولاً مرحلة الخيال :

هناك خواطر وأحلام وآمال وأمانٍ تجعلني أُعاني أحياناً قلقاً وأرَقاً يحرماني لذة النوم ، ومصدرهما جاءَ لا لكوني (خَوِيًّا) لم يحالفني التوفيق – عند (مُعَزِّبِي) الأول أو الأخير ، بل لأنني منذ الأساس لم أعتبر مسلكي هذا إلا وسيلة – لا غاية في حدِّ ذاتها – ولا يمكن أن أقنع بأن (الخوّة) عمل يبنى عليه أمل شاب تتوق نفسه إلى حياة أفضل – وحتى لو وضعني (مُعَزِّبِي) الأول أو الأخير – في أعلى منزلة ينالها (الْخَوِيُّ) – كوزير لأيٍّ منهما – أي (سكرتيره) الخاص – فإن ذلك قد يكون فيه علاج مسكن ، ولكنه لن يكون علاجاً يجتث القلق من جذوره ، وذلك لقناعتي أن (الخويّ) تبتدئُ حياته وتنتهي في كونه (خويًّا) وإذا كان الشاعر الطغرائي يقول :

أُعَلِّــلُ النفسَ بِالآمال أَرْقُبُهــا

ما أَضيقَ الْعَيشَ لولا فُسْحة الأَملِ !

فإنني لا أَجد عزاءً وعلاجاً لذلك القلق الذي ينخر في كياني إلا الأَماني والآمال التي أُعزي نفسي في اجتراري لهــا ـ كما عبرت عنهما في مناسبتين الأَولى جاءت كما يلي :

كنت جالساً في نادي المرحوم عبد الله المتعب الرشيد ، وقد لاحظ عبد الله أنني غارق في تفكيري ، فسأَلني عمــا كنت أُفكر فيه ؟ فقلت : سارحٌ ذهني في أَمر وإن كان مستحيلا تحقيقه ؛ ولكن فيه عزاءٌ وتسلية ، أَسرح فيهما ، وهذا الأَمر هو أَنني أَتمنى لو أَن آجال البشر قابلة للبيع ـ كما أَن المجد والجاه قابلان ايضاً للبيع ، فلو تم ذلك لما تأَخرت من أَن أَذهب إلى ذوي الوجاهة والمجد ، الذين يفضلون طول الأَجل عليهما ، كما أَنني أُفضلهما على طول الأَجل ، ومن ثَمَّ أَشتري منهم قسطاً وافراً مما لديهم ، وأَبيعهم من أَجلي ثلاثة

أَرباعه ويكفيني الربع الباقي ، مهما قــلَّ ، ما دام فيه مجد وجاهٌ فهو خير عندي من أَن يمتد أَجلي سنين طويلة ،وأَنا على ما أَنا فيه من خمول وتعاسة حظ . فقال عبد الله : لو كان الأَجل يمنح كما يُمنح المال لمنحت من أَجلي قسطاً لعبد العزيز بن سعود [1] . هذه المناسبة الأُولى .

اما المناسبة الثانية التي وإن تغيرت أُمنيتي فيها من التعبير اللفظي ، فإنهــا لم تتغير من حيث الأَصل والجوهر – وكلاهما يلتقيان على صعيد واحد ، لأَن الأُولى والثانية يعبران عن كوني لم أَقنع بوضعي الراهن الذي فرضته علي ظروف بيئتي القاسية – أَجــل لقد كانت أَمانيَّ وآمالي تدور في عقلي الباطني ، في ذهابها وإيابها إلى أَحد أَمرين : إمــا حياة أَفضل ، وإمــا موت أَسرع – مؤمناً إيماناً راسخاً ووطيداً بما قاله محمود سامي البارودي .

إذا لم تجدْ ما يَبْتُــرُ الفقرَ جالساً
فقم فاَطلب الشيءَ الذي يَبْتُرُ الْعُمْرَا

(١) راجع كتاب المؤلف « التطور الفكري في جزيرة العرب » ص ١٧١

هما خَلَّتَانِ: ثَــرْوَةٌ أَو منيَّــةٌ

لعلك أَن تحظى بإِحداهما ذِكْرَى

وهكذا جاءَت المرحلة الثانية التي انتقلت فيها هذه المعاني من الخيال الصامت ، والآمال المكبوتة إلى التعبير عنها قولا ، وبصورة علانية ، ويسمع هذا القول رجال لا يقــل عددهم عن خمسة عشر شخصاً ، وعلى رأْس هؤلاءِ الفقيد غفر الله له . ونجله الكبير « سعد وفقه الله » وكثير من أُولئك الرجال الذين مــا زالوا على قيد الحياة ـ وقد جاءَت هذه المناسبة في الفترة التي كنت واحداً ـ من (خُوْيَا) الفقيد الجالسين في تلك الْعِنَّةِ[1] في الصحراءِ في إِحدى سفرات القنص .

كان الفقيد وجمعينا جالسين بصمت كأَن على رؤُوسنا الطير . وكنت أَكثرهم صمتاً (وإِن لم أَكن كذلك عادة) وإِنما كنت غارقاً في ذلك الخيال الوهمي ، وسابحاً ببحر تتفاقم زفراته ، وتتلاطم امواجــه ،

---

(١) تقدم شرح (العنّة)

سابحاً بآمال أَجد فيها اطمئناناً وسلوى ، وكم يجد المرءُ بالأَماني والآمال ما يطرد همومه ، ويغريه بالسعادة ، وما أَقبح الحياة وأَسوأَها لولا هذه الآمال !!

في تلك اللحظة التي أَجترُّ بها آمالي التفت إليَّ الفقيد وقال العبارة الآتي نصها الحرفي : (سارح فيها يا فهد) ... فكأَنه أَوقظني من سباتي ، فقلت : أَودُّ منك أَن تطلب منا جميعاً بأَن يبدي لك كل واحد ما يختاج في نفسه من الأَماني ، وما يداعب عقله وأَفكاره من خواطر وأَحلام ، وإذا انتهى هؤلاءِ جميعاً من حديثهم أَخبرتك عن الآمال والأَماني التي وجدتني (سارِحاً فيها)

ولما كان الفقيد يود أَن نمضي تلك الليلة بما يتسلىَّ به الجميع ، لا أَن يلتقي صمت الصحراءِ الأَصم الأَبكم وصمت رجاله معاً على صعيد واحد ، ولذلك فقد وجد النبيل بطلبي هذا مجالاً لتبديد ذلك الصمت ، فأَمر رجاله بأَن يعبر كل واحد منهم عما في نفسه على النهج الذي ذكرته .

ومما تجدر الإشارة اليه أَن جميع آمال أُولئك الرفاق وأَمانيِّهم- وإن تباين بعضها عن بعض من حيث اللفظ - تكاد تتفق ، فإنه لم يكن بينهم خلاف من حيث الهدف والقصد.

وعندما انتهي الرفاق من سرد أَمانيهم وآمالهم ، مال إلي الفقيد وقال: وأَنت ما هي أَمانيك وآمالك في حياتك؟ ...

فقلت: ما دام الأَمرُ مُجَرَّدَ أُمنيةٍ وكلامٍ عابر فإنني أَتمنى أَن يعلن الجهاد في سبيل الله على الكفرة المعتدين ، وأَن تتاح لي الفرصة التي أَنال بها إحدي الْحُسْنَيَين: فإما أَن أُوفق للشهادة في سبيل الله ، وإما أَن أُوفق للقيام بعمل أَنال به سمعة طيبة وذكراً جميلا.

كان هذا الكلام الذي هو مجرد خواطر عابرة وأُمنية تسرح وتمرح بخيالي ، وقد عبرت عنها قولا في نادي الفقيد وذلك في عام ١٣٦٣ (١٩٤٣م) أَي قبل وقوع الحرب بين العرب واليهود بخمس سنوات.

وبعد أن ذكرت مرحلة الخيال ثم أتبعتها المرحلة الثانية الخاصة بالحديث والقول ، فما علي إلا أن آتي بذكر المرحلة الثالثة والأخيرة التي انتقلت بهـا من حيّز الخيال والقول إلى حيز العمل ، وهذه المرحلة هي التي ذهبت بها متطوعاً في حرب فلسطين ، وأود أن أقف عند هذا الحد ، دون أن أذهب بعيداً بالكتابة عن أحداث وحرب فلسطين الكائنة في عام ١٩٤٨ كما لا أريد أن أكتب عن المشاقّ والصعاب التي واجهتها في تلك السفرة ، التي منها ما هو سياسي ومنها ما هو عسكري ، ولا عن الوسائل والأسباب والأعمال التي وفقني الله لهـا حتي استطعت ان أُوَحِّدَ رفاقي السعوديين المتطوعين الذين شكلوا فوجاً عسكرياً كاملا بضباطه وضباط صفه وجنوده حتى ان الذي يجهـل حقيقة ذلك الفوج لا يتصور إلا أن رجاله من (الجيش السعودي) المنظم ، نظراً لما يتسم به جنود ذلك الفوج من الصبغة العسكرية نظاماً عمليًّا وشكلا وَضْعيًّا وتدريباً

عسكرياً [1]. كما لا أُريد أن أكتب عن الحفاوة والاحترام اللذين لقيتهما من موحد جزيرة العرب المغفور له الملك عبد العزيز ، وذلك عندما جئت إلى الرياض ، وتشرفت بالسلام عليه ، وقد أَمرني مرتين بأَن أَجلس على الكرسي المحاذي له ، كما قال لي عبارات تعبّر عن تقدير وإجلال من ذلك العبقري العظيم ، وهي عبارات ربما لو أَوردتها الآن بنصها الحرفي لقال بعض الفضوليين : إنني بالغت أَو أَسرفت !

(١) لا انكر أن لكل من الامير عبد الله الفيصل ، وللشيخ عمر بن حسن يَدٌ طولى في مؤازرتي في ذهابي متطوعاً . فالاول الذي كان وزيراً للداخلية وقتها أمر بمنحي جواز السفر الذي كان مستحيلا حصولي عليه في ذلك الوقت — ليس ذلك فحسب — بل سافرت على نفقته في الباخرة إلى القاهرة ، ومنحني نقوداً استعنت بها في تلك السفرة . وأما الثاني فقد أقرضني مالا ، كنت في أمس الحاجة إليه — وإذا كنت اعترف بفضل كل من الأمير والشيخ ، فإنه لا يسعني إلا أن اعترف ايضاً أن لصاحب الترجمة الفضل الأسبق . وذلك أن من أهم الحوافز التي شجعتني على طلبي من الأمير عبد الله أن يمنحني جوازاً ليس إلا ثقتي بأن الأمير قد عرفني عن طريق المغفور له ، وعرف أنني (محسوب عليه) كما أنني قد لا استطيع أن اطلب من الشيخ قرضاً لو لم تكن في حوزتي (بندقية) المغفور له التي وضعتها رهينة عند الشيخ . (انظر مؤلفي « من شيم العرب » ج ٤ ص ١٤١ تجد ما اشرت اليه عن مروءة ذلك الشيخ الجليل) .

أقول : لا أُريد أن أكتب عن هذه المواضيع لأن الكتابة عن ذلك تحتاج إلى مؤلف مستقل ، وقد كتبت موجزاً عن تلك الرحلة ، ومن أراد الاطلاع على ذلك الموجز فليراجع مؤلفي «سجل الشرف». اما الكتابة الواضحة المفصلة فإنها في كتابي «من الطفولة إلى الكهولة» وهو الكتاب الذي ذكرت آنفاً أنه لم ينشر بعد.

أما الشيءُ الذي تطيب لي الإشارة إليه فهو أنه من ذلك اليوم الذي ذهبت به متطوعاً إلى أن انتقل الفقيد إلى جوار ربه ، فإني لَم أعد بنظره (خَوِيّاً) بل أصبح يراني –غفر الله له– صديقاً حميماً ، هذا ما أحسه وألمسه ، وأشعر به من المعاملة الأخوية الحسنة التي كان يعاملني بها. اما بالنسبة إلى شعوري الذاتي نحو المغفور له فإني أعتبر نفسي لا زلت (خَوِيّاً) له حيًّا وميتاً.

أمَا وقد انتهيت من الكتابة عن المراحل الثلاث التي

مر بنا ذكرها ، فلا يسعني الآن إلا أَن اؤكد أَن كتابتي في هذه المرحلة الرابعة فيها من المعاني ما أَجدني بــه طرفاً ثانياً في الأَحداث التي اسجلها هنا ، ومنهــا ما كنت به شاهد عيان ، ومنها ما نقلته عن الرواة الثقاة ، ذوي الصلة المباشرة بالفقيد ، وكل من هذه وتلك مدوَّن في الفصول القادمة التي أَوردها على النحو الآتي :

الفَصْل السَادِسْ

تاريخ ولادة الفقيد ونسبه لأبيه وأمه

وُلِدَ الفقيد الأَصيل في مدينة الرياض في عام ١٣٣٢ ، هذا ما نعرفه عن الرواة الثقات الملمِّين جيّداً بتاريخ ولادته

أَما نسبه لأَبيه فيكفي أَن أُشير إِلى عجز بيت قاله الشاعر اللبناني الاستاذ أَحمد يوسف حمود جاءَ ضمن قصيدة طويلة أَنشدها في المرحوم الملك سعود أَثناءَ زيارته للبنان في عام ١٩٥٢ – واليك عجز البيت :

يا ٱبن السعود ويكفي ذاك تبيانا

أَعتقد أَن هذا المعني خير شافع لي فيما إِذا شئت أَن لا أَذهب بعيداً في سرد نسب الفقيد ، وتعداد أَسماءِ أَجداده لأَبيه ، ما دام ذلك موجوداً في شجرة عائلته بادئاً بنسبه لأَبيه باختصار على الوجه الآتي :

هو فهد – وأَبوه سعد الفارس المغوار المعروف بشجاعته وإقدامه اللذين لا حدود لهما



(الأمير سعد بن عبد الرحمن والد الفقيد)

وحسبك أنْ تلقى المنايا وقد رَجَحَتَ   حباك الموالي واتقـّت بأسك العِدَى

(علي بن المقرب)

وإذا كان الشاعر العربي يقول :

يجود بالنفس إن ضَنَّ البخيل بها
والجود بالنفس أَقصى غاية الجود

والثاني يقول :

يُعَدُّ كريماً من يجود بماله
ومن جاد بالنفس النفيسة أَكرم

فإن سعد بن عبد الرحمن جاد بنفسه الكريمة وهو في ريعان شبابه ، وزهرة فتوته .

وإذا كانت هذه الوحدة الوطنية التي نرفل في نعيمها ، ونسعد بأَمنها ، لم تتم على يد المغفور له الملك عبد العزيز إلا بثمن باهظ القيمة ، وضحايا عزيزة المنال ، فإنَّ والد الفقيد أَول بطل من سلالة عبد الرحمن الفيصل ، دفع حياته ثمناً لهذه الوحدة ، وضحية من أَجلها .

تلك الوحدة التي لو لم تتم لوجد المواطن منا نفسه إذا أَراد أَن يسافر إلى (الأَحساءِ) شرقاً ، أَو إلى (مكة)

غرباً أَو إلى (القَصِيم) أَقرب مكان في الشمال ، أَو إلى (حائل) قلب الشمال ، أَو إلى (الجوف) أَقصاه ، أَو إلى (عَسِير) أَدنىِ الجنوب ، أَو إلى (تهامة) وملحقاتها أَقصى الجنوب ، لمــا استطاع ذلك ، إلا بعد جواز مصحوب بمذكرة تكتب لسفارة هذه الحكومة ، أَو توصية لقنصلية تلك الدولة ، ولا يتم ذلك إلا بعد ضريبة يدفعهــا المسافر ثمناً للجواز أَولا ، ثم للتأْشيرة ثانيــاً ، مضافاً إلى ذلك حواجز يقف دونهــا المواطن ساعات أَو أَكثر ، وقد يؤمر بالعودة راجعــاً إلى المكان الذي جاءَ منه ، فيمــا إذا لم يكن حاملاً في جوازه تأْشيرة دخول ، أَو إذا كان هذا المواطن العربي موضوعاً اسمه في (القائمة السوداء).

علماً بأَن المسافة بين الرياض ومكة ، وبين كل منطقة وأُخرى من المناطق السالف ذكرها كالجوف شمالا ونجران جنوباً الخ ، أَبعد بأُلوف الأَميال مما هي بين سورية ولبنان ، وبين الاردن وسورية ، وبينهما وبين العراق.

وهكذا جاد سعد بن عبد الرحمن بروحــه الغالية

الطاهرة ، جاد بهـا فداءً لهذه الوحدة الميمونة المباركة ، وذلك في معركته (كَنْزان) الكائنة في عام ١٣٣٣ هـ .

والجدير بالذكر أَن والد الفقيد يكون شقيقاً للملك عبد العزيز لأَبيه وأُمه .

وعلى هذا الاعتبار يكون الفارس سعد ابنـاً للإمام عبد الرحمن التقي النجيب ، المنجب للملك عبد العزيز موحد جزيرة العرب .

والإمام عبد الرحمن يكون ابنـاً للامام البطل ، فيصل المجدد الثاني لحكم آل سعود ، وفيصل هو ابن الشهيد الإمام تركي ، الذي يعتبر المجدد الأَول لإعادة سلطة آل سعود .

والإمام تركي الشهيد يكون ابن الأَمير عبد الله بن محمد بن سعود ، وللأَمير عبد الله الأَثر الحميد في مؤازرة والده الإمام محمد بن سعود ، الذي قام بنشر الدعوة السلفية الاصلاحية التي دعـا اليها شيخ الاسلام محمد ابن عبد الوهاب رحمهما الله ، وببركة تلك الدعوة وُحِّدت الجزيرة ، وطُهِّرت من كل ما لا يتفق مع تعاليم الدين الاسلامي الصحيحة .

أعمامه وَحَّدُوا البلاد سياسيًّا
وأخواله وَحَّدُوها روحيًّا

إذا كان أَجداد الفقيد لأَبيه مجاهدين جهاداً استشهد في سبيله من استشهد؛ وناضل من ناضل ، كالمغفور له الملك عبد العزيز الذي حقق في نضاله توحيد وطننا العزيز ، فان أَجداده لأُمه جاهدوا وناضلوا في سبيل نشر الدعوة السلفية جهاداً عَرَّضَ بعضهم للشهادة وللنفي ، كما عرض الدعوة نفسها لخصوم أَقوياء حاربوها ، وحاربوا صاحبها بشتى وسائل الحرب ، كما شوهوا سمعتها كشأن كل داعية اصلاح بكل زمان ومكان .

وإذا كان اجداد الفقيد لأَبيه وحدوا البلاد سياسياً وعسكرياً ، بل كل ما تشير اليه معاني التوحيد والاندماج ـ فإن اجداد الفقيد لأُمه وحدوا البلاد روحياً

وعقيدة حيث لا يوجد في المملكة العربية السعودية عقيدة تخالف عقيدة السنة المحمدية الغراء .

ويطيب لي أن أذكر شيئاً موجزاً عن نسب الفقيد لأجداده لأمه ـ ثم آتي بعد ذلك إلى ما واجهه هؤلاء الدعاة من حرب (دعائية) شعواء شنها عليهم خصومهم الألداء ، واليك اولا نسبه لأمه كما يلي :

امه هي سارة ابنة الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف ، وخاله المباشر الشيخ محمد بن عبد الله الشجاع الكريم الذي يضرب بكرمه ، ومكارم اخلاقه ، وسماحة نفسه الأمثال ، حتى أن أحد المواطنين قال : (إنني أراهن وأدفع الرهان مسبقاً فيما إذا استطاع أي مواطن مهما كانت منزلته الاجتماعية منخفضة بأن يسبق الشيخ محمد بن عبد الله بالتحية قبل أن يكون محمد هو السباق الأول). والجدير بالذكر ان هذا المواطن لم يجد شخصاً واحداً يقدم على مراهنته .

كما أن جد الفقيد لأمه المباشر وجد الملك فيصل

الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف الذي وصفته في مؤلفي الجزء الثالث من «شيم العرب» ص (٢٧٦) ببطل الإنقلاب الفكري ، ووصفي له هذا لم يكن عبثاً ، وإنما استمددته من أحداث تاريخنا ، وذلك أن أمير حائل محمد بن رشيد المتوفي عام ١٣١٥ هـ أراد أن يجلب الشيخ عبد الله من الرياض إلى حائل بصورة ظاهرها الاكرام ، وباطنها النفي ، فما كان من الشيخ عبد الله عندما استقر في مدينة حائل إلاَّ أن هيمن بدهائه وحنكته وقوة شخصيته على أفئدة العدد الوافر من أعيان أهل تلك المدينة ، فصير منهم اتباعاً وتلامذة له إلى درجة أن الأمير محمد الرشيد شعر أن خطر الشيخ عبد الله أصبح يهدده في عقر داره ، بتأثير ذالك الانقلاب الفكري الذي قام به ذلك العبقري الداهية ، الأمر الذي جعل ابن رشيد يحرص على أن يعود الشيخ عبد الله إلى بلاده الرياض ، ولكنه لم يَعُدْ إليها إلاَّ بعد أن غرس بَذْرَتَه التي كانت على طول المدى مسماراً في نعش إمارة آل رشيد ، والشيخ عبد الله ابن

العالم الجليل عبد اللطيف الذي نفاه ابراهيم باشا إلى مصر . وهذا العلامة الفاضل هو ابن الشيخ عبد الرحمن بن حسن الذي يعتبر المجدد الثاني للدعوة السلفية وهو حفيد الامام المصلح محمد بن عبد الوهاب المجدّد الأوَّل لتلك الدعوة الإصلاحية التي عادت بخير العوائد على أَهل نجد ، بل على جميع المسلمين .

وعندما اصل إلى ذكر الشيخ محمد اجدني ملزماً بأَن آتي إلى ذكر ما اشرت اليه آنفاً وأَعني بذلك تلك الحرب الدعائية الشنيعة التي شنّها عليه وعلى دعوته اعداؤُه ، بصورة جعلوا دعوته خارجة عن مذهب أَهل السنة والجماعة ، على الرغم من أَن دعوة ذلك الإمام الصالح المصلح مأْخوذة من صلب القرآن الكريم ، وجوهر السنة المحمدية الغراء ، ومع ذلك تصدَّى لمحاربتها ولتشويه تلك الدعوة الاسلامية الانسانية السمحة ـ قسمان كان لهما اكبر الأَثر الفعال على التأْثير في عقول كثير من الناس .

وهذان القسمان هما سلاطين (بني عثمان) والشيوخ

المشعوذون الدجالون ، الذين اطلقوا على أنفسهم اسم علمـــاء الدين .

وهذا يعني أن دعوة الشيخ محمد تصدى لمحاربتها رجال السلطتين التنفيذية والتشريعية .

وإذا كان الأولون يرون في دعوة ذلك الرجل المصلح انطلاقاً للعملاق العربي من قلب الجزيرة العربية التي هي وكر العروبة ، مــا يهدد سلطانهم « المريض » المتداعي ويقضي على وجودهم ، فإن الآخرين يرون في دعوة هذا الشيخ المجاهد خطراً يقودهم إلى حبل المشنقة بسبب شعوذتهم ودجلهم وتضليلهم لسواد الشعوب الإسلامية ، ذلك التضليل وتلك الشعوذة التي عاش فيهمــا العدد الكثير من اصحاب العمائم الذين أَفسدوا رُوح ولَبَّ السنة السلفية ــ كما نعتهم بذلك الشيخ محمد عبده :

على ان دينــاً قد أَردت صلاحــه
أُحاذِر أَنْ تَقْضي عليه العمائم

وهكذا تظافرت هاتان السلطتان على محاربة دعوة ذلك المجدد المصلح ، واسرفتا في تشويه سمعة الدعوة والمؤمنين بها تشويها نعت اتباع الشيخ محمداً « بالوهابيين » ، وكانت كلمة وهابي كافية بنظر المسلم العامي الساذج المخدوع والخادع معاً بأَن ينظر إلى اتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب - بأَنهم اهل ملة خارجة عن الإسلام ، وأَنهم يكرهون النبي محمداً « ص » ومن العبث اقناع أُولئك المخدوعين -فضلاً عن الخادعين- بأَن الشيخ محمد بن عبد الوهاب حنبليُّ المذهب ، متعصب بحبه للنبي محمد « ص » تعصباً قل ان يشاركه به أَحد من علماء الاسلام - وأَوضح دليل على ذلك هو ان الشيخ محمداً يري وجوب الصلاة على النبي (صلى الله عليه وسلم) في كل صلاةٍ ولو ترك المصلي ذلِك ولو سهواً - فإن صلاته في رأْي الشيخ محمد تعتبر باطلة ، ويجب على المصلي ،إعادة صلاته .

وإذا كانت دعاية السلطة التنفيذية تقلصت

وزالت بزوال نفوذ سلاطين بني عثمان فإن صنوها من بعض أَصحاب العمائم لا زال تضليلهم ذا أَثر باقٍ حتى الآن ، ومما يؤيد صحة قولي هذا الحادثة التي أَكاد لا أُصدقها لولا أَنني اصطدمت بها وجهاً لوجه ، ويحسن بي أَن أُوردها كشاهد عيان على الوجه التالي :

كنت منتهياً من تأْدية صلاة الجمعة في أَحد مساجد دمشق ، ومتهيئًا للخروج ، وقبل خروجي اعترضني شيخ مُسِنٌّ كان جالساً عن يميني . ووجه إِليَّ السؤال التالي:

ممن يكون الأَخ ؟! فقلت : عربي . فقال : من أَي البلاد العربية ؟! فقلت : سعودي . فقال : من أَية جهة ؟! فضقت ذرعاً وشئت أَن أَخرج بدون أَن أَشبع فضول ذلك الشيخ إِلا انني خجلت منه عندما رأَيت عليه طابع السذاجة البريئة ، فقلت وأَنا متهيءٌ للخروج : من نجد . فقال : لعلكِ من حائل الكرام أَهلها ؟! فأَخذتني العاطفة الإِقليمية الراسبة جذورها في أَعماقي ،

فقلت مزهوًّا بعد ما عدلت عن الخروج واصغيت إليه بكل حواسي : نعم انا من حائل. فقال : أَهـل حائل كلهم وهابيون ، ويكرهون الصلاة على النبي . وعندئذ انقلب زهوي انفعالا واشمئزازاً من ذلك الشيخ ، وشئت أَن أُقاطعه حديثه ، وأُفنِّدُ ما يقوله بكلام شديد ، لا يخلو من إهانته على افترائه ، ولكنني ملكت نفسي عندما رأَيته شيخاً طاعناً في السن من ناحية ، ومن ناحية أُخرى وجدته ساذجاً سذاجة تدعو إلى عدم مؤاخذته ، ولذلك تركته يواصل حديثه إلى أَن قال : زرت «حائل» في عهد حكامهـا السابقين آل رشيد ، وفي إحدى المناسبات جاءَ ذكر النبي وقلت : اللهم صلِّ على محمد ، فمـا كان من طفل صغير جالس بجانبي يسمع كلمتي هذه حتى صاح بأَعلى صوته منادياً لأُمـه قائلا : اسمعي يا امي ماذا يقول المشرك : !! فقلت ـ بعد ان ازددت هدوءاً ورحمة بذلك الشيخ الضال المُضَلل ـ : هـل رأَيت في حائل مساجدَ تقام فيهـا الصلاة ؟! فرد

بالإيجاب فقلت: أَمـا سمعت المؤذن ينادي للصلاة في اليوم خمس مرات وفي كل مرة يقول: أَشهد أن لا إله إلا الله اشهد أَنَّ محمداً رسول الله؟ فقال مبهوتاً: نعم سمعت ذلك. فقلت: لعلكِ قلت: يا رسول الله. وياءُ النِّداءِ إذا صرفت لغير الله تعتبر شركاً، لأَنهـا تعتبر دعاءً، والدعاءُ عبادة لا يجوز صرفهـا لغير الله (وقال ربكم ادعوني) ودعوة غيره إشراكٌ بـه وأَوردت كلاماً نحو هذا: فسكت الشيخ الساذج المُضَلَّل.

هذه صورة لمـا لقيه أَجداده الفقيد لأُمـه من تضليل وإفتراء، قام بـه خصومهم ولكنهم ثبتوا ثبوت المؤمنين المجاهدين الصابرين، ثبوتـاً يضارع ثبات أَجداده لأَبيـه الذين سلف ذكرهم.

هذه نبذة موجزة عن أَجدادالفقيد لأَبيه وأَجداده لأُمه، ومن اراد الاطلاع بوضوح أَكثر فعليه أَن يراجع تاريخ الأُسرتين ففيهمـا ما هو أَكثر تفصيلا.

الفصل السابع

نشأة الفقيد وصفاته وأخلاقه

نشأة الفقيد وصفته وأخلاقه

بعد ان توفي والده بعد عام من ولادته ، تولى عمه الملك عبد العزيز رعايته ، وفي الوقت ذاته عهد به إلى جده لأمه الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف ، ليتولى هذا توجيهه وتربيته تربية عربية ، وإسلامية .

فالفقيد والحالة هذه نشأ وترعرع بين رعاية أعظم قائد أنجبته أمة العرب في القرن العشرين ، وهو عبد العزيز موحد جزيرة العرب .

وبين عناية وتوجيه وتربية « بطل الانقلاب الفكري » الشيخ عبد الله الذي لا يكفي ان يقال عنه (الزعيم الروحي الذي لا يبارى)ـ بل والزعيم السياسي المؤثر ، والداهية المحنك ، والذكي اللوذعي ، وذو العقل الراجح ، والفكر الثاقب ، والرأي السديد ، الذي كثيراً ما يستشيره موحد جزيرة العرب ، ويركن إلى رأيه في حَلِّه للمعضلات العظيمة التي يستعصي حلها ، كما كان سخياً لا يَدَّخر رزق اليوم للغد ، وكان ذا شخصية جذابة ، وإرادة (فُولاذية) .

والواقع الذي لا جدال فيه أَن الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف أَغفله مؤرخونا الذين تصدوا لِكتابة التاريخ عن بلادنا في عصرنا الراهن ، علماً بأَنه يستحق أَن يخلد ذكره ويسجل تاريخ حياته في سفر شامل لسجاياه الفذَّة ، كما هو شأْن الأُمم في تخليدها لحياة عباقرتها الأَفذاذ .

وهكذا نشأَ الفقيد بين عناية قائد الجيوش الفاتح المظفر ، ربِّ السيف والعنان والسنان ، وبين رعاية قائد الفكر ، والزعيم الروحي .

ولما كان الزمان ، والمكان ، والجيل ، والمجتمع الذي أَبصر الفقيد فيه الدنيا كلها كانت خالية مما يسمى في وقتنا بـ (المدارس الحديثة) أَو ما يقال عنه الآن (الشهادات المدرسية) .

ولما كانت الدروس والتوجيه للناشئة محصورة حينذاك في مدرستين فقط ، واحدة روحية ، والأُخرى مدرسة اخلاقية من ناحية ، واجتماعية من ناحية ثانية .

فالاولى محصورة على تعليم القرآن وشؤون العبادة كالتوحيد والصلاة والصوم الخ. ...

أَما الثانية فإِنها شاملة بمفهومها ومعانيها وأَهدافها لكل ما يجب على جيل ذلك العهد معرفته وإِتقانه ، كمعرفة فنون الحرب على مختلف انواعها ، وممارسة الفتي ركوب الخيل مذ كان طفلا ــ بدون رحمة به أَو رأْفة ــ وتدريبه على احتمال المشقة وشظف العيش ، لكي يخرج الفتى خشناً صلباً ، بعيداً كل البعد عن الترف والميوعة ، تلك الميوعة التي ابتلي بها الكثير من جيلنا الحالي جيل (الخنافس) الذي لا يستطيع المرءُ ان يفرق فيه بين الفتي والفتاة ، خاصة في بعض المدن العربية ، التي يشترك فيها النساءُ والرجال بتوحيد اللباس ، فكم يرى المرءُ شابّاً من (الخنافس) لا يستطيع معرفة ما إِذا كان فتاة أَم غلاماً ؟ .

وإِذا كان بعض من فتيان جيلنا المعاصر يبذل قسماً من وقته في ذهابه إِلى الأَندية التي تعلم الرقصات الغربية (الدنْس الباريسي) ، فإِن جيل الفقيد يدرب

لا على رقصات الخلاعة والجنس اللطيف ، وإنما يدرب مذ كان يافعاً على ما يسمى بـ (العرضة) الحماسية الحربية ، التي شاهدت الفقيد ينسى نفسه عندما ينتضي السيف (عارضاً) كما سيرى القارىءُ أكثر من صورة مأْخوذة له ، وهو مغمور بالحماسة والنشوة

وعرضة كهذه هي التي حثَّ الشاعر أَحمدالنجفي الجيل الناشىءَ على معرفتها كما أَنه زجر الجيل ونهاه عن ممارسة رقصات الميوعة والخلاعة عندما قال :

وَتَعَلَّمُوا رَقْصَ الْحُرُوبِ وَجَنِّبُوا
رَقْصاً يضُمُّ بِهِ الشَّبابُ نِساءَ

وفي هذه المدرسة تدرب الفقيد على ممارسة الرماية والمهارة بإِصابة الهدف ، كما تدرب أَيضاً على ممارسة حمل الرمح (والشَّلْفَا) وهو على صهوة الجواد ، وذلك أَنه ليس كل من أَتقن ركوب الخيل يستطيع أَن يحمل الرمح ، ويملِك في الوقت نفسه الجواد ، ويسيطر عليها ، اللهم إلا الفارس ، الخيَّال الماهر.

هذا جانب له أَهميته من أَحد جوانب تلك المدرسة ،



الفقيد يشارك مواطنيه العرضة الشعبية شاهراً سيفه ، متنكبا بندقه

السيفُ للطاغِين اسْتادِهْ حَنَّى لهْ   ندلّ به من هو عن الجادّهْ مالْ

(عبد الله بن رشيد)

مما يتحتم على جيل الفقيد المهارة بمعرفته والقدرة على إتقانه ، أَمـا الجانب الثاني فإنه ترويض نفسية الناشئة على التمسك بالأَخلاق الاسلامية ، والانطباع بطابع الشيم العربية ، كالشجاعة والأَنَفَةِ والإباء ، والاعتزاز بالنفس ، بدون زهو أَو كبرياءٍ ، وإنما هو اعتزاز وإبـاء على النحو الذي وصفه البارودي بقوله :

وكنْ وَسَطاً لا مُشْرَئِبّاً إلى السُّها
وَلاَ قانِعاً يَبْغِي التَّزَلُّفَ بِالصَّغَرْ
وأَحْمَدُ أَخلاقِ الْفتَى ما تَكَافَأَت
بِمَنْزِلَةٍ بَيْنَ التَّواضُع وَالْكِبَـرْ

هكذا كانت المدرسة التي نشأَ فيها الفقيد ، وتخرج منها ناجحاً ، كما نجح منها من نجح ، ورسب في عجزه عن إكمال دروسه من رسب .

أَجل مدرسة كانت المواد التي يطالب المنتسب إليها تختلف اختلافاً كليًّا عن مواد و« برامج »مدارس جيلنا المعاصر ، بل بعيدة هذه عن تلك كبعد المشرق عن

المغرب والبون بينهما شاسع في كل ما تشير إليه هذه الكلمة من المعاني والأَهداف.

وإذا كانت الشهادات والمؤهلات التي يعتز بهـا متخرجو المدارس والجامعات، والتي تعتبر كجواز مرور، تخول الشاب أَن يحتل مكانة ملحوظة في وظائف الدولة أَو في أَي عمل آخر في مجتمعنا الحاضر، أَقول: إذا كانت هذه وتلك عبارة عن نجاح صاحب الشهادة عندما يمتحن في آخر المطاف بفنون كلهـا مادية اللهم إلا ما ندر منهـا، فإن المدرسة التي تخرج منها الفقيد ـ بعد امتحان عنيف صارم ـ مدرسة لا مكان لبرامجهـا وموادها لأَيـة إشارة تدل على الأُمور المادية بأَدنى صلة، لا من بعيد ولا من قريب.

فهي مدرسة جميع موادها بدون استثناء، وكل برامجهـا وعموم لحمتهـا وسدادها وجل اصولهـا ومختلف فروعهـا كل هذا وذاك قائم على الأُسس المعنوية والقيم الروحية، والشيم العربية، والاعتبارات الإنسانية، كالصدق والصراحة والوفاء والأَمانة والعفة

والسخاءِ ، والعطف على الفقير ، والرحمة به ، والرأفة بالصغير ، والاحترام والاجلال للكبير ، والبر بالوالدين ، وصلة الرحم ، وحماية المستجير ، وإكرام الضيف ، واحتمال زلَّة الصديق ، وجبر عثرات الكرام ، إلى غير ذٰلك من السجايا الكريمة ، والأَخلاق النبيلة ، التي كانت الجامعة العظمى التي لا يجد الانسان العربي مكانة تؤهله بين مجتمعه للاحترام ما لم يجتز الامتحان في هذه (الجامعة الأَخلاقية الروحية).

تلك الدوحة العريقة التي يمتد تاريخ عراقتها وأَصالة أُسسها منذ العهد الجاهلي بل وما قبله ، ثم جاءَ رسول الانسانية محمد (ص) برسالته الطاهرة ، جاءَ مؤيّداً من عند ربه لتلك المثل ، وحاثًّا على الاخذ بهذه الأَخلاق ، ومبشراً بالسعادة لمن يتمسك بها ، ومنذراً بالويل والثبور لمن يفلس منها.

وهكذا تخرج الفقيد من المدرسة الأُولى بدرجة ممتاز ، كما تخرج من الثانية بدرجة جيد جداً.

هذا ما طاب لي أَن أُوجزه عن نشأَة الفقيد ..

صفة الفقيد النبيل

يستطيع المرءُ ان ينعت الفقيد من حيث خلقته بأنه جميل ، الجمال المذكر ، عيناه عسليتان واسعتان ، يشع منهما الوقار والهيبة إذا غضب ، علماً بأنني لم أَره غاضباً في جميع المدة التي عرفته فيها ، اللهم إلا مرة واحدة وهي المرة التي أَشرت اليها في مقالي الذي نشر في جريدة الرياض بتاريخ ١٤ رجب ١٣٩٢ – ٢٣ آب ١٩٧٢ – وحتى تلك المرة كان غضبه في فترة وجيزة لم تتجاوز دقائق معدودة .

أَما إذا غاب عنه الغضب ، وهو غائب دائماً ، فإن تينك العينين الجميلتين يبدو عليهما الحياءُ والخجل ، وأَكثر ما تزداد عيناه خجلا وحياء عندما يدنو منه

مواطن محترم ، مُفْضِياً اليه بحاجته ، في حالة كهذه يبدو على عيني الفقيد خجل يغضي بهمـا حياءً يوحي بتشجيع المواطن لمواصلة حديثه عن حاجته .

وللفقيد أَنف أَشمٌّ بارز معتدل (جثل) ووجه سَمْح يعلوه جبين أَنزع ، فكأَنَّ الشاعر العربي – امرأَ القيس – يعنيه عندما قال :

ولا تنكحي إنْ فرَّق الدهر بيننـا
أَغمَّ القفا والوجه ليس بأَنزعـا

وله شفتان رقيقتان ، لا تفارقهما الابتسامة ، وأَسنان ناصعة البياض لا أَعتقد أَنهِ احتاج إلى طبيب اسنان. وله عنق وظهر يميلان إلى الطول ، بصورة ملحوظـة ، حتى انه إذا جلس بين من هم أَطول منه قامة يخيل إلى من ينظر إليه أَنه فارع الطول ، على الرغم من أَنه وَسَطٌ في طوله ، معتدل القامة ، عريض المنكبين ، عرضاً يختلف عن بنيته النحيلة ، قمحي البشرة ، رحب

اليدين او كما يقال في تعبيرنا الشعبي (افتخ اليدين)[1] عاري (الاشاجع)[2] عذب الصوت ـ فصيح التعبير، هاديءٌ في جميع حركاته، لا يلتفت إذا مشي.



(١) أفتخ : رحب اليدين يقول الشاعر الشعبي :

حقك علي إلى جيت ربعـــي هاذولاك
فتخان الأيدي ، صوب شـط ٍ ورانـــا

(٢) الأشاجع : لغة فصحى وهي أصابع الكف قال حسان :

اذا استدبرتنا الشمس درت متونُنا
كأن عروق الجوف ينضحن عندما
بكــل فتىً عاري الأشاجع لحّـــــهُ
قراع الكماة ، يرشح المسك والدمـــا

أخلاق الفقيد النبيل

سمح النفس ، دمث الخلق ، لين العريكة ، ينزل المواطنين منازلهم ، بصورة يشعر بهـا صاحب المنزلة الاجتماعية المرموقة إذا زاره بأَنه أَكرمه وأَنزله في ملاطفتـه له المنزلة الكريمة التي يستحقها ، كمـا يشعر المواطن المتواضع أَن الفقيد رأَف بـه وعطف عليه ، دافق المروءة ، رقيق الإحساس ، سريع النخوة ، جم العاطفة ، سهـل الجانب ، يحض زائريه على زيارتهم له ، ويحاسبهم بأَدب إذا أَطال الزائر الغياب عنه ، كقوله مثلا لمن يغيب عن زيارته مدة طويلة : (لك غيبات يا فلان) وأُسلوب كهذا ـ يجعل زائره ملزماً بمواصلة زيارته عندما يشعر أنـه يسأَل عنه إذا غاب .

لا يعرف كلمة (لا) في المواضع التي لا يستحسن النطق بهـا ، ولا اذكر أَنه نطق بها لأَي مواطن قصده ، فإذا كان قاصده بطلب منه أَمراً لا تشفع للفقيد الظروف بإنجازه ، فإنه لا ينطق بكلمة لا التي تقطع أَمـل القاصد من ناحية ، ولا تلزم الفقيد النبيل بوعد من ناحية أُخرى ، بل تجده يقول لقاصده : (نشوف) - أَي ندرس الموضوع - .

سريع البديهة ، قوي الحجة ، عفيف اللسان عن العبارات البذيئة .

لا يُجابِه أَيَّ إنسان بمـا يكرهه ، ولا يسمعه مـا يؤذيه ، او مـا يجرح شعوره ، حتى لو كان يكرهـه بل ولو كان يحتقره ، فإنه قد لا يريه الاحترام فيما إذا كان ذلك الانسان لا يستحق الاحترام ، ولكنه لا يبدي له أَدنى إهانة ، ما دام زائراً له ، لا يقاطع محدثه الحديث .

يحسن الاستماع إلى محدثه ، ويصغي إليه بكل جوارحه ، مهمـا كانت منزلة محدثه ، وإذا تكلم شخص أَمامه بحادثة من حوادث التاريخ القديم او الحديث ، فإنه يبدي لمحدثه من حسن الاستماع والشوق ، حتى ولو كان مُلِمًّا بالحادثة نفسهـا إلماماً ، ومعرفة أَكثر من معرفة المتحدث بها .

وثَمَّةَ مِيزة في الفقيد تعبر أَطيب التعبير عن حسن استماعه ، بصورة قل من الرجـال من يشاركه تلك الميزة ، وهي أَنـه إذا تحدث شخص مـا في حديث أَدبي أَو اجتماعي أَو سياسي ، ثم جد في الأَمر ما يستدعي أَو يضطر المتحدث بأَن يقطع حديثه نتيجة لدخول شخص آخر إلى المجلس ، بصورة تجعـل الجالسين تتجه أَنظارهم إلى الداخل الجديد ، فإن الفقيد الأَديب في حالة كهذه ــ يعود بكل حواسه متجهاً إلى المتحدث الذي قطع حديثه ، ويوجه إليه إشارة تعبر عن رغبة الفقيد بأَن يستمر المتحدث في مواصلة حديثه .

يستسيغ النكتة كشأن كثير من الأُدباء والعباقرة ، خاصة إذا كانت النكتة لا تتنافى مع القِيم الاخلاقية .

لا يشير بيده إذا تحدث بحديث عادي اللهم إلا إذا كان يتحدث بحديث فيه طابع حماسة واندفاع ، فإنك تراه يهزُّ كفه وذراعه وحتى رأْسه ، وتزداد عيناه شدة في نظراته ، ويعلو بياضهما على ذلك السواد العسلي – والجدير بالذكر أَنني لاحظت هذه الظاهرة موجودة في نجله الأَكبر سعد – أَي هزة الذراع والرأْس في الحديث الذي فيه حماسة .

وإذا زاره شخص قادم من خارج المملكة من الأَشخاص المحترمين ، فإنه يلتزم بتطبيق العادات والتقاليد العربية والاسلامية ، تلك التي تجعل صاحب المنزل يؤثر ضيفه على نفسه ، بكل ما تشير اليه تلك التقاليد ، وهذه العادات من معاني الإيثار التي أَقلها أَلاَّ يؤثر العربي نفسه في منزله على زائره أَو على ضيفهِ بأَخذ (فنجان) القهوة قبله ، وهي قاعدة مأْلوفة في إيثار العربي ضيفه على نفسه .

يتظاهر الفقيد بالغباء وهو في منتهى الذكاء

كثيراً ما يتظاهر فقيدنا أحياناً بالغباوة والبلاهة ، حتى يوهم الجاهل بأنه غبي ساذج ، وأكثر ما يتعمد تطبيقه لهذه القاعدة أمام المرء الذي يشك الفقيد بإخلاصه لحكام بلاده .

بل كثيراً ما يتظاهر بنقده وسخريته لنظام الحكم نفسه ، وربما تجده أحياناً لا يبالي بأن ينقد شخصاً يحبه حبًّا لا مزيد عليه ، ويغار عليه غيرة تفانٍ وتضحية ، ومع ذلك ينقده أمام شخص أو أكثر ، خاصة إذا كان لا يثق بهذا الشخص أو بأولئك الأشخاص ممن لا يطمئن اليهم .

وهو في أسلوبه هذا الخطر المخيف يستهدف أن يسبر

غور مـا يضمره الشخص الذي يتحدث معه ، وكثيراً
ما يوهم الفقيد الأَغبياءَ السطحيين بتمويهه هذا ، حتى
أَنك تجد قسماً من هؤلاءِ الأَغبياءِ يخرج من مجلسه
وهو يعتقد أَن الفقيد منحه ثقتـه ، بدليل أَنه راح
ينقد ويعيب ويلوم أَقرب الناس إليه رحماً ودمـاً ،
وقسم آخر يخرج من مجلس الفقيد ويذهب يلومه
ويعتب عليه ظانّاً هذا النوع من الناس ـ خطأً ـ وموهماً
نفسه بأَنه اكثر غيرة وولاءً ومحبة من الفقيد على
نظام الحكم الذي ينقده ، أَو على ذلك الشخص الذي
يتظاهر الفقيد بنقده له ، اما القسم الثالث الذي هو
أَكثر غباوة بـل وسخافة فهو ذلك الانسان الذي يذهب
منساقاً مع الفقيد ، محبذاً له ، ومؤيداً لقوله ، بدون
أَن يشعر أَنه جره إلى خِضَمٍّ بحره المتلاطم الأَمواج ،
وهذه السجية للفقيد التي هي من أَعمق وأَخطر سجايا
العباقرة الافذاذ ، قليل جدًّا من أَصدقائه وجلسائـه
الذين يدركون كنهها كمـا يجب ، بـل بدا لي ان

الكثيرين حتى من أَصدقائه الأَذكياءِ أَو الذين يزعمون الذكاءَ أَنهم مخدوعون في معرفة حقيقة هذه السجية للفقيد.

ولست أَدَّعي أَن معرفتي لهذه الظاهرة الخفيـة ناتجة عن كوني أَكثر ذكاءً ممن خدعهم الفقيد ، بـل لان السنين الكثيرة ، والتجارب المتعددة أَوحت لي خبرة مكنتني من معرفة ذلك السرّ المتواري في شخصيته ، ولعلني لا أُخطيءُ الهدف فيمـا إذا قلت : إنني اكتشفت ذلك الخلق عن طريق الصدفة ، أَكثر منه عن طريق الذكاءِ أَو الفهم ، أَجـل : لقد اكتشفته في المناسبة الاتيـة :

كنت في صحبة الفقيد فيمـا يسمى بـ (المقناص) في موضع يسمى (روضة خُرَيم) والفقيد وجميع الأُمراءِ نازلون في تلك الروضة تابعون للملك الراحـل عبد العزيز الذي كثيراً ما يخرج إلى الصحراءِ في أَيام الربيع.

وكان الوقت بعد صلاة العصر عندما كان الفقيد جالساً فوق سجادة مفروشة على تلك الرملة الذهبية ،

يحيط بهـا مختلف النبات النافح عبيرها ، والمتفتق ثمرهـا ، المختلف نوّارهـا ، الزاهر اقحوانها ، مع نوار حوذانهـا وبسباسها ، وكان عبير الربيع العبق يملي على الجالسين الحديث أنى كان وكيف يكون ، ولست أَذكر الآن المناسبة التي جاءت بذكر شخص ما من الاشخاص الذين لا يعتري أي شخص من الحاضرين أَدنى شك بأَن الفقيد كان ـ وحتى توفـاه الله ـ يحب ذلك الشخص ، ويغـار عليه بل ويفتديه بحياته ، ولكن مع ذلك تظاهر الفقيد بنقده له نقداً وإن لم يكن جوهرياً فإنه لا يخلو من النقد الذي كما يقال عنه بتعبيرنـا الشعبي (من الحنجرة ومـا فوق) وبطبيعـة الحال لم يجد من أُولئك الجالسين بعددهم الوافر من يؤيده في نقده أَو يعارضه ، إلا أَنـه بعد حديثه هذا بدقائق معدودة ومحدودة قام من مجلسه هذا ، وامتطى سيارته ، وما إن ذهب قليلاً عنـا حتى انبرى شخص من الجالسين وقال بعنف وشدة : (لا

يحق لفهد أن يتكلم بحق فلان بحديث كهذا وبمجلس مثل هذا المجلس الكبير) وكنت وقتها حديث العهد بانتسابي إلى «خُوَّة» الفقيد ، فَصَمَتُّ على مَضَضٍ ، منتظراً أن يجيبه على حديثه هذا شخص ممن هو أَقدم مني بـ (خوّته) ، ولكنه لم يجد من يجيبه ، فأَعاد العبارة نفسها بأُسلوب أَثقل من ذي قبل ، فنفد صبري وقلت : وأَنت أَيضاً لا يحق لك أَن تنقد (مُعَزِّبنَا) أَمامنا ـ فقال العبارة التي لا زلت محتفظاً بنصها الحرفي وهي : (إذا نقدنا ـ بارك الله فيكِ ـ مشعل الرشيد فلك الحق أَن تتكلم ، أَما ما دمنا ننقد (معازيبنا) فلا يحق لك أَن تتكلم) . فكأَن الوفاءَ بمفهوم أَخينا الساذج محصور على قوم معينين ، ولم يدرك أَنَّ الوفاءَ خُلُقٌ متأَصِّلٌ في دماءِ أَصحاب النفوس الكريمة ، مهما كان لون أَهلها ، ومذهبهم وجنسهم وبلادهم ، كما أَن الغدر والخيانة وعدم الوفاءِ خُلُقٌ مُتأَصلٌ أَيضاً .

فلم يسعني إلا أَن أُجيبه قائلا: (إن خُلُقي الذي يجعلني أَفي لمشعل الرشيد هو الخلق نفسه الذي يضطرني بأَن أَكون أَكثر وفاءً لفهد بن سعد، لأَنه هو الآن وليّ نعمتي. ثم أَضفت: إذا كنت تزعم خطأً بأَنني أَفي لمشعل الرشيد اكثر من وفائي لفهد بن سعد، فإنني اعتقد اعتقاداً جازماً يثبته الواقع والمنطق بأَنك لم تكن ولن تكون أَقرب لحماً ودماً من فهد بن سعد لِ (فلان) ولن تكون اكثر غيرة ووفاءً منه على فلان).

هذا وقد انتهى الجدال عند هذا الحدّ، والغريب في الأَمر أَن الفقيد عاد إلينا بعد برهة قليلة، ويبدو أَنه مُوعِزٌ إلى من يخبره بما يدور في غيابه من تعليق الفضوليين على حديثه السالف الذكر، بدليل أَنه حالما وصل سأَلني عما دار بيني وبين ذلك الشخص من الجدال، فحاولت أَن أَتجاهل الموضوع من أَساسه تحاشياً عن الوشاية، إلا أَنني وجدته مُلِمًّا بكل تفاصيله.

فبات لديَّ يقين قاطع أَن حديثه الذي نقد به

(فلاناً) لم يكن عبثاً ، كما لم يكن جاءَ عن طريق الصدفة - وإنما فعل ذلك عامداً مُتَعمداً .

ومن خلال هذه الحادثة أخذت عِبْرةً ودرساً استفدت منهما في معرفة سجيته هذه .

أَما صاحبي التعيس الحظ الذي دار بيني وبينه الجدال ، فقد بعث إليه الفقيد مولاه خير الله - رسول الغضب والعنف - ذلك الزنجي الذي لم يخطىء الفقيد الهدف عندما احسن اختياره له في تكليفه بالقيام بمهمة كهذه ، حيث ذهب اليه (ابو دهام) - أي خير الله - ذلك الإنسان الغشوم الذي نفذ أَمر عمه بسيء الحظ ، فجذبه من مكانه الذي ذهب إليه ، وناوله كفاً على صدغه الأَيمن ، وكفاً آخر على صدغه الأَيسر ...

أَعتقد أَن الفقيد اختصر أَمره لخير الله على هذين الكفين اللذين نفذهما ابو دهام ، بدون زيادة ولا نقصان .

وإنني واثق كل الثقة أَن لو أَمر الفقيد خير الله

تـأبـأن يـي بـرأس ذلك الشخص لمـا تـأخر عن تنفيذ أَمر عمه ، مع العلم بـأَن الشخص لم يكن من (خُويا) الفقيد بل من (خُويا) ولي العهد الامير سعود [1] .

والجدير بالذكر أَن هذه السجية التي يتصف بهـا الفقيد العبقري والتي يصل بهـا إلى سبْرِ غور الرجال بكل بساطة ، هذا الخلق بدا لي أَن هناك شخصاً آخر يتصف بنوع من ذلك بـأُسلوب لا يقل عمقاً من الفقيد ، إن لم أَقل: أَشدّ خطراً منه .



---

(١) عندما عين الفقيد أميراً على (حائل) حرّرت لأعيان البلاد رسائل ، محذراً لهم من سجيتــه هذه الخطرة ، خوفــاً من أن ينجرّ الأغبيــاء منهم إلى هاويــة بحره الزاخر . ولم أكتب هذه الرسائل من وراء ظهر الفقيد ، بل عرضت مسودتها عليه، فابتسم ابتسامة توحي بأنه يود أنني لم اكشف هذا السر المغلق من أخلاقه الكريمة المخيفة ، والجدير بالذكر أن مسودة الرسائل موجودة عندي حتى الآن .

الفصل الثامن

وفاء الفقيد المتناهي

كلمة عن تعريف الوفاء

عندما كتبت مؤلفي ذي الاجزاء الاربعة « من شيم العرب » الواقعة في أَلف صفحة ونيف ، والبالغة ثمانية عشر فصلا ، وفي كل فصل حوالي أَربعة عشر قصة طافحة كلها بشيم العرب ، وقيمهم كالوفاءِ والسخاءِ والشجاعة وما شابه ذلك من المثل العليا التي يتلقاها الاحفاد عن الاجداد .

حينما فعلت ذلك لم يسعني إِلا أَن وضعت سجية الوفاءِ في مقدمة تلك الشيم .

ولا عجب فيما إِذا وضعت خلق الوفاءِ الذي عرف به الفقيد في مقدمة شيمه ، وذلك لأَنَّ منزلة الوفاءِ بالنسبة لجميع الأَخلاق الفاضلة الأُخرى كمنزلة الرأْس من الجسد ، فهو قِمَّةُ الْمُثُلِ وذروة القِيم ، والمحور الفعال العملي الذي تنبثق منه جميع الشيم ، والسجايا الكريمة المثلى .

أجل !! إن من يكن خلقه الوفاء جدير به أن يكون شجاعاً ، وحريٌّ به أن يكون سخياً ، وخليق به أن يكون أميناً ، وقمين به أن يكون صادقاً بوعده ، وفِيًّا بعهده .

وهكذا كان الفقيد مُلِمًّا بكل تلك الصفات الشريفة لأنه وفي .

ومن كان مجرداً من هذه السجية ، فإنه سيكون ـ ولا شك ـ صِفْر اليدين من جميع تلك القيم ، وإن بدر منه شيءٌ منهـا فإنما يقوم بذلك بصورة مرتجلة ومصطنعة لا تستند قطعيًّا إلى أُسس جذرية منبثقة من خُلُقٍ أَصيل .

وبما أَن الوفاء في كنهه وسموه شفَّاف كامِنٌ في خباياه المتوارية ، لا ينطلق من أَسره إلا في اللحظات النادرة ،لذلك كثيراً ما يقع الالتباس بتشخيصه وتسميته باسمه الحقيقي ، الأَمر الذي يجعل المرءَ في متاهة لا حدود لهـا .

فخذ مثلا العمل الذي يقوم به المرءُ تجاه من يُرْجى

نفعه أو يخشى ضرره ، فعمل كهذا يسميه سليمو القلوب وفاءً وإخلاصاً ، مع أن أي عمل يصدر من الأدنى إلى الأعلى لا يجوز أن يرقى إلى منزلة الوفاء. وإنمــا يقال عنه لباقة وكياسة ، أو تأْدية للواجب ، الذي لا محيص للأول من أن يقوم به ، بشرط أن يكون ذلك العمل بعيداً عن الاعمال التي تتجاوز حدود الحشمة والوقــار.

أما إذا تجاوز صاحبها هذه الحدود ، وتمادى بقيامه في الأعمال التي هي إلى الريــاء والنفاق والتضليل أقرب منها إلى الوفاء ، فلا ينبغي أن تبلغ منا سلامة الطويّة درجة نعتبر بهــا هذا الإنسان وفِيًّا مُخْلِصاً.

أجل !! إذا اعتبر الوفاءُ مجرد حركات (بهلوانية) فإنَّ باستطاعة المضلل الماهر بإتقان التزييف ، والراسخ الطويل الباع بحرفة النفاق والمكر أن يجثم على يد من يرجو نفعــه وهباته ، أو يدْرأُ ضرره وعقابه ، أو يركع على قدميه منحنياً ، بل وباستطاعتــه أيضاً

أن يسكب الدمع الغزير ، المنهمر من مقلتيــه كدليل على تفانيه بوفائه الذي لا يبارى فيه ، ومِنْ ثَمَّ يربح هذا الماهر الماكر جائزة السباق بالوفاءِ أَو بالإِخلاص ، أَو بكليهمــا .

بينمــا الوفاءُ المتأَصل في النفس الكريمة الأَبيــة أَبعد ما يكون عن هذه الاخلاق السافلة الهزيلة .

وأَصدق كلمة يعبر بها عن تعريف الوفاءِ هي ان يقال : إِذا كانت خلقة الإِنسان ـ كالطول والقصر والجمال والقبح ـ عبارة عن إِرادة الله ومشيئته النافذتين ، وليس للمخلوق قدرة على التصرف بأَدنى شيءٍ من ذلك ، فإِن الوفاءَ بصورة خاصة ، وجميع أَخلاق بني البشر بمفهوم عــام ، إِنما هي من قدرة الله وصنعه تعالى ، ولن يكون للمرء أَيَّةُ قدرةٍ بأَن يتخلَّق بخلق يتنافى مع الخلق الذي فطره الله عليه ، إِلاَّ بما أَراده له ، وأَيُّ خُلُقٍ يحاول المرءُ أَن يتخلق به أَو ينتحله فإِنــه قد (يتصنع) به ويتطبع به ، ملزماً نفسه بممارسته

يوماً أو شهراً أو أكثر ، ولكنــه لن يستطيع أن يظل ملازماً له إلى المدى البعيد ، بل سوف يعود مرغماً إلى خُلُقِهِ الأَساسي الذي اراده الله له .

حدثني المرحوم سُويلم الشعلان ـ المعروف بصدقــه ووفائه ـ حدثني عن شخص جمعته به الظروف مرغماً بأَن يلتزم بصداقته .وأن يكون كلٌّ واحد من سويلم وذلك الشخص ملتزماً بالوفاء لصاحبه ، ويمضي سويلم في حديثه فيقول : عندما عرف أن صديقه لم يكن على وزنه من حيث الثبات والوفاء ، أَبلغه بأَنه لن يستطيع أَن يلتزم له بالصداقة كمــا كان سابقاً ، فمــا كان من ذلك الصديق إلا أَن جاءَ يعاتب سُوَيلِماً على فَصْمِهِ لعرى الصداقة ،فكان سويلم صريحاً كعادته حيث قال لصديقه : إنني لا أَستطيع أَن أَلتزم بصداقتك ، لأَنك مجرَّد من الوفاءِ . ثم ذهب سويلم يسرد له عدداً من الأَدلة التي تثبت عدم وفائه . فأَجابه صاحبه قائلا : أُعطيكَ وَعْداً صادقاً به ، وأُعاهد الله على ذلك بأَن أَكون في المستقبل وَفِيّاً كمــا تريد .

فأَجابه سويلم بقوله: إن الوفاءَ يا صاحبي خُلُقٌ أَصيل في دم المرء ولحمه ، فلو وعدتني الف وعد ، وعاهدتني أَلف عهد فإنك لن تستطيع أَن تنفذ وعدك ، ولا قدرة لك على أَن تفي بعهدك.

وخلاصة القول في تعريف الوفاء أَنه مقياس صادق وكما يقال: ان العفو لا يصح أَن يُسَمَّى عفواً إلا إذا صدر من الأَعلى القادر على العقاب إلى من هو دونه العاجز عن الدفاع ، وإلا فإنه يعتبر عجزاً وذلة ، فمثل ذلك يقال عن الوفاء: إنه لا يجوز أَن يسمى الوفاءُ وفاءً بالمعنى الصحيح الكامل الا في الحالتين الآتيتين :

إمَّا أَن يكون القائم به معرِّضاً مستقبله للخطر ، بل ومقدِّماً حياته قرباناً لوفائه ، كما فعل المرحوم عبد الحميد الكاتب ، الذي سبق أَن أَوجزت قصة وفائه في التمهيد لهذا الكتاب ، ذلك الرجل الذي ضرب المثل الأَعلى عندما وهب حياته ثمناً لوفائه .

وأَما الحالة الثانية فهي التي يؤدِّي بها المرءُ الأَعلى الأَعمالَ المجيدةَ تجاه من هم دونه من الناس المستحقين ، الذين لا يرجى نفعهم ، ولا يخشى ضررهم ، كما يفعل الفقيد الوفي مع المستحقين لعطفه ورعايته ، تلك الأَفعال التي سوف يراها القاريءُ موضحة في الصفحات القادمة .

وللقاريءِ بعد ذلك أَن يصدر حكمه مميزاً به بين ما يسمي وَفَاءً واخلاصاً من النفر المضللين الآنفي الذكر ، وبين وفاء وشهامة فهد بن سعد ، البعيد بأَخلاقه ومثله كل البعد عن الزيف والنفاق ، وإنما هي أَخلاق العربي الأَصيل ، والمسلم العريق ، الراسخ الايمان بربه الذي نسأَله جل شأْنه أَن يسبل عليه غفرانه ورحمته .



وفاء الفقيد لرجاله القدامى

حينما وضعت بين يدي القاريء تعريفاً موجزاً لمــا يسمى وفاءً وهو في حقيقة أمره واجب. وعرضت صورة أُخرى عمــا يدعي بالوفاء والإِخلاص، وهو عبارة عن تضليل ونفاق، واوضحت بصورة جلية تعريفاً لِكُنْهِ الوفاء الأَصيل ـ عندما فعلت ذلك لا أَدَّعِي أَن هذا التعريف صادر عن خيالي أَكثر مما هو ناتج عن دراسة وتجارب، هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى أَرَدْتُ بهذا التعريف، وذلك التمهيد، أَن أُقدم دليلا محسوساً على أَن العمل الذي يصح أَن يقال عنه وفاءً هو العمل الذي فيه تفان يبلغ بصاحبه إِلى درجة التضحية بماله وجاهه وحياته معــاً ـ كمــا فعل (عبد الحميد الكاتب)

مع مروان بن محمد ، وأَما العمل الذي يصدر من الأَعلى إلى من هو دونـــه من الناس الذين لا يرجو المتفضل عليهم نفعهم ، كما لا يخشى ضررهم ، كمـــا هي شيمة الفقيد مع رجاله القُدامى ، أُولئك الرجال الذين أَدَّوا ضريبـــة الواجـــب في شبابهـــم فحفـــظ الفقيد لهم ذٰلك ، وأَكرم مثواهم في شيخوختهم ، وشملهم بعنايته ، حتى أَنك إذا زرتـــه في مجلسه لن تجد في ذلك النادي الفسيح من رجاله ، أَو ما يسمى بـ (خُوياه) رجلا دون الخمسين سنة ، علماً بأَن المرءَ إذا بلغ العقد السادس فانه لا يكون لديه لياقة ولا قدرة على الخدمة التي يؤديهـــا مثل ما كان شابّاً فتيًّا .

وهذا دليل واضح المعالم على أَن الفقيد الوفيَّ عندما يحرص على إبقائه على هؤلاء الشيوخ المسنين عنده ، فإنه لم يقصد بعمله هذا أَن يؤدي أَيٌّ واحدٍ منهم خدمة له ، إذ لو أَراد هذا الامر لوجده متوفراً لدى الفتيان الذين تشفع لهم عضلاتهم الجسدية بذلك ، وإنما أَراد

أَن يجعل أُولئك الكهول يشعر كل واحد منهم بالطمأْنينة والثقة بالنفس عندما يرى هذا (الخويُّ) أَنه بعد أَن شاخ وكبر لم يَتَخَلَّ عنه (مُعَزِّبُهُ) .

والواقع أَن الفقيد السخي الوفي بعد أَن كبر سن رجاله راح يعاملهم معاملــة الأَخ الوفي والابن البـــار ، والأَب الرؤُوف الحنون ، فأَبدى لهم من العطف والرحمة ومنحهم من الهبات الشيءَ الذي لم يتوفر لهم عندما كانوا فتياناً مفتولي السواعد .

أَجل ! لقد وضع لكل فرد منهم مرتباً شهريًّا يقوم بأَوده ، هذا عدا الهبات التي تجود بهــا أَريحته للشخص الذي يشعر أَن هناك ضرورة تدعو إلى الأَخذ بيده .

وإذا مرض أَحدهم لم يكتف بأَن يبعث له رسولاً يستفسر عن صحته ، بــل يذهب هو بنفسه زائراً له ، مؤنساً للمريض معنويًّا وأَدبيًّا ، ومواسياً له ماديًّا ، لأَنه قل أَن يزوره ويخرج من منزله بدون أَن يغدق عليه

من هباته السخية القدر الذي يكون له في نفسية المريض أَثر معنوي أَكثر منه مادياً.

والجدير بالذكر هو أَن (الرسميات) أَو الفروق بين الفقيد العطوف المتواضع وبين أَيّ واحد من رجاله مرفوعة، بــل لا وجود لهــا، في استطاعة (الْخَوِيِّ) أَن يعاتب الفقيد، أَو كمــا يقال عندنا (يشره عليه) كما لو كان يعاتب الأَخ الكبير أَخــاه الصغير، بل كمــا يعاتب الأَب ابنه فخذ مثلاً على ذلك:

مرض أَحد رجاله، فزاره الفقيد متشافياً له، ثم أَعــاد الزيارة مرة بعد مرة، إلا أَنه انقطع عن مواصلة زيارته له، التي كان يزوره فيهــا في الاوقات التي اعتاد ان يزوره انقطاعاً كان له ما يبرره، فمــا كان من ذلك (الخويّ) الذي لا زال على قيد الحياة ــ إلا أَن جاءَ بنفسه إلى الفقيد، الذي سُرَّ بمجيءِ (خَوِيِّهِ) فذهب يلاطفه بعبارة شعبية رقيقة تقال للمريض عندما يُشْفى وهي: (طالع من الشّر إن شاءَ الله ! !) هكذا

قال الفقيد المهذب لـ(خَوِيِّهِ) ظانّـاً أَنه بريءَ من مرضه ، وأَنه جاءَ ليبدي شيئاً من المجاملة التي يشكره بهـا على زياراته له المتكررة ، وإذا بـ (الخويّ) قد جاءَ ليلوم الفقيد ، ويعاتبه على انقطاعه عنه تلك الأَيام المحدودة ، حيث قال ساخطاً : (جئت إليك عندما انقطعت عن زيارتي) الخ ...

فما وسع الفقيد الوديع إلا أَن ابتسم له ولاطفه ، وأَزال عنه مـا في نفسه من أَوهام لا مبرر لهـا ، علماً بأَن هذا الرجل لم يكن من (خوياه) القدامى ، إلا أَنه من شجعان أَهـل الرياض الأَوائل الذين أَدَّوا ضريبة النضال في خدمة هذا الكيان ، ثم انضم إلى (خُوَّة) الفقيد بعد أَن شاخ فاحتفظ له الفقيد بماضيه كمـا احتفظ لأَمثاله .

أَما إذا مرض أَحد رجاله مرضاً تعذر علاجه في داخل المملكة ، فإنه لا يتأَخر عن أَن يسعى لإرساله لا إلى ان يعالج في إحدى مستشفيات البلاد العربية ـ كلبنان

أَو مصر مثلاً – بـل يأْمر بالذهاب به ليتعالج في (اوروبا) كمـا فعـل ذلك مع أَكثر من واحد من رجاله ، وآخر من سعي في علاجهمـا من رجاله همـا الاخ محمد بن حُوبان ، والأَخ سعد أَبو ردُون ، اللذان عندما بلغـه مرضهمـا وهو في (باريس) يعاني مرض الموت لم يَطِبْ له العيش بأَن يتعالج هو في مستشفيات (اوروبا) وفيه من رجاله من يشكو المرض في المملكة ، ولذلك بعث لهمـا أَمْراً مستعجلا كلف به وكيله بأَن يبعثهما إليه إلى باريس ، وحينما كنت في (باريس) – في زيارتي له كان – غفر الله له – يخبرني أَن الأَخ أَبو ردون وابن حوبان سوف يصلان إليـه ، إلا أَنني ذهبت من (باريس) قبـل وصولهما بيوم واحد ، وممـا تجدر الإشارة اليه ان هذين الرجلين عادا من باريس وقد شفي احدهمـا الذي هو ابن حوبان ، أَما أَبو ردون فإن الأَطباء زودوه بالعلاج الذي يخفف عليه المرض ، وعاد إلى أَهله ولا زال حيّاً يرزق ، ويؤكد لي

الأخ محمد بن حوبان أنه علاوة على أن ركوبهما وعلاجهما على نفقة الفقيد الكريم وذلك يحتاج إلى نفقة باهظة في مثل باريس – علاوة على ذلك عندما أرادا العودة إلى المملكة وهبهما الفقيد مبلغاً لا أذكر الآن مقداره الذي اخبرني به ابن حوبان ، الذي كان يحدثني عن عطف الفقيد وسخائه وهو يبتهل إلى الله أن يقبل منه ما يدعو به لفقيد الوطن ، كما أنني أدعو الله تبارك وتعالى ان يقبل مني صالح الدعوات ، وأن يستجيب ما ندعو له به في السر والعلانية ، سائلين رحمان السماء ان يرحمه ويشمله بعفوه وغفرانه .



كاد أن يتخلى عن الإمارة وفاء لأحد رجاله

كنت أود أن لو رويت هذه القصة من مصدرها لكي أكون أكثر إلماماً بتفاصيلها ، ولا سيما والرجل الذي هو الطرف المباشر في القصة لا زال يعمل في إمارة حائل عند الأمير سعد نجل الفقيد .

إلا أن من يعرف وفاءَ الفقيد لا يعتريه أدنى شك في صحة القصة ، التي أنقلها عن الاخ فهد الخُلَيْفِي وقبل أن اورد القصة أود أن أذكر اسم الشخص الذي كاد الفقيد أن يستقيل من منصبه لأجله ، كما أذكر صلته بالفقيد على الوجه الآتي :

الشخص هو صالح بن خميس شقيق الأُستاذ عبد الله ابن خميس الاديب المعروف ،وإذا كان الاخ عبد الله

اسبق مني بـ (خُوَّته) للفقيد ، فإن أخـاه صالحاً أسبق منه بالتحاقه (بخوة) المغفور له ـ بـل أعتقد أن الذي جاءَ بعبد الله إلى (خوة) الفقيد أخوه صالح .

ولما كان العلم عاملا من العوامل الرئيسية التي تتطور بهـا حياة الرجال ، وتتبدل من ركود وخمول وانخفاض إلى سمو الجاه وعلو المنزلة ، فقد كان الأَمر طبيعياً أَن تسمو منزلة الاستاذ عبد الله ـ بعد أَن تعلم ـ من (خَوِيٍّ) إلى أَن تسلق المراتب المرموقة في وظائف الدولة ، بينما ظل أَخوه صالح على ما كان عليه «خَوِيّاً» أَبرز مؤهلاته كونه يحسن الخط جيداً ، وهي مؤهلة لمن يجيدهـا يحسد صاحبهـا عليها ، وذلك قبل ان ينتشر التعليم في المملكــة .

كان صالح ـ بالاضافة إلى كونه (خَوِيّاً) عند الفقيد يقوم بدور الكاتب أَحياناً عند المرحوم .

وعندما بلغ أَخوه عبد الله منصباً ملحوظاً من المراتب العليـا دعاه ، وعينه عنده موظفاً ، خارج الهيئة ،

وحينمـــا تولى الفقيد منصب إمارة حائـــل ، أَراد أَن يعين الأَخ صالحاً موظفاً رسميًّا في (ملاك) الدولة ، لا خارج الهيئة ، لما لم يكن لصالح من المؤهلات التي تخوله لأَن يحتل المكانة التي يريدها له الفقيد ، تلك المكانة التي تحول الأَنظمة المرعية الحديثة في الدولة دون أَن ينالها الموظـف إلا بعـد أَن يحوز على الشهادات العلمية العاليــة ، فقد مُنِــعَ صالــحُ من أَن ينال الوظيفة التي أَرادهـا له الفقيد. ويؤكد الخليفي أَن المغفور له صمم على الاستقالة عن منصب الإمارة فيمـا إذا لم يُنَفَّذْ طلبه ، أَو وفاؤُه لذلك الرجل الذي رافقه صبيًّا وهو الآن شيخ في العقد السادس.

فرأَى المسؤولون عن النظام أَنهم قد يجدون ثغرة يصلون بهـا إلى ما يجعل صاحب الوفاء يستمر بوفائه ، ولكنهم سوف لا يجدون من يملأُ فراغ الفقيد في منصبه ، خاصة بعد أَن برزت مواهبـه ، وشوهدت

كفاءَته في الاعمال التي نيطت به ، واسندت اليه ـ وأَعني بذلك إمارة حائل.

وهكذا رأَى أُولئك المسؤولون عن الأَنظمة أَن في استجابتهم لطلب ذلك الوفي أَهون الضررين.

اللهم استجب منا ما ندعوه له ، كما كان وفاؤه مثلاً يقتدي به وينتفع منه رجاله بحياته وبعد مماته.



لم يكن وفاؤه محصوراً على أحد

إذا كنتُ ذكرت نموذجاً عن وفاء الفقيد النجيب مع رجاله ، فإنني لا أَعني بذلك أَن وفاءَه كان مَحْصوراً على رجاله الأَدنين ، بـل كان وفاؤه شاملاً لكل الرجال الأَفاضل ، من مواطنيـه الذين لهم أَسبقية في النضال مع عمه موحد جزيرة العرب ، أَو مع والده الفارس الذي ضحي بحياته العزيزة في سبيل قيام هذه الوحدة المباركة

وأَود أَن أَذكر أَولا نبذة عن وفائه مع رجال عمـه ووالده ، أَو أَي مواطن من أَهـل الرياض الذين لهم أَو لآبائهم أَسبقية كفاح مع آله آل سعود ، ثم أَعود بعد هذه الفقرة لأَذكر تقديره ووفاءَه لأَي عربي من ذوي الفضيلة والوفاء والنضال ، مهما كان مصدر هذه القيم .

فمن حيث وفاؤُه للأَولين ، فإن الذي يزوره في مجلسه

يرى ذلك النادي الحاشد بأُولئك الرجال ذوي (الأَسبقية) كما قل أَن تجد واحداً من هؤلاء لم يكن له هبة ينالها من ذلك الوفي ، وتكون مناسبة لمنزلة واسبقية ذلك المواطن ، وقد تكون هذه الهبة شهرية أَو ربما تكون سنوية ، وأَحياناً تكون بين فترة وأُخرى ، وحتى الذي لم يعتد زيارته فإنه يتفقده ويمنحه عطفه ، ويشمله بعنايته .

أَذكر مواطناً من أَهل الرياض كان يقوم بعمل مَّا عبارة عما يسمى أَميراً على بعض « البلاد » وكان هذا الشخص سبق أَن مررت به وهو أَمير ، وشاهدت منه كرماً يعجز الوصف عنه على الرغم من أَنني مررت به وأَنا مع قوم لا يقلون عن أَربعين شخصاً ، وكنت فرداً (عاديًّا) ضمن أُولئك الرجال الذين يقال لهم (عُمَّال) أَي جُبَاة للزكاة من أَهل البادية فكان كرمه طبيعيًّا بدون كلفة ، بل كرم الرجل الشهم الذي يستحق الاحترام ، علماً بأَنني أَعتقد جازماً أَنه إلى

هذا اليوم لا يعرف هل كنت من ضيوفه الذين بلغ القمة في إكرامهم أم لم أكن !! ..

ولما لم يكن هذا الرجل الكريم يقوم بأي عمل من أعمال الدولة التي تملأُ فراغه من ناحية ، ومن ناحية أُخرى يكون له من خلال عمله ما يقوم بأوده ، فقد قلت للفقيد : (المعروف عنك جزاك الله خيراً أنك وفي مع ذوي الفضل السابق ، وشامل بمعروفك وفضلك كثيراً من الأفاضل المتعففين ، إلا أنني لم أَرَ في منزلك شخصاً يستحق منك الوفاء الذي تشمل به امثاله؟..) فقال : من تعني ؟! فقلت : فلاناً بن فلان . فقال : هذا وإن لم يزرني فإنني واضع له هبة تأتيه وهو عند اهله

وقد أدركت فيما بعد أن من لم أعرفه من المواطنين الذين يواسيهم الفقيد وتشملهم عنايته أكثر بكثير ممن أعرفهم .

والجدير بالذكر هو أنه إذا زاره أحد من مواطنيه الذين لهم عنده مكانة محترمة ، وهو لم يأت إليه

بسيارة تقله ، فإنه إذا أراد أن يخرج يأمر أحد قائدي سياراته بأن يذهب بزائره هذا إلى منزله ، وعندما يفعل الفقيد الكريم ذلك فإن غايتـــه أن يشجع زائره على أن يكرر زيارته ، بل وأحياناً يأمر قائد السيارة بأن لا يعود بهـــا بل يسلم مفاتيحها لزائره ، كمـــا فعل ذلك مع الاخ ابراهيم بن حَيْزان ، الذي يؤكد لي الاخ فهد الخُلَيْفي ما فعله الفقيد الجواد مع ابن حيزان على الشكل السالف الذكر ، بل كمـــا فعل ذلك مع كثير من مواطنيـــه .

وحسبك مثـــالاً لوفائه مع رجال والده ـ الأُسلوب الحنون الرؤُوف الذي يفعله مع الشيخ الطاعن بالسن العم [1] سليمان بن عبد الرحمن بن خضر ، الهرم المقعد ، الذي يتجاوز الآن العقد العاشر ـ هذا الشيخ لم يقطع الفقيد مواصلة زيارته المستمرة له ولم يتخل عن عطفه عليه وعنايته به مادياً ومعنوياً ـ لماذا ؟ ... لأنه كان

---

(١) انظر : « شيم العرب » ج ٢ ص ٧١ .

المرافق الخاص لوالده الفارس - المرحوم سعد بن عبد الرحمن .

ولما كان المثل العربي يقول : الوفاءُ والبر بصديق صديقك بعد وفاته هو بِرٌّ ووفاء له. فقد وجدت بتطبيق هذا المثل راحة لضميري ، واطمئناناً يغمران كياني ، ولذلك ذهبت لزيارة الشيخ سليمان بن خضر في مجيئي إلى الرياض ذهبت اليه في ٢٤ ذي القعدة - ١٣٩٢ - (الموافق ٢٩ - ١٢ - ١٩٧٢) - فألفيته شيخاً مُقَوَّسَ الظهر ، رأْسه ساقطٌ بين فخذيه اللذين كأَنهما عرق الأَراك ، لا أَستطيع رؤُية وجهه ، فوجدت ذلك الشيخ فاقداً كل شيء إلا شعوره وسمعه وعقله ، وشممه وإباءه ، ولكنه لا يزال محتفظاً بقواه العقلية لأَنه كان يحدثني بكل رزانة وإدراك ووعي ، كما كنت أَعرفه قبل أَن يقعد ، أَما من حيث شممه وإباؤُه فقد تجلى لي ذلك عندما شئت أَن أُودعه ذاهباً ، ووضعت بيده مبلغاً من عملة الورق النقدية ، فعلت ذلك وأَنا قائم أُصافحه فمدَّ يده التي لم يكن فيها سوى العروق والعظم مدَّها مصافحاً . ولكن ما إن شعر أَن في يدي نقوداً حتى نفض

كفّه من كفي قائلاً : لا لا يا فهد !! ما هذا الذي يجب منك . فظننت أنه يتصور ان مـا وهبته له قليل وأنه يطلب المزيد ، فأَضفت إلى الهبة الأُولى زيادة ثم انحنيت على رأْسه مُقَبِّلاً ، ومعلنـاً له عن مقدار الهبة التي لم يخطر لي ببال ان يرفضهـا ، فمـا كان منه إلا أَن رفض قبولهـا بشدة وإِبـاءٍ ، قائلا : هل تريد مَبَرَّتي وإلا اهانتي يا ابن مارق ؟! فقلت : بـل أُريد مبرتك وأَن تعتبر هذه الهبة المتواضعة كأَنهـا من ابنك عبد الرحمن ـ وكان ابنه جالساً بجانبه . فقال : يا فهد لا لا تُهِنِّـي ، أَعـاد هذه الجملة أَكثر من مرة ، فخرجت من عند ذلك الشيخ المقعد بعد أَن قبلت رأْسه ، خرجت من عنده وكأَنني أَسمع صوت ضميره يقول : لم يتركني فهد بن سعد أَحتاج لمخلوق !!

هذا وقد خرج معي ابنه عبد الرحمن يعتذر مني ، وبقدر ما قبلت عذر الابن أُعْجِبت بشمم وإِبـاءِ ذلك الشيخ من ناحية ، ومن ناحية أُخرى ذهبت أَسأَل الله للفقيد أَن يقبل حسناته التي ظل ذلك الشيخ ينعم بها ، لا في حياته بل وبعد مماته .

شمول وفاء الفقيد لذوي الفضل

ذكرت في الفقرتين السابقتين بعض مـــا ظفرت به عن وفاءِ الفقيد مع رجاله بصورة خاصة ، ومع رجال أَهله بمفهوم شامل عام ، وهـــا أَنذا اذكر في هذه الفقرة ما أَعرفه عن وفائه وتقديره لذوي الشجاعة والنضال والوفاء ، مهمـــا كانوا ، ومن أَية جهة يكونون .

كنت جالساً عنده عندما زاره شخص من ساكني حائل وهو المرحوم درعان ،ولشد ما أُعجبت كل الاعجاب بأُسلوب التقدير والاحترام الذي أَبداه الفقيد لهذا الرجل ، حيث ذهب يلاطفه ويسمعه العبارات التي جاءَ منهـــا قوله : (نحن نحب الوفيَّ أَمثالك ، ونقدره ونحترمه لوفائـــه) ثم اتبع كلامه هذا الذي أَدخـــل

به على قلب درعان الشعور والاعتزاز ـ اتبعــه عبارات يؤكد بمعناها لدرعان بأَن الوفاءَ الذي قام به ، وإن كان دون (مُعَزِّبِه)[1] سعود بن رَشِيد وهو عمل واجب فإنه يشكره عليه ويقدره من أَجله .

ومن أَمثال تقدير المغفور له لذوي النضال ، ووفائه لهم ، أَنه عندما زار الرياض زعيم الفدائيين الأَخ ياسر عرفات ورفيقه في النضال الأَخ خالد الحسن ، أَمرني بأَن أَدعوهمـــا لتناول طعام العشاءِ ، على الرغم من أَنهمــا في ضيافة الحكومة ، وإنمــا أَراد أَن يبدي لهمـــا ما يؤمن به من التقدير والوفاء لذوي النضال ، والجهاد في سبيل الحق العربي ، الذي اغتصبــه الصهيونيون المعتدون ، واذكر أَنـــه قدم (مُسَدَّساً) قيِّماً للأَخ المناضل خالد الحسن ، وذلك في زيارته للرياض الأُولى التي أَقام فيهــا الفقيد دعوة عشاءٍ على شرفـــه .

---

(١) أي شخص له أدنى إلمام بتاريخ بلادنا لابد إلاأن يعرف قصة درعان التي اختصرها بالعبارة الآتية ـ قتل شَخْصٌ (مُعَزِّبَهُ) غَدْراً فقتلــه درعان فوراً ـ .

هذا نَزْرٌ قليل ممـــا شاهدته من إكرام ذلك الجواد الوفي ، وتقديره لذوي الفضل حيث كانوا ، والشيءُ الذي لم أَعرفه ولم أُحِطْ به علماً أَكثر ولا شك ممـــا عرفته ، فاللهم اغفر له !!!

لماذا لا أتحدَّث عن وفاء الفقيد لذويه؟

قد أَجد من يقول: لقد تحدثت عن وفاء الفقيد مع رجاله القدماء ، كمـــا تحدثت عن وفائه مع الرجال ذوي الأَسبقية مع أَهله – وزدت على ذلك الحديث عن وفائه وتقديره لذوي الفضل من أَيـــة جهة كانت ، ولكنك لم تتحدث عن وفائه أَو بره بذويه الأَقربين ؟ .. والجواب على ذلك في منتهى البساطة ، وهو :

أَولا : أَن الوفاءَ للأَقربين يسمَّى بِرّاً ، ولا يصح أَن يقال له وفاءً ، فالوفاءُ هو ما حدده علماءُ الادب وحكماءُ العقول في الناحيتين السالف ذكرهمـــا ، بدليل أَن

من يبدو منه قصور تجاه والديه أَو ذويه الأَقربين يسمى عاقًا.

ثانياً: إذا سلمنا جدلا أَن ما يقوم به المرءُ لذويه الأَقربين من جود وبذل وسخاءٍ وإِجلال، أَقول: إذا كان مثل ذلك يسمى (وفاءً) فإِن الأَعمال التي يبذلها الفقيد، ويقوم بها، تعتبر ضمن الأَعمال (العائلية) التي لا يعرف تفاصيلها إلا ذووه الأَقربون، أَما من لم يكن من صميم الأُسرة فإِنه لا يستطيع أَن يحيط علماً بكل دقيقة وجليلة منها.

ثالثاً: إذا كان القول العربي الثابت صدقه عقلا ومنطقاً وتجاربَ محسوسة يقول: إنَّ من يصل وفاؤُه وبره البعيد، جدير أَن يَفِيَ وَيَبرَّ بالقريب.

أَجل!! إذا أَخذنا هذا القول الواقعي الموضوعي بعين الإِعتبار، فإِن ما أَوردته من الأَدلة المتقدمة في هذا الفصل عن وفاء الفقيد كافٍ بأَن يكون خير شاهد على ذلك، كما يكون الجواب المقنع والحجة البالغة

تجاه من يسأَل السؤال الذي جاءَ عنواناً لهذه الفقرة (لماذا لا اتحدث عن وفائه مع ذويه) ؟! ..

وإذا كان لا بُدَّ من الحديث في هذا الصدد ، فإنه ليطيب لي أَن أَذكر حادثة قد لا تكون ذات أَهمية وشأْن ، وإنما تعبر على بساطتها وصغر حجمها عما يتحلى به الفقيد البارُّ من إذعان وتنفيذ لما يأْمره به من هو أَكبر منه من ذويه ، أَو اجتناب ما ينهاه عنه – وهذه الحادثة الوجيزة بتعبيرها ، الكبيرة بمعناها جاءَت كما يلي :

أَمرني – غفر الله له – عندما كنت (خَوِيّاً) له بالقيام بعمل شرحه يبعد بنا عن الهدف المنشود ، فذهبت من عنده قاصداً أَن أُبلغ وكيله المرحوم محمد البصري الأَمر الذي أَمرني أَن أُبلغه إياه ، ولكن ما إن ابتعدت عنه خطوتين إلى الخلف مدبراً من عنده ، حتى ناداني وأَبلغني أَمراً معاكساً للأَول ، فهمست بأُذنه سائلا إياه عن السبب الذي جعله يتراجع عن

أَمره الأُول ، فأَشار بيده الكريمة إِلى شقيقه الأُمير فيصل ، الذي كان جالساً بجانبــه في السيارة إِشارة فهمت منها أَن أَخاه أَمره أَن يلغي ما أَمرني بــه ، وأَنه لا محيص له من تنفيذ ما أَمره به أَخوه .

وبقدر مــا كنت مستثقلاً تراجعه عن أَمره الأَول سَرْعان ما عدت متراجعاً عن استيائي السابق إِلى تقدير واعجاب بهذا البر الأَخويِّ الصادق .

وهذا ممــا يجعلني لا أَلوم أَخاه فيصلا عندما سمعته بعد وفاة الفقيد يقول جملة لا احفظها بلفظهــا كما وردت منه ، وإِنما أَحفظ معناها الذي يشير أَنه منذ أَن عرف أَخــاه إِلى أَن اختاره الله لجواره فإِنه لا يذكر منه عملاً أَو كلاماً يوحيان من بعيد أَو قريب إِلى أَقل إِشارة إِذا ذكرها خففت عليه وطأَة فاجعته بأَخيه .

اللهم كما غفرت للبارِّين بذوي قرباهــم ورحِمِهِم ووالديهم ، اغفر لفهد السعد واسكنه جناتك .

وفاء الفقيد بالمعاملة

ورد في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « الدين المعاملة » .

يؤخذ من معنى هذا الحديث أَن المعاملة الحسنة دليل على كمال دين المرءَ .

وينعت الرجل الذي يحسن المعاملة في تعبيرنا الشعبي بالوفاء ـ فيقال : (فلان وَفِيٌّ) وهذا مما جعلني أَضيف هذه الفقرة إِلى فصل الوفاء .

وإِذا كان الوفاءُ راسخ الجذور ، في دم الفقيد النجيب ، وفي لحمه ، فإِن وفاءَه في معاملته لمن يستدين منه مالاً ، أَمر لا يحتاج إِلى دليل ، لأَن من يكون وفيّاً في الأَشياء المعنوية يكون وفيـاً بلا شك بالأَمور المادية ، على اعتبار أَن الوفاءَ من حيث هو جزءٌ لا يتجزَّأُ

ولذلك ليس غريباً أَن يتخذ الفقيد الوفيُّ في معاملته مع السيد (حسن شربتلي) موقفاً جميلاً ، بـل جيداً لم يخطر للشربتلي نفسه أَن يجد من يعامله تلك المعاملة ، وقبل أَن أَصل إلى صلب الموضوع أَودُّ أَن أَذكر تعريفاً موجزاً عن الطرف الدائن ، الذي هو السيد الشربتلي ليكون للمعاملة التي أَبداها الفقيد نحوه أَهميتهـا ، وإليك التعريف:

لست في حاجة للقول بأَن الشربتلي من أَثرياء المملكة الأَفذاذ ، أَو كمـا يقال عن أَمثاله (مليونير) وعلى الرغم من أَنه لم يكن أُمِّيًّا بتعبير العصر الحديث الذي يطلق على من لا يكون مثقفاً وإن كان يحسن القراءَة ، فإن الشربتلي أُمِّيٌّ لا يعرف حرفاً واحداً من حروف الهجاء ولكنه مع ذلك ذو شخصية متعددة الجوانب.

وإذا كان المرءُ يظل في حيرة بين الأَخذ بالحكمة الذي عبر عنهـا الحكيم العربي بقوله : (حفظ درهم من المال يحتاج إلى قنطار من العقل) وبين الأَخذ بما

أَنشده شاعر الحكمة الشعبي محمد العبد الله القاضي في قصيدته اللاميـة التي جاءَ منهـا بيتان يتناقضان مع قول الحكيم العربي ـ وهما هذان البيتان :

كَمْ عاقـلٍ بهْ خاسْرٍ رأْسْ مالـهْ
مِفْلِسْ وُكَمْ بِهْلُول عَقْلٍ جمَعْ مَالْ

السّبْعْ رِزْقهْ مِنْ خَفيَّةٍ خْتَالَـه
وْجِنْدٍ ضعيفٍ مِرْغدٍ رِزْقهْ آشْكَالْ

أَجل !! إِذا كان المرءُ يجد في كل من قول الحكيم العربي ، وبيان وحكمة الشاعر محمد القاضي مـا يجعله في حيرة عند الأَخذ بتلك الحكمة ، أَو بهذين البيتين ، فإِنه سوف يلاقي نفس الحيرة في تحديد معالم شخصية السيد (حسن الشربتلي) !

وإِذا كان المثل يقول : (كل يتحدث بمـا يعرفه) فإِنني أَعرف عن السيد الشربتلي مواقف سخاءٍ وبذلٍ في نواحٍ خيرية ووطنية ، لا أَذكر أَن هناك ثريّاً من أَثرياءِ المملكة يباريه فيهـا ،ولكن هذا لا يجعلني

أُخالف الرأْيَ الذي وصف به السيدَ الشربتليَّ أَحَدُ المواطنين عندما قال: إن خير مَثَلٍ يوصف به الشربتلي هو المثل الشعبي القائل: (فلان كل مـا تْهَقَى بِـه تَلْقَاهْ بِهْ) أَي كل مـا يظن به من الاعمال المتناقضة متوفرة فيه.

وعندما نؤمن أَن هذا المثل خير معبر عن شخصية السيد الشربتلي فإنه من الأَفضل لنـا أَن لا نتجاوزه ـ بل نقف عنده ـ لننتقل بالحديث عن الاسلوب الذي يتخذه في معاملاته التجارية، لا إنْ أَخَذَ واستدان، بل نودُّ أَن نتحدث عن أُسلوبه إن أَعطَى وأَدَان لان أُسلوبه في الأَخذ متروك الحكم به ومعرفته لرجال (البنوك) والمصارف ـ أَما أُسلوبه إذا كان هو الدائن فهذا محور حديثنـا الآن.

أَجل!! إن (الشربتلي) كمـا كان جزلا بهباتـه، فإنه جزل في اقراضه، ولكن إقراضَهُ هذا في أَغلب الأَحيان لا يكون (عملة نقدية) فهو إمـا أَنه يقيد

المستدين بـ (شيك) مسجل برقمه وتاريخه وتزداد عمولته التي يضعهــا كيف يشاءُ ، كلمــا زادت الأَيام بعدم تسديد المدين له ، وإمــا أَن يكون القرض أَو الدين عمارة أَو سيارات أَو أَرضاً يشتريهــا منه صاحب الحاجة بالثمن الذي يقرره البائع ، وهذا المشتري يهمه أَن تُقْضىَ حاجته مهما كان ثمنها باهظاً ، وتتضاعف عدم الأَهمية فيما إذا كان المحتاج أَميراً ، كما أَن السيد الشربتلي قد لا يرى مانعــاً فيمــا إذا ضاعف قيمة الحاجة على ذلك الأَمير .

وكان الأَمر طبيعيًّا أَن تتضاعف ديون الشربتلي على الأُمراء ، وتبلغ من الملايين الرقم القياسي .

وقد اتخذت الحكومة قراراً يقضي بأَن تشكل لجنة تنظر في تسديد ديونه الخاصة بالامراءُ ، ونتج عن قرار اللجنة بأَن يدفع الأُمراءُ للشربتلي المبلغ المعقول الذي لا ضرر فيه ولا إضرار .

وبعد : فلئن ذكرت في مقدمة هذه الفقرة الشيءَ الذي

يجعل المرءَ في حيرة من معرفة شخصية السيد الشربتلي ، فإِن القاريءَ سوف يجد نفسه في حيرة أَكثر من حيرته الأُولى في معرفة شخصية وطباع السيد الشربتلي ، فيما إِذا أَكَدت أَن هذا الرجل يجد في مواصلة طلباته بديونه ، واستمراره في شكاويه ، وإِشغاله للمحاكم وللحكام معاً لذَّةً ونشوة وحُبُوراً أَكثر مما لو دفعت له كل ديونه كاملة بمضاعفاتها ، بل ولو صرف ما يقابل ديونه كلها للمحامين ، فإِنه يجد سعادة في ذلك يملأُ بها فراغه أَكثر من سعادته فيما لو ربح عن كل ريال من ديونه أَلف ريال .

وإِذا كنت استرسلت في حديثي هذا عن شخصية السيد الشربتلي ، ووصلت إِلى الجملة الأَخيرة التي أَوضحت فيها ما يشعر به الشربتلي من سعادة في إِثارة الدعاوي أَكثر الف مرة من بلوغه الهدف الذي هو الحصول على ماله مضاعفاً ، فإِن غايتي في هذا البسط أَن أُؤكد بأَن معاملة الفقيد الحسنة ووفاءَه لدائنيه

حرمت السيد الشربتلي من تلك السعادة وذلك أنه رفض قبول حكم اللجنة ، التي قررت أن يعطي الشريتلي المبلغ المعقول ، الذي يتناسب مع المــال الأساسي الذي له على المدينين ، بل دفع الفقيد كل الذي ادعى به الشربتلي من دين له عليه ، بدون ان يناقشه أو يحاسبه ، وإنمــا اكتفى بقبوله للبيان الذي قدمه له ، وذهب السيد الشربتلي في ظاهر أمره يدعو الله أن يكثر أمثاله ، بينما في سريرته وفي خلقه وطباعه يتمنى أن يظل في دعواه عليه كما كان يدّعي على غيره ، لأنه ـ كما اسلفت ـ يجد سعادته في ذلك .

اللهم اغفر للفقيد وارحمه ، بقدر مــا قطع الطريق على (ابو هاشم) [1] ولم يدع له منفذاً يتسلسل منه في شكاوي ودعاوى يقيمها على ورثة الفقيد ـ غفر الله له .

* * *

(١) (أبو هاشم) كنية (الشربتلي)

الفصل التاسع

نبذة عن شجاعة الفقيد وثباته وجلده



إذا كانت الشجاعة من حيث هي جزء لا يتجزأ ، اسماً شاملاً بمفهومه الشجاعة ، فإنها من حيث الواقع العملي متعددة الجوانب ومتباينة مراتبها ومراحلها ، ومعانيها .

فهناك مثلا ما يسمي بـ « الشجاعة الأدبية » وما يدعى بـ « الشجاعة العقلية » ومـا ينعت بـ « الشجاعة الفكرية » . وهناك شجاعة الأخلاق ، وشجاعة الثبات ، والصبر على احتمال المشقة والأذى ، تلك التي للفقيد باعٌ طويل فيها كما سيأتي بيانه.

أما كلمة الشجاعة في اصطلاحنا المحلي والتعبير الإقليمي بلهجتنا الشعبية ـ فإنها تعني شجاعة الحروب وحتى هذه الشجاعة ، وإن كانت هي الأصل بالمعنى الكامل ، والمفهوم الشامل ، فإنهـا من حيث ترتيب منازلها يتفرع منها عدة معان .

فهناك على سبيل المثل : شجاعة اللحظات والارتجال ، التي كثيراً ما ينعت صاحبها بالشجاعة ، وقد تبلغ شهرته وذيوع صيته وسمعته بلقب الشجاع القمة ، خاصة إذا كانت المعركة تبتديءُ وتنتهي بلحظات مرتجلة ، فشجاعة كهذه أَكاد أَنخدع بأَصحابها ، لولا أَنني عشت تجربتها ، وتجرعت مرارتها ، وكشفت حقيقتها ، مع شخص في مناسبة سوف أُشير إليها في آخر هذه الفقرة .

أَقول : إن شجاعة كهذه تعتبر في اعتقادي أَدنى مراحل شجاعة الحروب ، أَما قِمَّةُ الشجاعة الحربية وذروتها فهي شجاعة الثبات والجلد ، إذا اغبرت آفاق الهيجاءِ ، وحمي الوطيس ، وطال أَمد الحصار ، وازداد سهر المحاربين ، ونفد صبر شجعان الارتجال ، ومثلها شجاعة الثبات في الملمات ، والمفاجآت الطارئة ، ومنها ــ أَو أَهمُّها ــ شجاعة الكرة بعد الفرار ، تلك السجية التي يندر أَن تتوفر إلا للأَبطال الأَفذاذ ، وهذه للفقيد البطل دور فيها سوف أَورده في مكانه المناسب من هذا الفصل .

بُطولة للفقيد لم أظفر بتفاصيلها

لا أَستطيع أَن أَتحدث عن شجاعة الفقيد بصورة مفصلة ، وشاملة لكل ما تشير إِليه الشجاعة من الأَنواع والمعاني السالف ذكرها ، وإِذا كان ولا بُدَّ فإِن حديثي سوف يكون محدوداً ومحصوراً في نواح معينة .

ولعل أَهم الأَسباب التي تضطرني إِلى الاختصار ، هي أَنه لم تتح لي الفرصة التي تمكنني من الإِلمام والمعرفة بتاريخ حياة الفقيد بصورة شاملة ، وللغزوات والحروب التي خاض غمارها مذ كان فتيّاً يافعاً.

فمثلا معركة (السَّبَلَةِ) ومعركة (الدِّبْدِبَةِ) هاتان المعركتان حضرهما الفقيد ، وانغمس في وطيس وغاهما ، وهو يافع بين الخامسة والسادسة عشر سنة أَو ما دونهما .

ويقول الرواةالثقات: إِنه كان في مقدمة الفرسان ، الذين كان لهم دور عملي في تحقيق النصر في كلتا المعركتين ، أَما كيف كان ذلك الدور ؟! ... وما هو كنهه وتفاصيله ؟

فذلك أَمر أَجهله بصورة واضحة ومفصلة ، لأَنني لم أَعرف الفقيد وقتهـا بل ولم أَكن في المملكة .

وفي احدى المناسبات التي اجتمعت فيها بالاخ الصديق الشهم الاستاذ عبد العزيز الرَّبِيعي روي لي قصة بطولة حربية قام بهـا الفقيد بمعركة (السَّبَلة) والاستاذ الرَّبيعي يرويها نقلاً عن شخص حاضر تلك المعركة ، ويتحدث عن بطولة الفقيد حديث من رأَى وشاهد ، لا حديث من سمع ، وهذا الشخص بدويٌّ لا أَذكر اسمه الآن ، وإنما يقول الراوي إنه يدعى (فلان الصييفي) .

وكم حرصت الحرص الشديد لأَن اجتمع بالسيد (الصييفي) لأَنقل عنه حادثة البطولة التي قام بهـا الفقيد ، وممـا ضاعف حرصي على معرفة (الصييفي) وأَخذ القصة عنه مباشرة كون الراوي بدوّياً ، فهو بطبيعته ونشأَته وظروف بيئته التي عاش فيهـا ، ومحيطه الذي ترعرع فيه ، يكون بعيداً كل البعد عن الاختلاق ، بـل وعن التنميق . وإنما يأْتي برواية الحادثة على سجيته كشأْن أَي بدوي بعيد عن تنطع

بعض رجال المدن وتنميقهم لكلامهم .

وإذا كنت لم أظفر -مع الأسف- بذلك البدوي على اعتبار أنه يقيم في الصحراء ، فإنني واثق من صحة رواية الأخ الاستاذ عبد العزيز الرِّبيعي ، تلك الرواية التي لا تعدو بأن يكون لهـا جوهر وأصل ، أمـا تفاصيلهـا بوضوح فإنها ظلت مقبورة في صدر ذلك البدويّ ، الذي لا ريب عندي بأنه واحـد من مئات الرواة ، الذين اختفى في صدورهم ومات بموتهم العدد الذي لا يحصى من قصص البطولات ، ومن الاحداث التاريخية التي تستحق الذكر بل الخلود .

ولكن مما يؤيد صحة قصة (الصيبفي) القصة الآتية التي ستكون امتداداً لتلك وتأييداً لها .



الفقيد في العرضة الحربية وعن يمينه الأمير فهد بن عبد العزيز وعن يساره صاحب الراية منصور بن مطرف



حنّاهَل (العوجا) رجـال الشجاعات   كلٍّ المصايبْ نشربَهْ شربـة الهَيْل

(الأمير فهد بن عبد العزيز من قصيدة له ستأتي)

شجاعة الفقيد في الكرّة بعد الفرار

سبق أَن قلت : إنني لم أُوفق للاحاطة بكل ما هو معروف عن الفقيد من شجاعته في الحروب ، مؤكداً أَن السبب في ذلك يعود إلى عدم التزامي مرافقته في تلك الحروب التي خاضها ، وبمحض الصدفة اجتمعت بأَحد رجال الفقيد القُدامى وهو الاخ محمد ابن حوبان ، وذلك في ٢٤-١١-١٣٩٢ (أَي ٢٩-١٢-١٩٧٢) عندما كنا ذاهبين إلى مدينة حائل في الطائرة ، جالسين على كرسيين يحاذي أَحدنا الآخر ، ولما كان ابن حوبان من (خُويا) الفقيد الأَوائل. فقد كان حديثنا كله منذ أَن أَقلتنا الطائرة من مطار الرياض ، حتى وصلنا مطار حائل محصوراً في الحديث عن سجايا الفقيد ، وخصاله الكريمة وأَخلاقه النبيلة ، ولا اذكر كيف انتقل بنا الحديث إلى الكلام عن ابن للفقيد اسمه عبد الله توفي قبل ان يتجاوز سن التمييز ، وقد اسهب ابن حوبان في حديثه

عن ذكاء ذلك الصبي الذي لم يكن ذكاؤُه ـ على حد ما نقله الرواي ـ ذكاءً عاديّاً ومضى المتحدث عن الصبي مسترسلاً في حديثه ـ إلى أن قال : إن ذلك الصبي ذهب يعاتب شخصاً من قبيلة (سُبَيْع) يقال له (متعب العجرش) الذي عاتبه الصبي عتاباً لا يصدر من طفل في ذلك السن ، ومما نقله الراوي عن عتاب الصبي للعجرش قوله : ان الصبي راح يؤنب العجرش ويعاتبه قائلا : أَأَنت الـذي قلت (لأَبوي) : (الله يعوج رقبتك) ؟! ...

كان ابن حوبان يتحدث عن ذكاءً وفطنة ذلك الطفل بصورة بريئة ، بـدون أَن يشرح المعنى أَو المناسبة التي من أَجلهـا قال ذلك الطفل هذه الكلمة للعجرش ، ولم أَتصور أَن لكلمة الطفل مغزاهـا البعيد الهدف ، بل كادت هذه الكلمة تمر معانيهـا مر الكرام ، بدون أَن أَعبأْ بهـا ، لولا أَن حديث الراوي انتهى عندها ، فأَردت من قبيل المجاملة أَن أشعر رفيقي أَنني مصغ لحديثه ، وراغب بأَن يواصله وأَود أَن نقطع به الرحلة

الجوية البالغة حوالي ساعتين بين الرياض وحائل بطائرة (الكنفير) ولذلك ذهبت استفسر من ابن حوبان عن معنى الكلمة وعن المناسبة التي قالها الطفل للعجرش.

ولشد ما غبطت الاخ ابن حوبان من ناحية على سجيتــه البريئة التي لا تبعد كثيراً عن سجيــة ذلك الطفل، ومن ناحية أُخرى شكرته، فأَمــا مصدر غبطتي له فهو أَنه كان يحدثني عن ذلك الطفل ببراءَة تشبه إلى حد بعيد براءَة ذلك الطفل نفسه، الذي يروي عنه الحادثة، وفي الوقت ذاته كان على وشك أَن يغفل حادثة بطولة فذّة قام بهــا الفقيد في غزوة اليمن، بل أَغفــل تلك الحادثة فعلاً، لو لم أَستفسر منه عن معنى كلمة ذلك الطفل، فبراءَة وسذاجة من هذا النوع يُغبط صاحبهما عليهما لأَنه مرتاح من عناءِ الإِحساس الذي وصفه الشاعر أَحمد الصافي النجفي بقوله:

تُعَدُّ رزايانَا عَلَى قَــدْرِ حِسِّنَــا
وَرُبَّ سَعِيدٍ وهْوَ يَغْمُرُهُ الْبُــؤسُ

ويُصْغِرُ قَدْر الصَّبْرِ مَنْ قَلَّ حِسُّهُ
ويَعْظُمُ قَدْرُ الصَبْرِ إنْ عَظُمَ الحِسُّ

اما الناحية الثانيـــة التي شكرت ابن حُوبان من أَجلهـــا –ولا زلت أَشكره– فهي أَنـــه أَهدى إليّ قصة بطولة عن الفقيد ، كنت –ولم أَزل– في أَمَسِّ الحاجة إلى معرفتهـــا ، ومعرفة أَمثالهـــا من البطولات التي قام بها الفقيد ، ولم يبلغني خبرها كهذه البطولة التي كنت أَجهلها إلى الأَبد لولا الظروف والمناسبات الطارئة التي جعلتْ الراوي عن طريق الصدفة المباركة ينقل لي قصة البطولة التي قام بهـــا الفقيد البطل على الوجه الآتي :

نفدت الذخيرة وشحت المؤن على الجيش المحارب في غزوة اليمن التي كان الفقيد من قادة رجالهـــا ، وفي حالة كهذه لم يسع أُولئك المحاربين ،إلا أَن انسحبوا كمـــا هي حالة المحاربين في كل زمان ومكان حينما تتعذر وسائل الدفاع فضلاً عن الهجوم ، وهكذا انسحب المقاتلون ومن ضمنهم الفقيد انسحاباً فرضته عليهم

ظروف المعركة التي لا ترحم. ومن عادة الرجال إذا انسحبوا فإن مـا يسمي بالعرف عندنا (بالرَّدَّةِ) أَو (الكَّرة) أَو ما يقال في الاصطلاح العسكري الحديث (بالهجوم المعاكس) كل هذه المعاني وتلك الاسماء يستحيل تحقيقها وتطبيقهـا ، لا في غزوات العرب وغارات فرسانهم في العصور القديمة ، ولا في الحروب المعاصرة الحديثة اللهم إلا عندما تتوفر العوامل الآتية:
اولا: أَن يكون الانسحاب خُطَّةً حربيـة مدبرة ، ليضع المنسحب العدوَّ بين الكماشة ـ أَي أَنَّ المنهزم يكون أَعَدَّ فريقاً من الفرسان أَو من المشاة ليفاجيء هذا الفريق العدوَّ من الخلف ، وعندئذ يكرُّ الفارُّون كَرَّةَ رجل واحد ، ولا تتم كَرَّتُهُمْ هذه حتى يثقوا أَن نـار رفاقهم اشتعلت بجنود العدو من الخلف ـ.

ثانياً : أَن يكون لدى المنهزم ما يسمى في العصر الحديث بالجيش الاحتياطي ، ويسمى عند العرب باصطلاحنا الشعبي بـ (الْمَرْكي) أَو (الكمين) وهذا (الْمَرْكِيْ) وذلك الكمين يظلانِ في مكان بعيد



(الفقيد في العرضة الشعبية الحربية ، بيده اليسرى السيف ،والبندق فوق منكبه الأيمن

منْ لا يقدّمْ شذْرةَ السيفْ والكيْس ... يصبحْ عليه منَ الليالي ثلُوم)

(تركي بن حُميد)

عن موقع المعركة ، وإن كان المعوَّل عليهمـــا ، أَمَّا الذي يدخل المعمعة فهو ذلك الجيش الذي ينفذ خطة الهزيمة بصورة مصطنعة ، فينهزم المقاتلون مسافة بعيدة ، حتى ينهكوا العدو في مطاردته لهم ، وأَكثر مـــا تطبَّقُ هذه الخطة الحربية (الجهنمية) بين الفرسان ، وتطبق أَيضاً بين المشاة ولكنهـــا بصورة أَقل - وإذا وصل المهزومون المكان الذي فيه (المَرْكِي) أَو الكمين عندئذ يكر الكمين والمهزومون كرة رجـــل واحد ، فيتم لهم النصر الحاسم ، كما فعل (هايس القُعَيْط) مع (عقاب العواجي) وهي قصة سوف أَورد تفاصيلهـــا في الجزء الخامس من «شيم العرب» وكما فعل فرسان قبيلة الرُّوَلَةِ بقيادة زعيمهم الفارس الشيخ (النُّورِي بن شعلان) بفرسان سعود بن رشيد بمعركـــة تسمى بـ(الجُمَيْمة) وقعت في ١٣ - ١ - ١٣٢٨ هـ.

في هذه المعركة دبر الفارس النوري بن شعلان خطة حربية رهيبة خلاصتهـــا أَنه جعل فرسانه ينهزمون أَمام فرسان العدو انهزاماً يسمى عند الفرسان (شدّ

الْعِنان) وعند المشاة (هَوْش الساقَةِ) أَي إِن المنهزم لا يفر فراراً يجعـل عدوه يتمكن منه ، بل يظل نخبة من شجعان المنهزم يحمون مؤخرة قومهم.

وقد ظل فرسان ابن رشيد يطردون فرسان الشعلان حتى بلغ الإعياء بالطاردين أَقصى مداه ، بينمـا كان المهزومون أَقلّ تعبـاً ، وما إِن وصل المهزومون المكان الذي فيه الكمين حتى كروا جميعاً كرة عنيفة ، وهزموا بهـا فرسان الرشيد هزيمة ساحقة ، وقتلوا فيها عدداً من أَبرز فرسانهم. وكان والدي واحداً ممن طرحه فرسان الشعلان أَرضاً عن جواده ، بعد ما طعنه احد الفرسان طعنـة قاتلة ، نجا من الموت بأُعجوبة ، على الرغم من أَن الفارس الذي طرحه حاول أَن يقتلـه بـ (فرده) ـ مسدسه ـ إلا أَن (الفرد) لم تنطلق منه الرصاصة ، فنجـا من الموت بقصة يطول شرحهـا ، كمـا أَنه نجـا مرة ثانية من طعنة أُصيب بهـا من نفس فرسان الشعلان.

ثالثاً: تكون الكرة انتحارية يقوم بهـا أَحد الفرسان

الأَفذاذ ، الذين يندر وجودهم ، وحتى هؤلاء الفرسان لا يقوم بهــا أَحدهم إلا في المناسبات النادر وقوعها ، والتي تجعل الفارس المغامر الشهم لا محيص له من القيام بها ولو لقي حتفــه ، كما فعل (عبد العزيز أَبا الخيل) في معركة (الْمُلَيْدَاء) الواقعة في عام ١٣٠٨ هـ عندما كرَّ الفارس لينقذ حياة (خاله) الذي نخــا عبد العزيز في عنفوان الهزيمة على الصورة التي وصفهــا الشاعر محمد العوني في رثائه لصديقه عبد العزيز بقوله :

نَخَا خَالُــهْ والسَّبَايــا مْصِرَّهْ
وْرِدَّهْ يَبِيْ يِطْلعْ مْعَفِّي جْوارهْ

وكانت النتيجة ان الفارس عبد العزيز وخاله قتلا معاً ، وكمــا فعل (فيروز المحمد) الذي كرَّ ليخرج أَميره عبد العزيز الرشيد في معركة (الْبُكَيْرِيَّة) الكائنة في ١٣٢٢ هـ فقتل فيروز بعد أَن أَنقذ الأَمير .

وإذا كانت هذه الكرة الانتحارية تعتبر قمَّــة الشجاعة وذروتهــا حتى أَصبح الشعبيون يضربون بشجاعة من يقوم بهــا المثل فيقولون : (فلان أَشجع

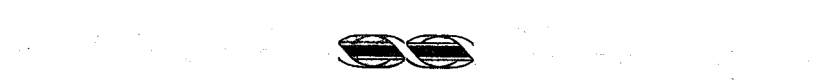
ممن ينطح المقابيل) أي يصد المهاجمين ، ويقال : (فلان أَشجع ممن ينطح الخيل وهي كرّع) فإن الشجاعة التي أبداهـا الفقيد في المعركة التي تسمى معركة (بَاقِـم) هي من هذا النوع ، وذلك عندما تقلـد (بندقيته) وانتضى سيفه صائحاً بأَعلى صوته ناخياً رفاقه بقوله : (أَهْلَ الْعَوْجَا).

قال الفقيد البطل هذه العبارة الموجزة في لفظها والمهيّجة بمفهومهـا ومعانيها ، ثم انطلق أَمام الرجال الذين اقتفوا أَثره ، باعثاً فيهم الشجاعة والحماسة ، فاسترد الأَبطال شجاعتهم من جديد ، وراحوا يحذون حذو فهد بن سعد المغامر المقدام ، الذي قاد الرجال إلى أَن وصل بهم إلى المكان الذي فيه المِدْفع بعدما هرب العدوُّ أَمام الكارِّين الانتحاريين.

وما إن وصل الفقيد إلى المكان الذي فيه المِدْفع حتى أَخذ الجهاز المحرك لقنبلته ، والذي كان العدوُّ على أُهبة الاستعداد للإستيلاء عليه ليرميهم به لو لم يكر الفقيد كَرَّتَهُ ، التي كان من ثمرتهـا أَن حرم

العدوُّ من استعمال ذلك المدفع ، والاستفادة منه ، وهذا المدفع هو لقوم الفقيد الذين كانوا منهزمين عنه .

والشاهد هنا ، هو أَن تلك الكلمة التي اعتبرها محور هذه الحادثة ومفتاح سرها ، فان مصدرها (متعب العجرش) الذي كان أَحد الشجعان الفارّين سابقاً ، والكارِّين عندما صاح الفقيد ناخياً (أَهْلَ الْعوجَا) في تلك اللحظة قال العجرش ـ وهو في مقدمة الكارين : (قتلتنا يا فهد بن سعد في نخوتك لنا بالعوجا ، عوّج الله رقبتك) .



الشجاعة بين الطبع والتصنع

كان أَول مرة تنطلق من يدي رصاصة على بني الانسان في سنة ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م).

وأَحمد الله أَن هذه الرصاصة لم تنطلق مني إلا على اليهود، كما أَحمد الله مرة ثانية أَن رصاصتي هذه لم تنطلق على اليهود وهم عُزَّلٌ مسالمون، بل غزاة معتدون سفاكون ظالمون لشعب آمن، قتلوا رجاله وأَيتموا أَطفاله وشتتوا شيوخه ونساءَه.

لا أَدّعِي لنفسي أَنني خضت في تلك الحرب معركة من نوع المعارك التي لا تنتهي بين مقاتلي الجانبين إلا بعد أَن تبور مهمة الرصاص ويسكت دويُّه، ومِنْ ثَمَّ يلتحم الجمعانِ فيما بينهم متبادلي السلاح الأَبيض.

والسبب في عدم حضوري معركة كهذه يعود إلى كون (الصهاينة) منذ أَن وجدوا لم يلاقوا رجالا شجعاناً يثبتون أَمامهم إلى أَن يلتحم الفريقان بالسلاح الأَبيض، اللهم إلا في معركة (الكرامة) فقط.

ولما كنت اعتبر تلك الحرب أَول مرة في تاريخ حياتي أَحمل فيها السلاح مقاتلاً ، فقد أَخذت فيها ومنها خبرة وتجربة أَكاد أَكون صفر اليدين من هذه الخبرة وتلك التجربة فيما لو لم تُتَح لي هذه الفرصة ، التي مكنتني من أَن اتحدث عما مارسته وعشته في تلك الحرب الفاشلة .

وقد شرحت ذكرياتي هذه عن تلك الحرب شرحاً مفصلا ، وواضحاً في كتابي « من الطفولة إلى الكهولة » ذلك الكتاب الذي لم تسمح لي الظروف بإِبرازه إلى حيز الوجود .

وإِذا كنت سوف أَسترسل في حديثي عن قسم مما عشته في تلك الحرب ، فإِن السبب المباشر لذلك يعود إلى أَن سلسلة الحديث المتصلة بالتعبير عن شجاعة الفقيد ، هي وحدها التي قادتني ، وأَوحت إِليَّ بالمادة التي أَقدمها للقاريء ، كصورة حية تعبر أَوضح التعبير عن شجاعة الارتجال ، التي أَبداها شابٌّ من

رفاقي كان يتدفق حماسة ، وذلك في أول معركة باشرناهـا .

وإنه ليطيب لي بأن أورد قصة ذلك الشاب كشاهد عيان على الوجه الآتي :

كنت مرابطاً ورفاقي في قرية تقع شمال فلسطين – جنوب لبنان فيما يسمى (لواء الجليل) وتدعى هذه القرية الكائنة فوق ربوة مرتفعة (سعسع).

وفي أحد الأيام التي قضيتها مرابطاً في تلك القرية ، سمعت لعلعلة الرصاص عند رفاقي ، وكنت ساعتهـا ذاهباً فوق صهوة جواد لأهـل القرية ، لآتي بشبَّانٍ مسلحين من القرى المجاورة لقرية (سعسع) وحينمـا سمعت دويَّ الرصاص عند رفاقي ، همزت الجواد مسرعاً ، لأصل إليهم بقدر مـا أمكنني من السرعة ، وعندما وصلت إلى أول مباني القرية ، سألت ما الخبر؟ : فجاءني الجواب أن اليهود باشروا الهجوم على القريـة ليحتلوها بصفتهـا مرتفعة من ناحية ، ومن ناحية ثانية مشرفة على رأس الطريق (المسفلت) بين فلسطين

ولبنان ، فلم يسمعني إلا أَن اتجهــت إلى رفاقي فوراً ، فوصلتهم وشاركتهم في مهمتهم التي انتهت بعد قليل بسلام ، وأَمان .

ولشدَّ ما أُعجبت إعجاباً لا مزيد عليها بالشجاعة التي ابداها أَحد رفاقي ، الشاب المدعو (عجاج الزوَّاي) إلى درجة أَنني استصغرت نفسي أَمام ذلك الشاب ، الذي عندما نظرت إليه في تلك اللحظة وجدت كل جارحة من جوارحه انقلبت إلى ما يشبه الأَسد الهائج ، فعينـــاه طغي البياض والحمرة على سوادهمـــا ، وكأَن الشرَرَ يتطاير منهمـــا ، وشَعْر رأْسه الكثِّ متناثِرٌ فوق جبينه ، ووجهه الأَسمر ، وكل شعرة من شعر رأْسه واقفة تهتز كرأْس الرمح ، حتى أَنني من تلك النظرة رفعته إلى رتبة (عريف)

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو : هــل استمر هذا الشاب في شجاعته هذه إلى المدى البعيد ؟! عندما حمي الوطيس ، وبلغ الرفاق المقاتلون من السهر المتوالي ، واستمرار العناء والشدائد درجة لم يثبت معهـــا إلا

النخبــة الأَفذاذ من الأَبطال الحقيقيين ، لا شجعان الارتجال ؟ ...

الجواب على هذا السؤال يأْتي كما يلي :

صدرت إليّ الأَوامر من قائدنا المقدم (أَديب الشيشكلي) بأَن ننتقل من (سعسع) إلى قرية تسمى (قَدَسْ) وعندما وصلت هناك ذهبت إلى القيادة الكائنة في تلك القرية ، فلم أَجد (الشيكشلي) وإنما وجدت نائبه الملازم الأَول (حسين أَبو علي) العراقي الجنسية ، وبعد تبادل التحية قال : بصفتكم غير مدرَّبين سوف أَختار لكم جبهةً لا أَهمية لهــا . فشعرت أَن في كلمته هذه امتهاناً لكرامتنــا واحتقاراً لرجولتنــا كـ (سعوديين) لذلك قلت له : (الجبهــة التي لا أَهمية لهــا عليك أَن تختار لهــا رجالاً لا أَهمية لهم ، أَما نحن فإننــا لم نأْت من أَقصى مشرق البلاد العربية إلا ونحن مستعدون لمواجهة الشدائد والمهمات الكبار فقال متراجعــاً : (الحقيقة أَن الجبهة التي سوف أَضعكم فيهــا هي أَشدُّ الجبهات خطراً وأَهمهــا في جميع هذه المنطقة) .

وهكذا ذهبت ورفاقي وحللنا ذلك الموقع الذي كان فعلا أخطر موقع في تلك الجبهة ، ويكفي دليلاً على شدة خطورته أنه ما من رجال نزلوه إلا رفضوا أن يعودوا له مرة ثانية ، وكان موضع الخطر فيه أنه في مكان منخفض ، يقع أمام قيادة فوجنا من ناحية ، وامام اليهود من ناحية ثانية ، والعدوُّ قريب منا قرباً يجعلنا نسمع عن كَثَبٍ ضجيج جنوده وأَهازيجهم ، وأَعظم خطراً في ذلك الموقع أَنه عندما وقع من الصهاينة علينا هجوم فإن نارهم تصلانا من ناحية الأَمام ، ونار قيادتنا من ناحية الخلف ، وكم من مرة وأُخرى يقع من العدو مناوشات ليلاً فتشتعل الجبهة كلها من رفاقنا الذين في القيادة ، ونكون نحن الهدف من الجانبين.

قضيت ورفاقي في تلك الجبهة الأَمامية خمسة أَيام ، وفي اليوم السادس جاءني أَحد رفاقي المدعو (محمد أَبو قيت) سعودي من مدينة الرَّسِّ في القصيم يقول لي : (إن رفاقي استعدوا بأَن يُضْربوا عن الذهاب

إلى خنادقهم) وكنـــا لا نـذهب لحلول ذلك الموقع إلا ليلا ثم مضي (ابو قيت) وقال: لا تظن أنني أُشارك هؤلاءِ في جبنهم، بـــل سوف أذهب معك، ولن أتزحزح عن مكاني حتى أراك مقتولا أو نؤمر بالانسحاب فقلت: وحتى (عجاج الزواي) رأْيه كرأْي رفاقه ؟!
فقال: ان الخوف والوهن الذي حل بالجنود، والجبن الذي استولى عليهم جميعــاً كان أسبابه عجاج نفسه، الذي خارت قواه، ووهنت عزيمته، حتي انتقلت عدوى جبنه إلى رفاقه.

لم أستطع أن أقبل الكلام الذي نقله إلي (أبو قيت) خاصة ما ذكره عن عجاج، ولذلك ذهبت وجمعت الجنود، ورحت ألقي عليهم كلامــاً طافحاً بالحماس، مؤكداً لهم أن الشجاعة والرجولة والبطولة كل هذه المعاني مصدرها الصبر والمثابرة والجلد، وختمت كلامي هذا المهيج الذي أوجزته الآن وقلت بعد أن دنوت من العريف (عجاج) وربتُّ على كتفه: (ما دام أخو سْهَيَّة) ـ ينتخي عجاج بهذه النخوة ـ

قلت: ما دام أنه ثابت بجانبي بشجاعته المعهودة فإنني لا أُبالي بمن ثبت منكم أَو بمن جَبُن. فأَجابني عجاج قائلاً: ولكن أخو سهية -يقصد نفسه- يقول لك : علي الطلاق أنني لن أذهب عائداً إلى الجبهة ، ولن أتعدَّى مكاني هذا ، كفانا صبراً ومثابرة عدة ليالي لم نذق فيها لذة النوم !! .

وعند ذلك ذكرت البيت :

إذا الكروب أقبلت ولم تقف
هناك أَخْلاَقُ الرِّجَال تَنْكَشِفْ .

ولا يسعني الآن إلاّ أن أقول: أَترى لو لم تزدد الشدائد ويمتد علينا النصب أَما كنت استمر منخدعاً بشجاعة (عجاج الزواي) شجاع الارتجال ؟! أَو أَليس الامر بمنتهى التدليس عندما يطلق على شجاع الارتجال لقب الشجاعة نفسها ، التي قام بها الفقيد بهجوم معاكس ، وشجاعة كهذه لا يقوم بها إلا الأَبطال الافذاذ النوادر ، كالفقيد البطل ، غفر الله له ولكل شهم شجاع من نمطه .

صبر الفقيد على احتمال الأذى

حينما اسهبت في ذكري لحادثة ذلك الشاب شجاع الارتجال ، فإن السبب الداعي إلى ذلك يعود إلى كوني ذكرت في مقدمة هذا الفصل أن الشجاعة متعددة الجوانب والمعاني وإن أدنى مراحلها وأخفها وَزَناً هي شجاعة اللحظات والارتجال ، السالف ذكر صاحبها ، كما أكدت بوضوح أن قمة الشجاعة وذروتها ليس إلا شجاعة الثبات والجلد ، والصبر على احتمال المشاقِّ والأَذى ، وصنْوُهَا شجاعة الكرَّةِ بعد الفِرار ، تلك التي مر بنا ذكر دور الفقيد فيها .

وما عليّ الآن إلا أَن أَذكر شيئاً عن شجاعة الفقيد وجلده وثباته وصبره على احتمال المشاق والأَذى .

سوف يجد القاريءُ عنواناً لأَحد الفصول القادمة جاءَ كما يلي (بداية الخبر المشؤوم). وهذا العنوان مستوحى مما حواه ذلك المعنى ، الذي بمجرّد

ما نقل إليّ الراوي أَنه رأَى الفقيد يشكو من مرض يتلّوى منه إلى آخره ، أَدركت للوهلة الاولى أَنه يستحيل على الفقيد ، الرابط الجأْشْ أَن يبدو منه جزع يضطره إلى أَن يَصْدر منه أَقلُّ إشارة تعبِّر عن الشكوى ، وعدم الثبات والجلد ، إلا أَن يكون الأَلم الذي يحسُّ به والمرض الذي يعاني وطأَته ووخزه ، مرضاً فوق احتمال طاقة الانسان ، أَو أَنه يكون مرض الموت .

وهكذا وقع ما كنت أَخشاه ـ أَي أَن المرض الذي يعاني طعناته كان مرض الموت ـ بصورة ينسب عنه بأَنه يقول لأَطبائه : أَشعر كأَن خنجراً تغرس بأَمعائي ، وأَحياناً يقال إنه عندما كان في حائل ، يجده مرافقه واقعاً على الأَرض ، مُغْمًى عليه ، وواضعاً في فيه شيئاً يحول دون أَية كلمة ينطق بها ، تعبر عن الشكوى أَو الاستعانة بمرافقه ، الذي لا تبعد غرفة نومه عنه .

وأَعظم دليل يعبر أَصدق التعبير عما يتمتع به الفقيد الشجاع من جلد وقوة بأْس ، ما نقله مرافقوه عندما كان يعاني سكرات الموت في (المستشفى العسكري)

في (واشنطن) يؤكد كل من مرافقه عبيد الله ، وابنه بندر أَن الفقيد في نفس الليلة التي يحتضر فيها والتي يعاني فيهـا سكرات الموت ،كان يتحدث مع الجالسين– كعادته– ويزيدني المرافقان تـأْكيداً بـأَنه يحضّ ابنه بندراً على أَن يذهب إِلى مضجعه رأْفة به .

كان الفقيد يتحدث لابنه هذا الحديث مبدياً ، له أَنه بصحة حسنة ، بدون أَن يبدو منه أَقل إِشارة يؤخذ منها أَنه بعد لحظات سوف يلاقي ربـه ، تاركاً هذه الدنيا الفانية .

ويؤكد مرافقوه ايضاً أَنهم سمعوا من أَطباءِ المستشفى الذي توفي فيه الفقيد قولهم : «إِن هذا المستشفى عسكريٌّ ، وأَنه سبق ان دخله عدد لا حصر له من القادة العسكريين ، الذين عرف عنهم الشجاعة والجلد ، ومع ذلك يؤكد الأَطباءُ أَنهم لا يذكرون أَن شخصاً من أُولئك القادة الشجعان أُصيب بمرض كمرض الفقيد ، ومع ذلك ظل يتحلى بالصبر والجلد والثبات الذي كان يتحلى به الفقيد البطل .

حينمـــا كنت في (باريس) أثناءَ زيارتي للفقيد اذكر أنني قلت له : ما كان لي أن آتي إلى (باريس) التي لم أفكر أن أزورها في حياتي لو لم ينقـــل إليَّ الأخ الخليفي أنك كنت تتلوى من شدة المرض الذي ألمَّ بك ، ثم مضيت وقلت : إن هناك شخصاً لا يعرفك إلا سماعاً أراد أن يثني عزيمتي عن السفر إليك عندما قال العبارات الآتية : «لا تخف على صحة فهد إلى هذا الحد ، فهو أمير ، وعادة أن ذوي النعمة يضجرون من أدنى ألم يحسون به» الخ ...

عندما سمع مني الفقيد الكلمة التي نقلتهـــا له عن ذلك الشخص ، وأسمعته جوابي للشخص نفسه ، الذي أوردته آنفـــاً في المكان المناسب ، هناك أومأ برأسه ـ غفر الله له ـ ثم أراد أن يتكلم ولكنه سكت عند العبارة الآتية : قل له ... لم يكمل الفقيد بقية ما في نفسه من الحديث ، الذي أعتقد جازماً أن كتمانه لحديثه هو قسم من صبره وجلده ، لأن الكلمة التي نطق بها ، والتي اختصرهـــا بعد (قل له) توحي ولا شك أنه لو

استمر في حديثه لما وسعه إلا أن يشرح -بوضوح- شدة الألم الذي يعانيه، ويحرمه النوم، ولكنه كما ذكرت، سكت مدركاً أن شرحه للألم يعبر بمفهومه عن الشكوى التي يتحاشاها، مفضلاً الثبات على الضجر، والجلد على الجزع، والصبر على أية إشارة تدل على الشكوى، حتى ولو كان مجرد الحديث عما يقلقه، ويعانيه من الآلام الشديدة، فهو أمر لم يقبله، كما هي شيمة الصناديد الشجعان.

اللهم اغفر للفقيد الصنديد، واسكنه جنة الخلد، التي بشرت بها عبادك الصابرين.

* * *

الفصل العاشر

سخاء الفقيد الأصيل



قبل أَن أُورد الأَدلة الناصعة الدالة على سخاءِ المغفور له ، و كرمه ، ذللك الكرم الأَصيل المنبثق من نفس كريمة ، فطرت على السخاءِ ، وجبلت عليه ، حتى أَصبح لها غذاء كالماءِ والطعام ، قبل ذللك يطيب لي أَن أُؤكد أَنَّ ما يقال عن الشجاعة بأَنها متعددة النواحي ومتباينة المعاني – كما اسلفت ذلك – جدير أَن يقال عن السخاءِ والكرم ، بصورة قد تكون شاملة لعدد من المعاني والأَوصاف أَوفي من الاولى – لأَن القدرة على التمويه والتضليل في انتحال شهرة الكرم أَوفر حظاً ، وأَسهل سبيلا من الوصول إلى شهرة الشجاعة .

فخذ مثلاً عن السخاءِ السياسي ، او سخاءِ الرشوة المقدمة ، فالأَول يقوم به فاعله ليحقق به هدفاً سياسياً وإذا وصل إلى ما يريد عاد الى سجيته البعيدة عن الأَخلاق الكريمة ، والثاني يصدر من المسرف بالتدليس

والتضليل ، يقوم به هذا النوع من البشر لصاحب منزلة مرموقة ، واذا أُبْعد عن منصبه فإن كريم النفاق والتزوير سوف لا يخجل من أَن يبخل عليه بتأْدية التحية .

واذا كنت ضربت بالفصل الذي قبل هذا مثلاً يعبر أَوضح التعابير عن شجاع اللحظات والارتجال فانني سوف أُورد مثلاً عن شخص بلغ الذروة في شهرة الكرم والسخاءِ ، علما بان سخاءه وكرمه صورة واضحة المعالم عن كرماءِ النفاق والتضليل ، وهذه ـ الصورة وإن لم اكن فيها شاهد عيان ـ كالأُولَى اعني شجاعة اللحظات والارتجال ـ فإنني أَرويها عن شخص ثقة لا يرقى شك عندي في صدقه بل وصاحب منصب مرموق في الدولة لا زال يشغله حتى الآن في بلادنا المملكة العربية السعودية .

وقد جاءَت قِصَّةُ كريمِ التضليل مع ذلك الشخص على الوجه الذي أَنقله عن الراوي نفسه ، بجوهرها ومعانيها كما يلي : يقول الراوي : عندما أُبْعِدْتُ عن

منصبي ، بصورة فورية مرتجلة ، لم يسعني إلا أَن غادرت بلادي حالاً ، وذهبت إلى بلاد اخرى ، وحالما وصلت هذا البلد جاءَني (فلان) الذائع الصيت والشهرة بكرمه المختلق وطلب مني بإلحاح كعادته بأَن أُلَبِّي دعوته ، فلم يسعني إلا أَن استجيب له ، معتبرا أَن دعوته هذه فيها وفاء ومروءَة ، أَوفر نصيباً من دعواته السابقة التي كان يقيم فيها الولائم لي ، عندما كنت على رأَس عملي ، ويمضي الراوي قائلاً : ولكن سرعان ما أَدركت خطأً ظني هذا ، وذلك أَن هذا الكريم المزيف مجرد أَن علم أَنني مبعد عن منصبي بعث إلي يعتذر عن الدعوة ... ويضيف صديقي الراوي قوله : وما إن عدت الى أَريكة السلطة بمنزلة أَعلى من الأُولى حتى جاءَ هذا السخي ... يدعوني بشفقة وأَريحية وإلحاح بدون خجل ولا وقار .

عندما روى لي صديقي هذه القصة الحية التي قد يكون رواها لأَكثر من واحد من اصدقائه ، حينئذ عدت بذاكرتي الى الحكمة التي أَنشدها المتنبي بقوله:

وللنَّفْسِ أَخْلاَقٌ تَدُل على الْفَتى
أَكانَ سخاءً ما أتى أم تَساخِيا

ولا يسعني الآن إلا أن أقول : ما أقبح صور التضليل والتدليس ، عندما يُنْعَتُ بالسخاءِ والكرم منافقٌ مضللٌ كهذا الانسان ، بنفس النعت الذي يوصف به كريم فاضل كـ (فهد بن سعد) ذلك الصنديد ، السخي بماله ، والكريم بجاهه وأخلاقه ، كرماً وسخاءً وشهامة أبعد ما تكون عن التصنع او التضليل ، ليس لأنه لم يكن بحاجة إلى ذلك فحسب ، بل لأن نفسه الكريمة تتلذذ بالجود والسخاء ، كما يتلذذ الظمآن بالماءِ الزلال ، تلك النفس السمحة المطمئنة ، التي أرجو أن تكون من النفوس التي وصف الله تعالى أمثالها بقوله جل شأنه : (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّة ، ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً ، فادخلي في عبادي وَادْخِلِي جَنَّتِي) ، اللهم أدخله في زمرة عبادك الصالحين .



الشيءُ الذي لا جدال فيه ، ولا يختلف به اثنان هو أَن السخاء بالنسبة للفقيد يعتبر من أَبرز سجاياه الفاضلة ، بل خلق ملازم له ، كملازمة روحه لجسده ، وهذا مما يجعل الكتابة عنه في هذا المجال أَوفر نصيباً من غيرها .

وإنما المشكلة هي أَنَّ الكتابة عن سجيته هذه بصورة شاملة كاملة تحتاج إلى أَن يكون الكاتب ملازماً له منذ نعومة أَظفاره إلى أَن لقي الفقيد ربه ، وإذا كان الحظُّ لم يسعدني بملازمته المباشرة ، التي تمكنني من الإحاطة بكل ما جادت به أَريحة الفقيد بشكل واضح مفصل ؛ فإن ذلك لا يمنعني من تطبيق المثل العربي القائل «ما لا يُدْركُ كُلُّهُ لا يُتْرَكُ كُلُّه» .

وانطلاقا من هذا المثل ، وتطبيقا له ، يسعدني بأَن أَذكر ما استطعت الوصول إليه ، محددا ذلك ، وحاصراً له في ناحيتين : الاولى التي أَجدني بها شاهد عيان ،

حيث غمرني الفقيد الكريم بفضله ، حتى أَصبح معروفه طوقاً في عنقي ، لا يمكن أَن أَنساه ما دمت حيّاً . ولعل هذا المعروف وذلك الفضـــل همـــا اللذان حفزاني على تخليد مكارمه في هذا الكتاب ، راجيا أَن أُوفق ببعض ما يمليه علي الواجب نحو ذلك الجواد المتفضل .

أَما الامر الثاني فهو ما رواه لي المواطنون الثقات الذين حباهم الفقيد بفضله ، أَو الذين ينقلون الرواية لي عن أُولئك .

وإليك الإشارة إلى قصة الأَمر الاول ، تلك التي يقودني الحديث عنها ، إلى ذكر طرف موجز عما عانيته من تعاسة وكَبَدٍ كان لسخاءِ الفقيد وفضلـــه أَكبر الأَثر الفعال في تمزيق تلك التعاسة ، وسحق ذلك الْكَبَد ، وقد جاءَت تلك القصة على الوجه الآتي :

صدر الأَمر من موحـــد جزيرة العرب ، الملك عبد العزيز ـ قدس الله روحه ـ بتعييني ملحقاً في سفارته في (دمشق) .

وقد ظننت وَهْماً بعد صدور هذا الأَمر الملكي الذي لم يَبْدُ مني أَية إشارة تعبر عن طلبي لهذه الوظيفة ، اللهم إلا أَن خبرتي التي قضيتها إبان حرب فلسطين ١٩٤٨ في سورية دعت ولاة الأَمر إلى الرغبة في تعييني في تلك الوظيفة .

أَقول : ظننت خطأً أَن ما لقيته في حياتي التعسة من غربة وتشريد ومشاق ، الله أَعلم بها ، تصورت أَن ذلك كله وَلَّى وانزاح عن كاهلي إلى غير رجعة ، ولذلك ذهبت وأَحضرت عائلتي من المملكة الى دمشق ، التي أَصبحت مقر عملي .

ولكن ظني بسعادتي الموهومة تفتت على صخرة الواقع ، بسبب وجود أَولاد الحلال وهم (الوشاة الفاسدون) و (المفسدون) الذين لا يخلو وطننا العربي من وجودهم في كل زمان ومكان – مع الأَسف !! .

لقد سعى أُولئك المفسدون الذين أَجدني دائما هدفاً لأَسهمهم التي ينوون بها قتلي ، وهي أَسهم وإن كانت ماضية قتَّالةً إلا أَنه لم يصبني منها – بحمد الله – إلا

رذاذ يخلق في نفسي مناعة ، وقوة على مصارعتهم ، مدحورين ، ظافراً بحقي ، وافراً غير منقوص .

أَجل سعى أَولئك الوشاة ـ من عندهم وإِليهم ـ بشتَّى الوسائل والأَسباب التي تمكنوا بها من قطع راتبي ، وتنحيتي عن وظيفتي مدة بلغت اربع سنوات ، قضيتها مع هؤلاءِ (الزبانية) بصراع وَكَرٍّ لم يكن فيه مني استسلام ولا هوان قط ، إِلى أَن استعدت رتبتي وراتبي الموقوف خلال أَربع سنوات ـ استوفيته كاملاً غير منقوص .

وهكذا نصرني الله على أُولئك المفسدون الأَولين ، كما نصرني تعالى على أَمثالهم الوشاة الآخرين ، الذين اصطدمت بهم في عهد الملك (سعود) رحمه الله .

والفضل في انتصاري على هؤلاءِ وأُولئك يعود كله ـ بعد الله ـ لعقل وعدل وانصاف (الفيصل العظيم) ذلك الملك العبقري الفذ ، الذي قلت عنه في عدة مناسبات منها ما هو شفهي ، ومنها ما هو كتابيّ ـ قلت : (إِن أَحمق الرجال وأَسخفهم من يحاول أَن يتظاهر للفيصل

بغير الحقيقة ، وأَجبنهم من يعرف الحقيقة ولا يصارحه بها) .

لاأُريد أَن أَمضي في سرد الحديث عما قام به أُولئك الوشاة نحوي ، فذلك موضوع شرحه يطول وتفاصيله ، ولهذا لا أَرى داعيا لذكره هنا ، ولا سيما وهو محفوظ عندي ، ومسجل في كتابي «من الطفولة الى الكهولة» ذلك الكتاب الذي أَحصيت فيه كل ما وَعَتْهُ ذاكرتي وأَدركته من العلم به ، سواءً ما هو لي ، أَو ما هو علي ،وسيظل هذا الكتاب مُسَوَّداً مكتوبا بالآلة الكاتبة ، إلى أَن يشاءَ الله إطلاق أَسره .

أَما الشيءُ الذي أَراني في صدد الحديث عنه ، فهو أَنني عانيت في بداية الفترة التي أُبعدت فيها عن وظيفتي واوقف فيها راتبي ، عانيت من فراغ ذات اليد القدر الوافر ، الذي كدر صفو عيشي .

ويكفي دليلاً ناصع البياض على صحة ما أُشير إليه شدة الإملاق ، والضائقة المالية اللذين عشتهما بمرارة ، هو الكلام الذي كان جواباً مني لصاحب البيت المبني

بالطين الذي استأجرته منه في حي (الميدان) الشعبي ، وهو محمد الفهد النُّجَيْدي الذي عندما قبض مني أَجرة السنة لبيته قال العبارات المأْلوفة التي يقولها المالك للمستأْجر بمناسبة كتلك وهي الآتي نصهـا الحرفي : (إن شاءَ الله تدفع قيمة هذا البيت ملكاً لا اجاراً) .

ولما كنت لم أَدفع أَجرة ذلك البيت الشعبي المتواضع المتداعي إلا بعد كل مشقة ، بسبب الضائقة المالية التي أَعيشها فقد أَجبت الأَخ النجيدي قائلاً : (ماذا تعني يا رجل ؟ أَيمكن أَن يكون لي بيت ملك في الدنيا عدا شبر من الأَرض الذي أَقبر فيه) ؟!

قلت هذه الجملة وأَنا اعني ما أَقصد ،قلتها وقلبي يأْكله الهم والغم عندما أُفكر في الحصول على دفع أُجرة السنة المقبلة .

هذا وقد تركت عائلتي واطفالي في (دمشق) وذهبت إلى (جدة) ولم يكن أَمامي أَملٌ في استرداد حقي ، وانتصاري على أُولئك الوشاة سوى العاملين الآتي بيانهما:

أولاً -: قوة الإرادة التي استلهمها من إيماني بالله ، ذلك الايمان الراسخ الوطيد بعدله تعالى ، مؤمناً إيماناً لا حدود له به - جل شأنه - بأن المرء إذا وثق بنفسه أنه على حق فعليه ألاَّ تخور عزيمته أمام المخلوق الفاني ، مهما بلغ من سمو المنزلة وعلو الجاه ، وبهرجة السلطة ، خاصة إذا كان هذا المخلوق ظالما .

ثانياً -: ثقتي بعدل وعقل وإنصاف الفيصل العظيم .



إلى هنا وصلت في الحديث عن كرم الفقيد

حينما وصلت مدينة (جدة) كان الفقيد الفاضل موجودا فيها لحسن الحظ، وكنت أَجد في ذهابي إليه، وفي منادمته مجالاً فسيحاً للمعنى الذي أَشرت اليه في أَحد أَبيات القصيدة التي رثيته بها :

مَرْحُوْم ياللِّي ليْ عَضِيْدٍ معَزِّيْنْ
يَا مْزِيلْ عَنِّي كُلِّ هَمّ وكَرِيبَه

أَجل !! كنت أَجد في منادمة الفقيد اللبيب السلوى، التي ينشرح لها صدري، كما أَجد الاطمئنان والعزاءَ اللذين ينسياني كل مشكلات الحياة وأَشجانها، وكنت لا أَكتم عنه أَيَّ شيءٍ يدور في نفسي. وكنت أَشعر عندما آتي إليه بأَنني أُنادم عربياً أَصيلاً سمحاً وديعاً، ليس ذلك فحسب، بل أَخاً وفيًّا يقاسمني همومي، ويزيح عن كاهلي ما ينغص علي حياتي من القلق والأَرق اللذين أُعانيهما.

وفي إحدى المناسبات التي انتهيت فيها من حديثي معه الذي لا أذكره الآن . وكل الذي أتصوره أنه حديث يتناول الأدب ، أو من الحديث ذي الصلة بذكر حادثة «من شيم العرب» التي لم يتحدث كتابي عنها بعد .

وما أن انتهيت من حديثي هذا العابر ، الذي كان يصغي له بكل حواسه كعادته لأي شخص يتحدث معه في أيٍّ موضوع كان ، حتى نهض من مكانه وأشار إلي بأن أركب معه ، كما أشار لصديق العمر الاخ صالح الفريجان - رحمه الله - بأن يركب معه حيث كان وقتها موجودا .

وقد امتطى سيارته راكبا في مقدمتها ، وصالح وأنا خلفه ، فأمر قائد السيارة بأن يتجه شمالاً ، فذهبت السيارة تقطع بنا شوارع جدة المسفلتة لا ندري أين الجهة التي يقصد الاتجاه إليها ، حتى أمر قائد السيارة بان يقف في محلة تسمى بـ (الشرفية) وكان موقف السيارة في أرض فسيحة ، يحيط بها العمران من عدة جوانب ، وعندما ترجل من السيارة

انحرف نحوي وقال : سوف أَبعث معك غداً رسولاً لتذهب وهو إلى كاتب العدل ليسجل هذه الأَرض باسمك .

ما أَكبر لذة هبة كهذه ، إذا جاءت بدون سؤال يدفع الإنسان ثمنه من كرامته وإبائه وشممه !! ولا عجب فيما إذا شعرت ساعتذاك بِعَبْرَةٍ أَذهلتني ، وأَخرست لساني ، حتى عن توجيه الشكر له ، عَبْرَة لا يقل أَثرها عن العَبرة التي أَعاني وطأَتها الآن ، وأَنا اكتب عن هذه الأَريحية ، ولئن كانت العبرة الاولى أَخرست لساني عن النطق بالشكر للنبيل ، حتى أَنَّ الأَخ صالح الفريجان قبل يده الكريمة نيابة عني حينما رآني مذهولاً ، فإن هذه العبرة التي أُعانيها الآن استولت على كياني من هامتي إلى أَخمص قدمي ، بصورة انشلَّت منها يدي فترة عن مواصلة الكتابة ، وانهمرت عيناي بالدموع ، مستجيبة ومتفاعلة مع البيت الثامن والعشرين من القصيدة التي قلت فيها مخاطبا مقلتي :

إبْكِيْ فَهْد إبْكِيَهْ حِينٍ بـأَثَرْ حِينْ

إبكِيْ سْنَادِيْ بَالَّليالِي العَصِيْبَهْ

لقد انفرجت الأَزمة ، وتحطمت أَسوارها بمعونة الله ثم بنجدة الفقيد ، ولذلك عدت مسر عا إلى (دمشق) وبعت الأَرض على السفير (عبد العزيز بن زيد) واشتريت بقيمة الأَرض بيتين متجاورين في حي (الصالحية) التي تعتبر قلب مدينة دمشق ، اشتريتهما بثمن يقل عن قيمة الأَرض وسكنتهما ثمانية عشر عاما .

وفي هذه الأَيام التي أَكتب فيها هذا قررت حكومة سورية بأَن تشق طريقاً يتوسط قلب البيتين مما جعل الحكومة تضطر الى استملاكهما فَقُدِّر لي ثمنهما اكثر مما كنت أَتصوره ، وقد دفعت الحكومة ثمن منزلي فوراً قبضته كاملاً ، وأَضفت قليلاً إليه ، ومن ثم اشتريت منزلاً هو قصر رئيس حكومة سوريةسابقاً الاستاذ (صبري العسلي) الكائن بقرب القصر الجمهوري في حي (المهاجرين) الذي يعتبر أَحسن واجمل مناخ صحي في عاصمة أُمية . أَما الارض التي وهبني إياها الفقيد فقد باعها ورثة المرحوم ابن زيد بمبلغ يزيد عن مئتي الف ريال .

مِن أريحيات الفقيد نحوي

جاءني شخص يعمل في إحدى دوائر الدولة ، ذات الصلة بالمباحث والاستخبارات السرية عندنا . جاء ينذرني مؤكدا أنه رأى اسمي موضوعاً ضمن أسماء الذين لا يُطْمَأَنُّ إليهم ، وهذا الشخص لا يرقى الشك في صدقه واخلاصه لي ، لأنه من رفاق السلاح في حربنا ضد اليهود في فلسطين عام ١٩٤٨ .

هذه الكلمة التي نقلها لي رفيق السلاح ، جعلتني أَشك أَن هناك شبهة تدور حولي لدى المسؤولين ، ثم انتقل هذا الشكُّ عندي إلى ما يشبه اليقين ، عندما اسمعني الصديق الأَخ عبد الرحمن الحميدي الجملة الآتية :

(كنت أَتوقع بين لحظة واُخرى أن اسمع صوتك تذيع من محطة صوت العرب) .

لقد أَدركت ما يعنيه الأَخ الحميدي بكلامه هذا ،

فهو يعني أَنني على استعداد بأَن أَنضم إلى أُولئك السعوديين الذين التجأُوا الى القاهرة ، وراحوا يذيعون عبارات قاسية ضد حكام بلادهم .

عندما اسمعني الحميدي هذه الجملة ذات الاتِّهام العنيف ، قلت له جواباً عليها كلاماً لا زلت أَذكره به أَحيانا عندما يتطرق الحديث في بعض المناسبات الى ذكر ذلك قلت الكلام الآتي: كنت أَظن يا أَخ عبد الرحمن أَنك تعرف أَخلاقي معرفة جيدة أَكثر من ذلك ، وإلا كيف يخطر لك ببال ، وأَنت الرجل الذي اعتقد فيلك الذكاء ، وبيني وبينك معاشرة تمكنك من أَن تعرف سجيتي ، وخلقي الذي يجعلني أَربأُ بنفسي بأَن أَتمتع بنعيم حكام بلادي ، وأَرفل بخيراتهم في أَيام أَمنهم واطمئنانهم ، ثم أَذهب أحاربهم وأَشنع بهم في أَيام محنتهم ؟! ثم مضيت وقلت : أَلا تعلم أَنني مصمم في قرارة نفسي بأَن لا محيص لي قطعياً من أَن أَربط مصيري بمصيرهم مهما كانت النتيجة ؟!

ولما كنت ـ ولا زلت ـ ممن تكدر على فصل سورية

عن القاهرة كعربي ومسلم أَودُّ من صميم قلبي أَن أَرى أُمتي متحدة ، واثقاً من نتائج ذلك الإِنفصال الوخيم على أُمة العرب ، مؤمناً أَن لو لم يكن ذلك الانفصال لما ربحت اسرائيل في ١٩٦٧ تلك المعركة على الشكل المحزن ، الذي تم به لها النصر بكل سهولة ، فقد جلب لي تكدري وانفعالي وندمي المحسوس الملموس اتهامي في اخلاصي لحكام بلادي ، إلا أَن هذا الاتهام لحسن الحظ لم يكن له أَصل لدى الفيصل العظيم ، ولا عند أَي واحد من المسؤولين الذين يرون الفيصل نبراسا يقتدون به ، وإنما جاءني ذلك الاتهام من أُولئك الوشاة المنافقين ، الذين يتصورون أَن إخلاص المواطن لامته العربية يتنافى مع إخلا صه لوطنه وحكامه.

ويفوت الانتباه هؤلاءِ المنافقين ، الذين لا ضمير لهم ، ولا هدف لهم إلا الحصول على المال او الجاه ، اللذين يستحوذون عليهما مقابل افترائهم على المواطنين المخلصين بأَية وسيلة كانت ، يفوتهم أَن من يخلص ويغار على وطنه العربي الشامل ، جديرٌ أَن يغار بل

ويتفانى في اخلاصه على وطنه الأُم ، أَي على بلاده وحكام بلاده .

وبعبارة أَوضح : من يعطف ويغار على أَبناءِ عمه حَرِيٌّ به أَن يغار على والديه ، ويتفانى في بِرِهِ بهم واخلاصه لهم ، ولكن هذا المنطق لا يعرفه الوشاة المنافقون ، ومما جعل المجال نحوي فسيحا لاتهام هؤلاءِ المضللين هو أَنني لا أُخفي سرا يخالف حقيقته ظاهري وهذه الظاهرة سبق أَن أَعلنتها في بيت جاءَ ضمن قصيدة أَنشدتها منذ حوالي عشرين عاما وهو البيت الآتي :

سِرِّي كمَا جَهرِي صَرِيحٍ وَمَشْهُور
مانِي مْنَافِقْ تَحْتْ سِرِّيْ سْتَـارَا

ومن تبادل خواطر الشعراءِ هو أَنني بعد أَن أَنشدت تلك القصيدة التي فيها هذا البيت سمعت معني مماثلاً له في البيت الآتي :

فَسِرِّي كَإِعْلانيْ وتِلْكَ خَلِيْقَتيْ
وَظُلْمَةُ لَيْليْ مِثْلُ ضَوْءِ نَهَاريْ

والشاهد هنا هو أَن إِعلان ما أَعتقده وأُومن به هذا الخلق عندي جهز الوشاة بسلاح ماضٍ في مقاومتي

فخذ مثالاً على ذلك الحادثة الآتية :

عندما كانت المحادثات الثلاثية تدور في القاهرة بين عبد الناصر من جهة والبعث السوري والبعث العراقي من جهة ثانية ، وذلك في سنة ١٩٦٣ في تلك الفترة بالذات وجه اليَّ امير شابٌّ من أَبناءِ الملك عبد العزيز السؤال التالي :أَتودُّ أَن تتم الوحدة الثلاثية؟ فقلت : نعم أَودُّ ذلك !! فقال مرة ثانية : أَتود أَن تتم الوحدة على يد عبد الناصر ؟ ..فقلت: نعم لأَن عبد الناصر شخص لن يطول أَجله أَكثر من سنوات محدودة (كأَن القضاءَ يخبرني بذلك) أَما الوحدة فإِنها آمال أَبنائنا وأَحفادنا ، ولا يمكن أَن يتم لإِسرائيل وجود إلا بعدم وحدتنا . فقال الامير الشاب : ولكنني أُؤكد لك من الآن بأَن الوحدة لن تتم على يده .

وكان ذلك السؤال من الأَمير والجواب مني في الفترة التي كانت حرب اليمن قائمة على قدم وساق ، وفي الوقت الذي كانت قنابل عبد الناصر تضرب القرى والمدن في جنوب بلادنا السعودية . ولم يكن هذا الحديث سرّاً بين الأَمير وبيني ، بل كان في نادٍ

فيه عدد من الرجال لا يقل عن العشرة ، وصاحب النادي لا زال حيا يرزق .

والواقع أَن أَسهم الوشاة صُوِّبَتْ نحوي في تلك الفترة ، حتى أَنني أَذكر أَن شخصاً وقتها من أَصدقائي ، قال لي ناصحاً : إِنني أَخاف عليك يا فلان ان ينالك أَذى من الحكومة . فقلت : خَفْ على الرجل الذي يضمر لحكامنا العداوة سرّاً ، ويبدي لهم ظاهراً نفاقاً وتملقاً خلاف ما يبطنه ، أَما أَنا فإِن حكامنا سوف لا يجدون عندي سِرّاً يخالف ما أَظهره لهم من صدق واخلاص .

والشيءُ الذي لا أَستطيع جحوده هو أَنني عندما أَخلو بنفسي ، ومن ثم أَجمع كلمة صديقي الذي نصحني تلك النصيحة التي لم تكن الاولى من نوعها بل جاءَني أَكثر من صديق ينصحني بعبارات مشابهة لما قاله ذلك الصديق ، ثم اضيف إِلى تلك النصائح الإِنذار الذي جاءَني من رفيق السلاح ، كما ازيد على ذلك بالكلام الذي اسمعنيه الاخ الحَمِيديُّ عندئذ

أَجدني مضطراً لأَن آخذ الاحتياطات لنفسي ، ومن هذه الاحتياطات أَنني وجدت أَن لا بُدَّ لي أَن أَسعى من الآن في القيام بعمل يضمن لي ما يغنيني عن الوظيفة ، ولذلك قررت أَن أَستقرض مبلغاً من المال ، لأُضيفه على ما احتفظت به ليوم كهذا اليوم ، ومن ثم اشتري بهذا وذاك عقاراً يكون واردهُ لا يقل عن راتب وظيفتي .

اعتدت عندما أُفكر في أَخذ قرض كهذا بأَن لا أَذهب إلى أَصحاب الأَموال الطائلة ، وإنمـا أَذهب إلى من أَتوقع فيه المروءَة الجمة ، والنجدة الوافرة ، وحتى هذا لا أَذهب إليه بدون تمهيد سابق ، وجسٍّ للنبض .

وعلى هذا الأَساس وقع اختياري على جابر عثرات الكرام الشيخ محمد سرور الصبان ـ رحمه الله وجعل الجنة مأْواه ـ وعلى الصديق الدافق المروءَة ، والوافر الشهامة أَمير الجوف سابقاً الاخ محمد الأَحمـد السديري ، وكان الرد من هذين الكريمين إيجابيّاً ، ولكنني تأَخرت عن تنفيذ رغبتي هذه لأَنه طرأَ لي ما يستوجب سفري من المملكة إلى بيروت .

ظللت في بيروت أياماً فالتقيت - بدون توقُّعٍ - بالاخ بندر بن جبرين ، الذي كان زائراً للبنان ، وقد ألفيته متهيئاً للذهاب إلى المملكة ، فسألني عما إذا كان لي حاجة ، ولما كان بندر صديقاً لكل من محمد سرور ، ولمحمد السديري ، فقد تحدثت معه بما تم من الحديث بيني وبينهما ، وذكرت له الاستجابة التي لقيتها من كليهما ، فقال ابن جبرين : باستطاعتي أن أُؤمن لك طلبك منهما ، فسكتُّ فترة أتأمل فيها الأمر الذي كان من الأساس يدور في ذهني ، وبعد صمتي هذا قلت لابن جبرين : إذا أوصيتك للأمير فهد بن سعد فهل يمكن ان تبلغه ما أُؤمنك إياه من رسالة شفوية ؟ ! فرد علي بالإيجاب . فقلت : انقل له عني العبارات الآتية : إنني بضرورة ماسَّة إلى المال الذي أنوي بأن أقضي به حاجةً لا أستغني عنها ، وإنني أستطيع أن أجد من يقرضني حاجتي هذه ، ولكن المشكلة عندي هي أن أيَّ شخص يقوم نحوي بعملٍ كهذا فإنه سوف يضع في عنقي معروفاً يكون بمثابة الرّقّ كما قالت العرب : المعروف رِقٌّ فاختر لنفسك

من تضع رقّك بين يديه ، وقد أَراد الله أَن يجعلني رقيقاً لمعروفك يا فهد بن سعد ، ولذلك لا أُريد أَن أُوزع رقّي هنا وهناك).

ذهب ابن جبرين من بيروت ، ووصل المملكة بعد أَن حفظ رسالتي الشفهية التي وجد فيها من المعاني ما يلائم ذكاءه ومروءته .

وبعد فترة وجيزة وردت إلي رسالة منه لا أَزال محتفظاً بها إلى الآن يؤكد الاخ ابن جبرين في رسالته بأَنه أَبلغ الفقيد رسالتي بنصها الحرفي. وأَن الردّ من ذلك الكريم السريع النجدة والنخوة كان إيجابياً .

عندما استرسلت في هذه المقدمة ، فإن غايتي من وراء ذلك ليس إلا ما أُريد أَن أُؤكد به بأَنني عندما ذهبت عائداً إلى المملكة ـ وجدت من الفقيد الوافر السخاءِ أَريحية جاءت امتداداً لتلك الهبة السخية السالفة الذكر ، التي أَصبحتْ طوقاً في عنقي ، مضافاً إلى معروفه السابق ، اللهم اغفر له وأَجزل له الثواب وأجزه عني خير الجزاء !!

كنت أخشى أن يجعلها هبة لا قرضاً

الواقع أَن تفكيري في الحصول على ذلك المبلغ واختياري للشخص الذي استدينه منه لم يقع منذ الأَساس إلا على الفقيد ، ولا يمكن أَن أُقدِّم عليه أَحداً في حالة كهذه ،ولكن الذي منعني عن ذلك أَمران الأَمر الأَول –والاهم–: هو خشيتي من أَن المقدار الذي أُحدد طلبه منه سيجعله هبة لا قرضاً– والأَمر الثاني: هو أَنني أَعرف أَن النبيل لا يمكن أَن يكون لديه نقود يحتفظ بهـا لا في حوزته ولا وديعة في احد (البنوك)، ولكنه يستطيع الحصول على ما يريده من أَي مصرف كان ، لأَنه معروف لدى أَصحاب المصارف بالصدق والأَمانة والوفاءِ ، ولذلك لم يكن هذا العامل الثاني له مكانة من الأَهمية كالعامل الأَول.

عدتُ إلى المملكة ، وذهبت لأُسلِّم سلام القدوم على الفقيد – كمـا جرت العادة– وبعد برهة من جلوسي

بعد السلام أَشار إِليّ فجئت إِليه فاقعدني بجانبه ، وقال : ماذا قلت لابن جبرين ؟ ! فذهبت أُعيد العبارة الآنفة الذكر ، فابتسم ونظر إِلي بعينيه الواسعتين ، اللتين يشع منهما الحياءُ والأَدب ، والوقار والهيبة في آن واحد ، وقال : ولماذا لم تخبرني أَنت بحاجتك ؟ ! فتلعثمت عن الجواب خجلاً وهيبة ، ثم استعدت شجاعتي وقلت : لم تَبْدُ لي حاجتي هذه إِلا في الفترة التي كُنْتَ بعيداً عني ، وكان الأَخ ابن جبرين في (بيروت) وعلى وشك أَن يسافر للمملكة ، فوجدتها فرصة أُوصيه بها . فقال : هل أَنت محتاج حاجةً ماسة لا تقبل التأْجيل ، وإِلا لو تأَخرت حاجتك فترة إِلى حين يمكن أَن تصبر ؟ ! ..

قلت : لم يكن عندي من الحاجة ما يدعو إِلى العجلة . فقال : إِنني بعت على حسن الشربتلي ارضاً ولي عليه سند بأَن يدفع قيمتها بعد ثلاثة أَشهر ، فيمكن أَن تصبر إِلى أَن تنتهي هذه المدة حتى أَحولك على الشربتلي لتأْخذ منه هذا المبلغ ؟ فقلت : لم تكن عندي

حاجة ماسة تمنعني من الصبر. فقال: ما دام الأَمر كذلك، فائْتِ إذا جاءَ الوقت المحدد فيه دفع المبلغ إلينا، حتى أُحولك على الشربتلي بالمبلغ.

فذهبت من عند الفقيد، ولم أَعد إليه إلا عندما حان الوقت الذي فيه دفع المبلغ، هناك ذهبت إليه فناولني السند الذي يطلب فيه الشربتلي، ووقع تحته بإمضائه بعد ان قام بتحويل المبلغ باسمي. ولما كان الفقيد في مدينة الرياض، والشربتلي في مدينة جدة، فقد حملت الحوالة، وذهبت إلى الشربتلي، وقدمت إليه السند، فحولني على (البنك الباكستاني) ومن هذا (البنك) قبضت المبلغ، ثم عدت حاملا المبلغ بكامله، ووصلت الرياض صباحاً. فذهبت من المطار إلى منزل الفقيد في حي (الخزّان) فوجدت الأَخ عبيد الله المسؤول عن إدارة البيت فسأَلته عن عمه فقال: إنه موجود، فقلت: أَخبره أَني عدت من جدة، وانهيت مهمتي، فذهب عبيد الله، وعاد إليّ يخبرني أَن عمه يقول: فليأْتني فلان غداً، فسأَلت عبيد الله عما إذا أَخبره بأَنني

جئت منهياً المهمة ، فأَكَّد لي بأَنه أَخبره بذلك ، فاستغربت عدم اهتمامه بهذا المبلغ ، إلا أَن استغرابي هذا تلاشى عندما شاهدت من ذلك النبيل تَصَرُّفَ من ينظر إلى المال كأَنه تراب ، لا أَنه المال الذي يقال عنه (عَصَب الحياة) بل روح الحياة.

وفي الغد جئت إليه واضعاً رزمة الريالات في حقيبتي اليدوية. فأَخبره عبيد الله بحضوري ، فجاءَ إلي ، وبعد تبادل التحية ، بدأَت أَفتح الحقيبة لأُخرج منها المال. فقال: دع الدارهم الآن ، وأَخبرني ما هو القدر الذي تريده؟ فقلت: من تسعين الف ريال فما دونها. فقال: خذ حاجتك منها ، وكان المبلغ يزيد عن مئتي أَلف ريال ، قال هذه الكلمة ثم قام فقلت: إلى أَين تريد أَن تذهب طال عمرك؟! فقال: وهو ممسك عرق الأَراك (المسواك) طرفه بيمينه سأَذهب إلى المسجد لأُصلي - وكان الوقت ظهراً - فقلت: وهذه الدارهم الباقية ماذا أَفعل بها؟! فقال: ارمها فوق أَحد هذه الكراسي - مشيراً إلى الكراسي التي في المجلس

الداخلي ـ فقلت : كيف أترك هذا المبلغ بهذه الصفة ؟!
فقال : وهو ماض في سبيله إلى المسجد بدون أن يلتفت إليَّ : (اتركه) فظللت دقيقة وأنا في حيرة من أمري لا أستطيع أن أترك مبلغاً كهذا المبلغ الذي يزيد عن مئة الف ريال في ذلك القصر الذي يعج بسكانه ، كما لا أستطيع أن أظل في ذلك المجلس الداخلي خشية أن تخرج علي امرأة فتنظر إليّ فتجدني رجلاً لم يكن من سكان البيت ، وأخيراً تركت ذلك المال فوق أحد الكراسي كما قال لي ، تركته بعد أن أخذت منه حاجتي البالغة ثمانين ألف ريال ، وخرجت من منزله مناجياً نفسي بحديث العجب ، بل الإعجاب بهذا الانسان الذي ينظر إلى المال وكأنه تراب ، ينظر اليه نظرة الأمير الذي خلقه الله ليكون أميراً لا بحسبه ونسبه فقط ، بل خلقه أميراً بطبعه وفطرته ، خلقه اميراً بسجيته ، وبأخلاقه ، وبحركاته ، وبسكناته ، وفي نظراته ، وفي ابتساماته ، وفي سخائه وتسامحه وحيائه وعفوه تجاه الضعفاء ، وفي وفائه وفي مروءته

وفي شجاعته وجلده. وفي هيبته ووقاره وإبائه وشممه في المواقف التي تستدعي ذلك.

وفي اليوم التالي عدت إليه أَسأَله : هل وجد المبلغ كاملا كما تركته؟ فرد بالايجاب ،وحتى لو لم يجده فإن رده سيكون إيجابيّاً. ثم سأَلته عمن ادفع له المبلغ الذي لديَّ ، فنظر إلي نظرة سخرية بدون أَن يجيبني ، وإنمـا كانت نظرته إلي مع أَنهـا نظرة سخرية كما ذكرت إلا أَنها كانت نظرةحادَّةً ،ثم أَشاح بوجهه وازْورَّ بجانبه عني بدون أَن يجيبني.

وعندئذ شعرت أَنني وقعت في المحذور الذي كنت أَخشاه ، وقد رأَيت أَن تكرار العبارة مني لا يزيده إلا إصراراً ، ولذلك لم أُحاول تكرار ما قلت ، بل صَمَتُّ فترة أَشحذ فيهـا تفكيري متسائلاً ونفسي عما أَفعل؟ وبأَي أُسلوب من أَساليب الحديث الذي يمكن أَن أَصل به إلى قناعته ، وبعد فترة من الصمت الذي خيّم على الجوّ اتجهت إليه بحركات تنم عن الاستعطاف وقلت : يا طويل العمر إذا كنت تعتقد أَنني استغلالي

ومحتال وأنني أردت بعملي هذا أن أستغل كرمك واحتال على مروءتك ، إذا كنت ـ طال عمرك ـ تراني بهذه العين ، وأردت بعملك هذا أن تتخلص مني إلى الأبد ، وأن يكون عملك هذا هو آخر معروف تسديه إليّ ، فإنك قد وصلت إلى الغاية في ذلك ، لأنني سوف أعتبر هذا المبلغ هو آخر معروف ينالني منك ؟! أما إذا كنت تريد أن أجعل معروفك (منيحة)[1] لا (ذبيحة) وتريدني دائماً وأبداً متى ما عضني الدهر بنابه ، ولجت بابك مستجيراً ـ بعد الله ـ بحماك من غوائل الزمان ، ومستنجداً بك ـ بعد الله ـ من فواجع الأيام ، ومدخراً لك ككنز ألجأُ إليه عندما تداهمني الليالي السُّود ويكفهرُّ لي الدهر بوجهه الشاحب العبوس ، فإنني أرجوك غاية الرجاء أن يظل فضلك لي منيحة ارتوي من درها متي ما ظمئت ، واتغذّى من ضرعها حينما أجوع ، ثم مضيت وقلت : ولا يتم لي ذلك إلا بعد

---

(١) مثل شعبي شائع ويقال في مناسبة كهذه و (المنيحة) هي الشاة الحلوب التي تشترى من اجل الاستفادة من لبنها واما الذبيحة فهي الشاة أو الخروف الذي يشترى اليوم ويذبح في يومه ويؤكل .

أَن تعيِّنَ لي الشخص الذي أَدفع له هذا المبلغ تقسيطاً ، بصورة لا تضرني ولا تكلفني ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أُخرى أَجد في ذلك ما يشجعني عليك في المستقبل ، ثم أَضفت : إِن هذا المبلغ الباهظ الذي تريد أَن تهبني إِياه دفعة واحدة هو من قبلك لا يجوز ، ومن قبلي يعتبر قبولي له بالأُسلوب الذي وصل إِلي به حرام ، فهو لا يجوز من قبلك لأَنك تستطيع أَن توزعه على مائة مواطن من المحتاجين ، الذين انت تتعهدهم وملزم بهم . وهو حرام علي لأَنني أَتقاضي مرتباً شهريّاً يفي بحاجتي ، ويزيد ، كما أَنني املك عقاراتٍ تُدِرُّ علي من ريعهـا ما بعضه شهريّاً وبعضه سنويّاً .

بعد كلامي هذا صمت الفقيد صمتاً أَشعر أَن لسان حاله يقول بلا شك : وهل سبق لي ان أَخرجت من يدي شيئاً ثم أَعدته ؟!! .

أَما أَنا فقد خرجت من عنده فوراً ، خشية من أَن يرد علي كلاماً يغلق به الباب في وجهي ، فاستغللت

فترة صمته هذا ، وذهبت أَسأَل عن الشخص المختص بإدارة شؤونه المالية فقيل لي: إنه السيد عبد الرحمن ابن جندول ، فذهبت اليه وقلت له : إن الامير فهد ابن سعد أَمرني بأَن أَدفع عن طريقك مبلغ ثمانين الف ريال أَقساطاً بين فترة وأُخرى .



ذكرى للفقيد تشير أسشجاني

منذ أَن لقي الفقيد النبيل ربه إِلى هذه اللحظة بل وإِلى أَن أَلْحَقَ به لم يغب عن عيني تخيلي له ، ولن يغيب ، فشبحه دائماً وأَبداً متمثلاً نصب عينـــي ، وصوته ونبراته كأَنهمـــا يرنَّانِ في أُذني ، ونظرته وابتساماته كأَنهـــا متجسدة أَمامي ، ليس ذلك في اليقظة فقط ، بــل وحتى في المنام ، فقد رأَيته في سباتي مرات عديدة ، وكم أَجد شعوراً يثلج صدري في رؤْية المنام التي أَراه فيها ، وكم أَشعر باطمئنان نفسي كل ذلك النهار الذي أَراه في ليلته الماضية ، وكم تمنيت أَنني ظللت نائمـــاً كل ليلتي وكل نهاري ، بل وكل دهري ــ كمـــا عبرت عن هذه الأُمنية شعراً ارتجالياً في إِحدى الليالي التي صحوت فيهـــا من سباتي بعد أَن رأَيت الفقيد ، فانشأْت ساعتهـــا مرتجلاً الأَبيات الآتية :

قَفَزَتْ مِنْ نَوْمِي وَأَنَا الْقَلْبُ مَسْرُوْرْ

يَا لَيْتِي نيْمٍ لِيَالٍ تِبَـــارَى

أَوْلَيْتَنِي نَيْمٍ إِلَى نَفْخَـةِ الصُّـوْرْ

بِحْلْمٍ شَعرت بــه السعادةْ جْهَارَا

حِلْم رأَيتِ بْهَ الْفَهد نَيّر الشُّوْرْ

أَسْعَد وَالَذّ مِنْ يَقْظَةٍ بِالنَّهَـارا

حِلْمٍ نشلْني من الظَّلْماتْ للنّـوْرْ

وَبَدَّدْ هُمُومٍ تَاكلنْ أَكلْ نَـارا

حِلْم جَعَلْنِي ذٰلك الْيَوْمْ مَخْمُور

نَشْوانْ طربـانٍ بْلَـيَّ سْكَـارَا

حِلْم نَحا تِلْك الرّزيَّاتْ بِحْبُورْ

سَاعةْ رأَيْتَ اللَيْث شِبْلَ الْخَيارا

أَجل.. إذا كانت صورة الفقيد وشخصه وروحه وكل حركة من حركاته لم تغبْ عن ذهني حتى في سباتي كما أَسلفت ، فإن هناك حركة حياءٍ وخجل ووقار ، وسخاءٍ وإبـاءٍ وشمم ، فعلهـا الفقيد النبيل معي ، تلك الحركة التي كلمـا أَذكرها وأَتصوره

أمامي عندما قام بهـا فإنني لا أستطيع أن أملك دمعتي أو أُسيطر على أشجاني .

ولئن أشرت إليهـا بإيجاز في التمهيد لهذا الكتاب ، فإنني في مناسبة ذكري لذلك المبلغ في الصفحات السابقة يطيب لي أن آتي بهـا بوضوح على الوجـه الآتي : مررت على الاخ عبد الرحمن الجندول ـ الذي سبق أن قلت : إنه المسؤول عن حسابات الفقيد ـ وطلبت منه كشف الحساب الذي أوصلته إليه عن ذلك المبلغ الذي كمـا أسلفت أنني أردته قرضاً وأراده النبيل هبـة ، فما كان من الجندول إلا أن استجاب لطلبي ، وليته لم يستجب ، أو ليتني لم أحمل ذلك الكشف بيـدي .

وإذا سألني سائل لماذا ؟ قلت : إنني شاهدت من الفقيد النبيل حركة في تلك اللحظة كلمـا أذكرها تتضاعف مصيبتي ، وتعظم فاجعتي عليه ، وتتجدد رزيتي فيه ، وحركته هذه التي تجدد أحزاني واشجاني جاءت كما يلي :

حملت الكشف وذهبت إليه مشيراً إلى رغبتي بمناجاته ، فأَصغى إليَّ مبتسماً ، كما هي سجيته وخلقه مع أَي إنسان يرغب مناجاته ، قاصداً بذلك أَن يشجع المناجي له ، لكي يستمر بطلبه بدون حياءٍ يمنعه ، فاستغللت تلك الابتسامة وهمست في أُذنه بكلمة أَشرت بها إلى الكشف الذي بيدي .

وما إن عرف غايتي حتى انقلب ذلك الوجه الباسم إلى عبوس ، مشيحاً به عني ، مزورّاً بجانبه عن قربي منه ، ليس ذلك فحسب ، بل وضع على وجهه يديه الكريمتين ، فكأَنه يصدُّ عن رؤيته لعورة من العورات ، التي يكرم نفسه الشريفة عن رؤيتها ، ويربأُ بنبله وشهامته وشممه وإبائه وحيائه عن النظر إليها ، فعل ذلك لكي لا ينظر إلى الكشف المنحوس .

فما وسعني إلا أَن ابتعدت عنه ، مغرورق العينين ، ذاكِراً البيت الشعبي الذي أَنشده الشاعر الفارس شالح ابن هَدْلان في ابنه ذِيْب ، والذي جاءَ بمعنى لا أَظن أَن أَحداً من الشعراءِ سَبقه إليه ، لا من شعراء الفصحى

ولا من الشعراء الشعبيين. فإن يكن هناك معنى مشابه له فإنني لم أَطلع عليه ، رغم أَنني درست الكثير من دواوين شعراءِ الفصحى ، قاصداً أَن أَضع مختارات أَطبعهـــا وأَنشرها ـ ان مدّ الله في أَجلي ـ كما أَن لديَّ إلماماً وإطلاعاً بمـــا نظمه الشعراءُ الشعبيون ، ولكنني لم أَجد تلك البلاغة وذلك البيان اللذين سقط عليهما القحطاني في ابنه عندما غاص على معنى يقول فيه : لو أَن هناك من يحزن ويبكي على الرجل وهو حيٌّ لم يمت بعدُ لكنت أَحق أَن أَبكيك. وهذا نص البيت :

لو أَنْ حَيٍّ قَدْ بَكَى حَيّ ياذيْبْ

لَكَان أَبْكِي وأَنْت يا ذِيبْ حَيّا

أَشهد الله أَنني قد بكيت ذلك النبيل وهو على قيد الحياة ، فإذا كنت بكيته حيّاً فماذا تكون رزيتي به عندما ينقل إليّ نعيه ؟!

وإذا كان المتنبي يقول البيت الذي سبـــق أَن أَوردته ولا مانع من أَن أُعيده الآن :

وَلِلنَّفْسِ أَخْلاقٌ تَدُلُّ علىَ الْفَتى
أَكَانَ سَخَاءً ما أَتَى أَمْ تَسَاخِيَـــا

فهل يمكن أَن تـأْتي تلك الحركة من مصدر لم يكن صاحبه مطبوعاً بدمه ولحمه الكرم ، والسخاءُ والحياءُ والمروءَة ، وكل معنى من معاني الشيم العربية ، والقيم الاسلامية ، والمثل الانسانية ؟!..

غفر اللّٰه لك يا فهد بن سعد. وجعل تلك الأَخلاق الكريمة شافعة لك عند مولاك الرحيم الكريم ، الذي نعتقد أَنه جـل شأْنه خير من يتسامح ويعفو عن نبيل كالفقيد ، وأَفضل من يكرم مثواه ويجعل الجنة مأْواه !!



بلغ سخاء الفقيد الكريم أن رهن سيفه

هناك سجايا وخصال متضادات ، وهي الشجاعة والشهامة من جانب ، وضدهما الجبن والخِسَّة من الجانب الثاني ، ويقابل هاتين السجيتين السخاءُ والمروءَة من جهة ، وضدهما البخل والنذالة من الجانب الثاني .

وإذا كان أسوأُ ما يلاقيه الشجاع الفارس الشهم ليس إلا اللحظات التي يخوض بها غمار الحرب ، وهو أعزل من السلاح ، فإن أسوأَ ما يواجهه الجبان الرِّعْدِيد الساعات التي يَحْمَى بها وطيس الوغا وهو مدجج بالسلاح .

فإذا كان عدم وجود السلاح بيد الأَول يحرمه من المجال ، الذي تبرز فيه موهبته كشجاع ، فإن السلاح بيد الثاني يراه عاملاً سيئاً في كشف الغطاء عن موهبته

وما يقال عن المقارنة بين الشجاع والجبان حَرِيٌّ بأَن يقال عن السخي والبخيل ، فالسخي إذا فقد المال في الظروف التي تحفزه شهامته إلى الحاجة إِليه ، تجده يشعر في قرارة نفسه أَنه فقد القيام بأَقدس الواجبات على نفسه ، أَلا وهو الكرم والبذل ، كما أَن المال إِذا وُجد عند البخيل وتوفر لديه فإِن وجوده يجلب له اللوم والمذمة ، بالإِضافة إلى الحسد (كُلُّ ذِي نِعْمَةٍ محسود).

ولذلك نجد الشاعر علي بن المقرب يقول في هذا المعنى :

ما أَقبح الذّلَّ بالْحُرِّ الْكَرِيْمِ وَمَا
أَسْوا وأَقْبَحُ مِنه الْعِزُّ بِاللُّكَعِ

وقد استسغت هذا المعنى وقلت :

ما أَقْبح الْفَقْر بِالشَّهْمِ الأَبِيِّ وما
أَسْوا وأَنْكَدَ مِنْهُ المال بِالنَّذِلِ

وإذا كان السخاءُ محبوباً صاحبه مهما كانت منزلته الاجتماعية وضيعة ، فإِن السخاءَ من ذي أَصل عريق

في حسبه ونسبه كالفقيد يعتبر فرض عين ، لا محيص له من القيام به ، حتى ولو أَدَّى به الأَمر لأَن يبيع أو يرهن أَعزَّ وأَغلى شيءٍ يملكه ، كما فعل الفقيد السريع النجدة في إحدى الساعات الحرجة التي استنجده فيها أَحد المواطنين ، وهو في ضائقة مالية ، تحول دون استجابته لذلك المستنجد ، فما وسعه إلا أَن اضطر بأَن يرهن سيفه عند أَحد الأَثرياء ، ليستجيب لنجدة ذلك المواطن الذي لاذ بأَعتابه .

وهو عندما رهن سيفه يشعر -ولا شك- بأَن الأَمر عنده لا يختلف عن رهنه لنفسه .

وهذا مما يجعلني أَعتقد جازماً بأَن شجاعاً كالفقيد عندما يبلغ به الكرم والمروءة إلى أَن يرهن سيفه ، فإن ذلك منتهى ما يوصف به السخاءُ المتناهي ، ذلك السخاءُ وهذا الكرم اللذان بلغ فيهما القمة .

نسأَل الله تعالى أَن يجعلهما راجِحينِ في موازينه عند رب كريم رحيم ، اللهم استجب !!

* * *

الفصل الحادي عشر

نجدة الفقيد وإنسانيته



من أَوضح الأَدلة على أَن الفقيد يفعل الخير من أَجل الخير لا يريد من ورائه جزاءً ولا شكورا انه يهب ذوي الحاجات الهبات الجزلة ، بدون أَن يحوجهم إلى سؤاله ، بل ولا إلى أَية إِشارة منهم إليه تعبر عن السؤال

قد نجد من يقول: إن عملا كهذا لم يكن غريباً عن الخلق العربي ، الذي يقول عنه احد حكماءِ العرب الجملة التي سبق ان أَوردتها في مقالي الذي رثيت به الفقيد وهي : «ليس الكريم الذي يهب من يسأَله ، فذاك امرءٌ باع السائل كرامته التي هي أَعز مـا يملكه الحر الكريم ، فاشتراها منه المسؤول بثمن مهما ارتفع فإِنه أَقل مما أَعطاه» فالجواب على من يرى هذا الرأْي هو أَن هناك بوناً شاسعاً بين رجال الفترة التي يتحدث عنهـا العربي بحكمته هذه وزمانهم ، وبين رجال وقتنا هذا .

ففي الحين الذي قد لا يوجد بين رجال ذلك الزمان في الأَلف واحد يرضى لنفسه ذل السؤال ، وحتى هذا الواحد من الأَلف فإنه لا يقوم بهذا العمل إلا بدافع الفاقة الماسّة التي قد تبيح لصاحبها المحرمات ، من شدّة الضرورة .

نعم هناك فرق بعيد المدى بين رجال ذلك الوقت ، وبين رجال وقتنا الحالي الذي انقلبت فيه المفاهيم ، بصورة نرى فيها المواطن الأَبِيَّ الذي يفضل أَن يبيت الطوَى جوعاً على أَن يسكب ماءَ وجهه سائلا : نرى هذا في نظر بعض رجال عصرنا منعوتاً عندهم بالغباوة ولا عجب ، فالسؤال أَصبح الآن مورداً من موارد الجشع عند بعض الناس ، إلى درجة بات الغني السخي الذي يود أَن ينفق بسخاءٍ لإِخوانه المستحقين ظل هذا في حيرة وارتباك لا يستطيع أَن يميز مهما كان ذكيّاً بين من يسأَله وهو مُتْخَم من المال ، وبين الأَبيِّ الفقير الذي يحسبه من يجهل أَمره غنيّاً ، ففي مجتمع كهذا توفرت فيه المتناقضات ، نجد الفقيد

الرؤوف لا يحوج بعض مواطنيه إلى السؤال ، بل نجده إما أن يذهب بنفسه إلى من يتحرى أنه بحاجةٍ إلى عطفه ومواساته ، وبذل الاحترام له إن كان هذا المواطن من رجال العلم كما فعل بالشيخ الفقيه عبد الكريم الخياط ، وإما ان يوفر له ما هو بحاجة اليه من تكاليف المعيشة ، كما فعل مع المرحوم سلمان بن حسين الذي سوف أورد قصة الفقيد معه بعد أن انتهي من القصة التي رواها لي الشيخ الأخ عبدالكريم الخياط.



قصة مروية عن الفقيد

كم أَجد للحادثة أثراً حسناً في نفسي عندما يكون الراوي لهـا ثقة صادقاً ، ويتضاعف هذا الأَثر حينما يكون الراوي شاهد عيان ، أَو طرفاً ثانياً في الحادثة .

والحادثة التي بين يدي القارىء توفر فيها الأَمران : ثقة الراوي من ناحية ، ومن ناحية أُخرى كونه يروي الحادثة لا كمن سمع بـل كمن رأَى بعينه ، والحادثة في حدٍّ ذاتها قد لا تكون ذات شأْن كبير ، لمن يعرف أَخلاق الفقيد ، ورأْفته وعطفه وسخاءه لمن يستحق ذلك ، كالشيخ الخياط كعالم واسع الاطلاع في الفقه الحنبلي ، وإِنما موضع تقدير الراوي لتلك الحادثة أَنهـا صدرت من حاكم في البلاد الذي زار الشيخ في منزله ، وزيارة كهذه بدون دعوة من الشيخ لحاكم بلاده تعتبر نادرة لم ير ولم يسمع الشيخ في حياته التي يعيشهـا الآن في العقد الثامن أَن

حاكماً من حكام بلاده السابقين ، ولا اللاحقين ، زار مواطناً على الشكل والسخاء والبذل والإجلال ، واللطف الذي قام به الفقيد الوديع ، تجاه الشيخ الخياط .

أودُّ أَوَّلاً أن أذكر المناسبة التي جمعتني بالشيخ عندما روي لي تلك القصة ، وهي مناسبة جاءت كما يلي:

اقلتنا معاً طائرة (الكنفير) السعودية المتجهة من حائل إلى المدينة فجدة وذلك في يوم الثلاثاء ٢٧ـ ١١ ـ ١٣٩٢ (٢ـ١ـ١٩٧٣) وكنت محاذياً للشيخ في كرسيه ومن يعرف الشيخ الخياط يدرك أنه لم يكن فقيهاً فحسب ، بل دائرة معارف متحركة خاصة في حفظه للأحداث التي عاشها وشاهدها . وقد وجدتها فرصة موفقة من أَجل أن نقطع المسافة الجوية في الاستماع إلى القصص الشيِّقة ، التي يلم بها الشيخ إلماماً واسعاً ، وخاصة أَحداث التاريخ التي عاشها ، ولكن الشيء الذي وجدته طاغياً لا على عواطف وشعور الشيخ الخياط فحسب ، بل على كل مواطن من أَهالي حائل ـ هذا الشيءُ هو الحديث عن مكارم أَخلاق

اميرهم فهد بن سعد ، الذي إذا جاءَ ذكره لاي واحد من ساكني بلاد (حاتم الطائي) تجده يشعر بنشوة عندما يسترسل بإطرائه للفقيد ، المالك لقلوب مواطنيه ، وهكذا كان الشيخ الخياط واحداً من آلاف الرجال ، الذين غمرهم ذلك المهذب بأَخلاقه النبيلة ، فذهب يحدثني عن المروءَة التي قام بها الفقيد نحوه ، حديثاً جاءَ على الوجه الآتي :

يقول الشيخ : عندما أَصابني الأَلم الذي نتج عنه فقدي لبصري [1] قررت أَن أَذهب إلى الخارج لعلي أَجد طبيباً يشفيني الله على يده ، وقبيل سفري بيوم واحد فوجئت بالمغفور له الأَمير فهد يدخل علي في منزلي ، بدون علم مسبق يجعلني أَقوم تجاه حاكم بلادي بالشيءَ الذي يفرضه علي واجب احترامه ، وبدلا من أَن اعتذر منه ذهب هو يعتذر مني بعبارات رقيقة ، كان لها ـ ولازال ـ أَطيب الأَثر ، مؤكداً أَنه لا يعلم بما أَلمّ بي ، ولا بمجيئي حيث كنت قادماً لتوي من سفر داخل المملكة ،

---

(١) اعتقد انه ما يسمى بالماء الأزرق .

ويمضي الشيخ في حديثه عن مكارم اخلاق الفقيد الوديع ، ويقول : علاوة على هذا التواضع الذي ملك فؤادي به ، وذلك الاعتذار الذي ابداه ، علاوة على ذلك عندما أَراد أَن يخرج سمعت منه اعتذاراً جديداً يعبر به عمـا يراه قصوراً في هبة مالية دسمة ، جادت بها أَريحته ، ويضيف - أَي الفقيد الكريم - إلى اعتذاره هذا قوله : (عندما تصل إلى بيروت ابعث إِلي برقية أَخبرني بها عن المستشفى الذي ستدخله لكي اعمد من يتولى دفع نفقات علاجك) ، يقول الشيخ : لست مستغرباً ما قام به من سخاءٍ نحوي في معونته المالية ، ولا ما وعدني به من سخاءٍ أَراد به أَن يكون علاجي على نفقته ، سواءً فـي مستشفيات (بيروت) أَو في مستشفيات (اسبانيا) كما أَكد لي ذلك ، وإن كنت لم استجب لطلبه الأَخير رحمةً به ، لكثرة الواجبات التي يقوم بها من هذا النوع لمواطنيه ، ويؤكد الشيخ بقوله : إن موضع استغرابـي وإعجابي بذلك الأَمير المحسن الودود الشهم هو مواصلته اعتذاره .

يذكرني الشيخ الخياط بحديثه عن الفقيد بما قال الشاعر العربي في بيت لم احفظ الا عجزه الآتي :

« إِنَّ الْكرِيْمَ ليُعْطِي وهْوَ يَعْتَذِرُ »

كما قال الشاعر الآخر :

ما جاءَ بِالرِّفْدِ إلاَّ وهو معتذرٌ
ولا عَفَا قَطُّ إلاَّ وهْوَ مقْتَدِر

وكلما قصدوه طالَ نائِلُه
كالنَّارِ يؤْخَذُ مِنْها وَهْي تَسْتَعِر



قصتان عن أريحية الفقيد مماثلتان للأولى

ذكرت في القصة الأُولى أَن ميزة السخاء الذي يقوم به المرحوم تتجلّى في كونه يفاجيءُ بهباته مواطنيه ، الذين يترخي أَنهم في حاجة إِليهـا بدون أَن يحوجهم إِلى سؤاله

وها أَنذا أُضيف إِلى قصته تلك مع الشيخ الخياط قصتين أَنقلهمـا عن رجلين لا يرقى الشك عندي بصحة روايتهمـا .

وما أَجمل الرواية وأَبعدها عن الشك إِذا كان الراوي لا زال على قيد الحياة ، كما هي الحال في هاتين القصتين اللتين أَروي أَولاهمـا عن الاخ فيصل الرشيد ، كمـا أَروي الأُخرى عن الاخ عبد الله العلي السالم ، وكلاهما يرويان قصة عن فقيد المروءة والسخاءِ جادت بهمـا نفسه بدون سؤال ، ولا أَدنى إِشارة تدل على ذلك ، وإِليك قصة سخائه مع الاخ فيصل .

يقول الراوي : إِنه كان يعمر منزلـه القائـم سقفه على الخشب ، وكان بحاجة ماسة إِلى خشب للسقف.

وذكر له أن (عزيز العائب) جالبٌ خشباً من الكويت ، ويمضي الراوي قائــلاً : إنني أردت أن أشتري مــن (العائب) كمية محدودة بقدر المبلغ الذي بين يــدي ، ولكن (العائب) امتنع عن البيع طالبــاً ثمناً باهظاً ، لم يكن لي القدرة للحصول على تلك القيمة المرتفعــة ، يؤكد الأخ فيصل أنه لم يشعر إلا فجأة بكمية من الخشب نفسه موضوعة في منزله الذي يقوم بعمرانه ، وهي كمية تزيد عدداً وحجماً عن حاجته التي حاول مشتراها ،ولم يستطع بسبب عجزه عن دفع القيمة كما سلف ذكر ذلك ، ويمضي الراوي قائلا : كل الذي اعتقده هو أن صاحب البضاعة ندم وتراجع ،وباع عليّ خشبه ، ومما جعل فيصلاً ـ على حد قوله ـ يعتقد هذا الاعتقــاد أن الذي عاد بالخشب اليه (عزيز العائب) نفسه ، صاحب البضاعة ، ويضيف فيصل : إنه عندما سأل (العائب) لماذا جاء بهذه الكميــة الكثيرة التي لم يكن بحاجــة

اليهـا ؟! أجابه المسؤول : بـأن الخشب اشتراه منه الأمير فهد بن سعد كله ، وأمره بـأن يبعثه إليه .

ويقول الاخ فيصل الذي روي لي هذه القصة ـ في الأيام الأولى من وفاة الفقيد ، وهي فترة كان هو وأنـا نتبادل الشجون والأسى بنعي فقيد البلاد يقول ـ : إنه لم يستكثر هذه المروءة من المرحوم ولم يستغربها ، وإنما موضع إعجابه بكرم وسخاء ذلك العربي الأصيل هو أنه لم يُبْدِ له أدنى إشارة في هذا الموضوع ، واعظم من هذا وذاك أن الفقيد الفاضل لم يسأل فيصلاً ، ولـو بمجرد إشارة يشير بهـا منه عما إذا وصل إليـه الخشب

هذه قصة الفقيد مع فيصل الرشيد ، التي قد لا تكون ذات شان كبير فيمـا إذا قيست بالهبات الجليلة التـي يبذلهـا الفقيد ، في عدة مناسبات ، وفي شتى الميادين .

وإنمـا الذي يجب علينا ملاحظته بدقة ، أن أهميـة الأمور أو الهبات لا تـأتي أحياناً من حيث كثرة عددها ، ولا من حيث جسامة حجمهـا ، بقدر ما تـأتي من حيث تـأثير مفعولهـا في نفسية المحتاج إليهـا من ناحية ،

ومن ناحية أُخرى من حيث شدة الضرورة الماسة إليها ، وتتضاعف أَهمية الهبة ثقلا وحجماً فيما إذا كان المحتاج عاجزاً ماديّاً ومعنويّاً عن الحصول عليها ، ومن ثمَّ يراها واصلةً إليه بدون أَن يسعى لها أَو يفكر بالحصول عليها ، كما فعل الفقيد مع فيصل الرشيد ، وكما فعل قصة مثلها مع المرحوم سلمان بن حسين الذي رواها لي الاخ عبد الله العلي السالم على الوجه التالي :

يقول الراوي : إنه دخل ذات يوم على المرحوم سلمان ابن حسين فوجده في حالة سرور وحبور من ناحية ، ومن ناحية أُخرى وجده مُغروْرِقَ العينين ، فسأَل عبدُ الله سلمانَ عن مصدر ذلك التناقض . فقال المسؤول : لا تلمني إذا وجدتني في نشوة وغبطة من ناحية كما وجدتني من ناحية اخري أُعاني عَبْرَةً تحشرج في صدري فكل من هذه وتلك مصدرهما الاحترام والاجلال للأَمير فهد بن سعد ، الذي أَغدق علي هباتٍ لم أَسع لها ، وإن كنت بأَمَس الحاجة إليها ، حيث خرجت من البيت وأَنا في أَمسِّ الحاجة إلى المؤونة حيث باتت تكاليف المعيشة

في الرياض تتضاعف عن ذي قبل مضاعفة لا قادرة لي على القيام بهـا مهمـا وهبني (مُعَزِّبي) الأَمير الكريم محمد ابن عبد العزيز المِتلاف ، من الهبات الجسام المتواصلة ، فإن مصاريف وتكاليف الحياة أَصبحت كالنار التي كلما وضعت عليهـا وقوداً قالت : هل من مزيد ؟ ! وهكذا خرجت من منزلي ولم يكن فيه مـا يفطر عليه الصائم ، خرجت منه حائراً أتمنَّي أَلاَّ أَعود إليه ، فغبت أَقضي نهاري كله هنـا وهناك ، متثاقلا دخول منزلي ، الـذي حتى القطط هربت منه لعدم وجود الطعام فيه ، ولكن هل للرجل ان يهرب من أَهله ومنزله إلى الأَبد ؟ ! فعدت مرغماً ، وما إن دخلت منزلي حتي وجدته مملوءاً بالمؤونة المختلفة الأَنواع – مؤونة تكفيني هموم المعيشة مـدة طويلة الأَجـل ، بعيدة المدى ، وعندما سأَلت أَهلي عمن أَمره الله بأَن يهبني هذا الرزق الذي كنت في امس الحاجة اليه جاءني الجواب أَن هذه الهبات الوافرة جاءت من الأَمير فهد بن سعد ، ويمضي الأَخ عبد الله بروايته هذه عن صديقه سلمان ، ويقول : ان صديقه أَكد له أَنه منذ

عدة أَشهر لم يَزُرْ فيها الأَمير فهداً في منزله . ولم يذكر في خلال تلك المدة أَنه أَبدى للفقيد أدنى إشارة توحي إليه بالسؤال لا من بعيد ولا من قريب .

هذا وإنني أَعتقد جازمـاً أَن قصته من الاخ فيصل الرشيد والمرحوم سلمان بن حسين لم تكونـا الأُوليين من نوعهما بل امثالهمـا العشرات أَو المئات التي تصدر من الفقيد الجواد السخي على مواطنيه ، الذين يتفقد أَحوالهم ، ويهبهم نوعـاً من كرمه وجوده بـدون أَن يحوجهم إلى سؤاله .

وإذا كنت اختصرت في ذكر هبات الفقيد على شيء محدود من هذا النوع فإن الأَمر يعود إلى عدم ملازمتي له كما سلف ذكر ذلك ، وحتى هذا الشيء القليل الذي أَوردته لم يأْت إلا عن طريق (الصدفة) التي أَرويها عن المواطنين تلك (الصدفة) التي جاءت بعد وفاته ـ وذلك عندما تأْتي المناسبة للحديث عن سجاياه الفاضلـة ، واخلاقه الكريمة الفذة . غفر الله له .

شفقة الفقيد وعاطفته الإنسانية

تتدفق إنسانية الفقيد وتتفجر عاطفتـــه وتتجلى رحمته عندما يرى المُعوزين من بني وطنه ، فتجده لا يكتفي بـأَن يجعـــل هِبَتَهُ لهم عن طريق الواسطة ، بـــل تجده يناولهم إيا هـــا بيده ، كما شاهد ذلك الأَخ عبد الرحمن بن حمد بن حسين آل الشيخ الذي روى لي الحادثة التاليـــة :

يقول الأَخ عبد الرحمن : إنه عندما زار الفقيد في حائـــل ، وخرج معه في سيارته للنزهة ، كان الفقيـــد كلما مر بـأَناس يتوقع أَنهم بحاجة إلى سخائه نزل بنفسه وسلم على مواطنيـــه ثم أَغدق عليهم من المال ما في يده ، ويمضي ابن الشيخ فيقول : إنني عندما قلت له : ولماذا ما تريح نفسك من النزول والركوب في السيارة ، وتسلم الشيءَ الذي تريد أَن تهبـــه لمواطنيك المحتاجين لمرافقك (عيسى أَبو فَرْنِيَّة)؟فكان جواب النبيل لابن الشيخ قوله: إن عيسى من نفس اهـــل هذه البلاد ، وأَخشى إذا تركته

يهب كيف يشاءُ يميل بعاطفته مع قسم من ذويه الأقربين وإن لم يكونوا بحاجة ماسّةٍ كحاجة سواهم البعيدين عنه من نفس اهل البلاد) .

عندما روى لي ابن الشيخ هذه الرواية ، قلت في نفسي: إن المغفور له عدا ملاحظته التي لا تخلو من المنطق والحكمة يشعر بلذة نفسية عندما يقوم بهذا العمل ، ولو أَن فيه عناءً ونصباً أكثر من نزوله من السيارة وعودته إليها وشعوره بهذه اللذة حقيقة واقعية عبر عنها أَبو الطيب المتنبي في نعته لكريم سخيّ كصاحب الترجمة وقال :

تَلَذُّ له المروءَةُ وهي تُؤْذِي   وَمَنْ يَعْشَقْ يَلَذُّ لهُ الغرامُ

وإذا كان الحديث الشريف المروي عن النبي محمد عليه الصلاة والسلام أَنه إذا جاءَ شهر رمضان كان يضاعف سخاءه للفقراءِ والمساكين ، فإِن الفقيد يسير على سنة نبيه محمد ، في بذله وسخائه في شهر الصوم – وقد شاهدت في شهر رمضان عدداً وافراً من الفقراء يفدون إليه من مختلف قرى المملكة وباديتها ، وسمعتهم عندما يذهب أَو يعود من المسجد المحاذي لمنزله لتأْدية

الصلاة يكتفي أُحدهم عن السؤال ـ بقوله : اللهم اغفر لسعد ، وأَسكنه جنات النعيم ـ يقصدون والده ـ فيرد عليهم المغفور له قائلا : إن شاءَ الله إن شاءَ الله ! ! يكررها عدة مرات ، ويؤكد لي كاتبه الخاص الاخ عبد الرحمن ابن جندول أَن الذي ينفقه الفقيد في شهر رمضان مائة أَلف ريـال ونيفـاً ، هذا الذي يصدر عن طريق ابن جندول بصورة رسميـة ، أَما الشيُ الذي يدفعـه الفقيد الحنون من يده إلى يـد المحتاجيـن المتعففين فذلك شيٌ لا يعلم مقداره إلا الله الذي نسأَله تعالى أَن يغمره برحمتـه الواسعة .



سُرعة عطف الفقيد على من يلوذ به

عرف الفقيد بين مواطنيه بسرعة استجابته لمن يستنجد به أو ينتخي به بصورة عامة ، ولرجاله الأدنين بصورة خاصة .

وهذه الميزة للفقيد ظاهرة محسوسة لا تحتاج إلى دليل ، والحديث عنها يحتاج إلى شرح طويل ، وإنما نود أن نختصره ما استطعنا على الرواية التي نقلها لي أحد المواطنين من رجاله ، وهو السيد فهد الخليفي الذي كان ملازماً للفقيد منذ أن ـ كان غفر الله له طفلاً ـ وقد جاءت رواية الخليفي الذي حدثني بها هذه الأيام القريبة على الوجه الآتي :

لا أُريد أن أمضي مسهباً بالتفاصيل للأسباب التي ذكرها الراوي ، وإنما أود أن أورد الخلاصة وهي الآتية : المعروف عن الخليفي أنه بالإضافة إلى انتسابه إلى (خُوَّة) الفقيد فإنه يمتهن حرفة التجارة ، والفقيد تاركاً له الحرية الكاملة بعمله هذا الذي يقوم به حتى

هذه اللحظة . مـا دام انه يستفيد (خويه) منه وكثيراً ما تـأتي للخليفي الصفقة التجارية بواسطة جاه الفقيد .

الشاهد هنا هو أن امتهان الخليفي لحرفة التجارة كان سبباً من الأسباب التي دفعت مدير شرطة الرياض محمد ابن عطيشان وقتذاك بأن يطلب من الخليفي بأن يدفع ألفي ريـال بأمر من ولي العهد الأمير سعود ، ولما لم يكن لدي الخليفي الاستعداد لدفع ذلك المبلغ فقد ظـل يعد مدير الشرطة وعوداً لم يقنع المدير أنـه جادٌّ في تنفيذها . ممـا اضطر المدير أن يحدد له ثلاثة ايـام : إما أن يدفع المبلغ وإمـا ان يودعه في غياهب السجن — وفي هذه الفترة المحدودة ذهب الخليفي إلى (معزبـه) الفقيد ، يخبره بما تم في الأمر ، طالبـاً منه النجدة ، فهدأ الفقيد روعـه ، وطمأنه بألاَّ يخاف ولا يخشى . فذهب الخليفي إلى أهلـه وبات قرير العين ، كمـا أن أن الفقيد ذهب بدوره إلى ولي العهد الامير سعود وطلب منه بأن يوعز لمدير الأمن بأن يترك مطالبتـه للخليفي بالمبلغ المذكور ، ولم يذهب الفقيد من عند ولي العهد

حتى أَخذ منه وعداً بأَنه سوف يخبر مدير الأَمن بأَن يترك الخليفي وشأْنه ـ إلا أَنه لم يخبره ـ ناسياً أَو متناسياً ـ أَو ربما أَخبر المدير وأَكد عليه بأَن يستمر في تنفيذ الأَمر ـ بدليل ان المدير استدعى الخليفي قبل انتهاء المدة المحددة بيوم ، وقال له : غداً إما أَن تأْتي هنا إلى الدائرة حاملاً معك أَلفي ريال ، وإلا سيكون مصيرك السجن ، ثم أَضاف المدير قوله : وعليك أَن تفهم أَن الأَمير فهداً لن يفيدك ، ولما لم يأْت الخليفي بالمبلغ المطلوب في الموعد المحدد له فقد بعث اليه مدير الأَمن جندياً وتم توقيفه في دائرة الشرطة .

وفي الوقت الذي كان الخليفي فيه موقوفاً في (الدائرة) نظر إليه أَحد المواطنين المدعو عبد العزيز بن حمد بن ونيّس وأَسف لحاله ، وقال لمدير الشرطة : إنني على استعداد لان أَكفله بأَلفي ريال ، على أَن تطلقه ، فأَجابه الخليفي قائلاً : لا أُريد منك مع الشكر أَن تكفلني ، وإنما أُريد منك أَن تخبر الأَمير فهد بن سعد أَنني معتقل .

فتعهد له هذا ، وأبلغ الأَمير وصية أو نخوة (المعتقل)
فما كان من الأَمير إِلا أَن أَخذته النخوة ، وقام بعملٍ في
بداية الأَمر ، أَنسته نخوته كل الأُصول المرعية في هيبة
الحكم ، ونظام الأَمن (وإِن كان أَول من يحترمهما) ،
ولكن صوت المستنجد به أَنساه ذلك. فذهب على الفور
واصطحب معه رجلين من رجاله الأَشداءِ الذين لو يأْمرهم
أَن يلقوا انفسهم بالبحر لما رفضوا أَمره ، ذهب بهما
إِلى دائرة الشرطة وأَخرج (خويه) الموقوف ، ولم يسع
الجندي الحارس إِلا أَن استسلم للأَمر الواقع.

وبعد أَن هدأَت عواطفه ، وحل العقل محل النخوة ،
كما حل المنطق محل النجدة والمروءة ، عاد بالموقوف إِلى
(دائرة الأَمن) حيث وجد المدير محمد العطيشان على
رأْس عمله . ولم يسع المدير إِلا أَن استقبل الأَمير
استقبالا يليق بمكانه ، وقال الكلمة المأْلوفة التي تقال
عادة للزائر العزيز الذي لم يعتد الزيارة لصاحب المكان.
قال المدير: (بارك الله بالخليفي الذي جاءَ بك إِلينا)
فرد عليه الفقيد كلام مجاملة مناسب للموقف ، ثم

طلب منه بأن يطلب له بالهاتف ولي العهد .

وعلى الفور أَخذ المدير السماعة وطلبه ، وعندما أَجابه قال : عندي الأَمير فهد بن سعد يود أَن يتحدث معك ، فتناول السماعة وصبح ولي العهد بالخير كأُسلوب متبع ، ثم بعد ذلك قال له : « إن مدير الأَمن اعتقل الخليفي من أَجل الفي ريال . وها هي سيارتي قد سلمتها لمدير الأَمن ليبيعها ويستوفي الأَلفي ريال » .

فما كان من ولي العهد إلا أَن اعتذر من الفقيد ، ثم أَمر مدير الأَمن على الفور بأَن يطلق سراح الموقوف .

ويؤكد لي الخليفي أَنه بعد أَن اطلق سراحه مرّ على مدير الأَمن وقال له : ها يا حضرة المدير ، نفعني الأَمير فهد أَم لم ينفعني كما قلت ؟! فرد عليه المدير قائلا : لا والله إلا نفعك ! ثم أَضاف : إيْ والله إن لك عم .



الفصل الثالث عشر

ثقافة الفقيد الأدبية وشعره



سبق أن ذكرت أن الفقيد نشأ نشأة عربية إسلامية وإن دراسته لا تعدو ان تكون كدراسة جيله المحصورة بقراءة القرآن وتعاليم الدين الاسلامي

والواقع ان المغفور له كما أنه أديب نَفْسٍ بأخلاقه وسلوكه وسيرته ، فإنه أديب درس بفطرته ، فهو يقول الشعر ويحسن روايته ويتذوقه ، بل يتأَثَّر أَحياناً إذا سمع بيتاً حماسياً وفي الوقت ذاته يحفظ للشعراء أكثر مما يحفظ لشعره ، مضافاً إلى ذلك سعته العلمية في تاريخ الجزيرة العربية ـ بصورة خاصة ـ ويشارك ذوي العلم في التاريخ العربي والاسلامي بصورة عامة ، ولكنه يظل أكثر ثقافة واطلاعاً على دواوين الشعراء سواء الشعبيين أو شعراء الفصحى ـ كما يحفظ قصائد كثيرة لكل من هؤلاء وأُولئك ، وشعراء الفصحى الذين يحفظ لهم ممن سمعته ينشد كثيراً من قصائدهم في المناسبات المتنبي وأبو العلاءِ المعري ، كما يحفظ أبياتاً من لامية الطغرائي ، وكثيراً ما يحفظ للشاعر الاحسائي علي بن المقرّب الذي اعتقد أنه معجب به كل الاعجاب ، لأن شعره كله حماسي ومهيج وبعيد عن السفاسف .

مِن محفوظاته التي يُنشدها في المناسبات

كثيراً ما سمعته ينشد للمتنبي الأَبيات الآتية :

لولا المشقّة ساد النَّاس كلهـــم
الجود يفقّـِــر والإقْــدَام قتـــال

* * *

على قدر أَهلِ العزم تـأْتي العــزائم
وتـأْتي على قَدْرِ الكرام المكــارمُ
وتكبُر في عين الصّغِير صغارهَـــا
وَتَصْغُرُ في عَين العَظِيْمِ العَظَائِـــمُ

* * *

إذا أَنتَ أَكرمْتَ الكَريم ملكْتَـــهُ
وإنْ أَنْت أَكْرمت اللَّئِيم تمـــردا
وما قتلَ الأَحْرارَ كالْعفوِ عَنْهـــم
ومَنْ لَك بالْحرِّ الذي يَحْفظ اليدا ؟ !

ويحفظ لأبي العلاء المعري قوله:

إذا وَصَفَ الطائِيَّ بالبخل مـادرٌ
وَعَيَّـرَ قسّـاً بالفهاهـةِ باقـلُ
وقال السُّهى للشمس: أنتِ ضئيلـةٌ
وقال الدُّجـا للصُّبح: لونُك حائِلُ
وطاولتِ الأَرضُ السماءَ سفاهـةً
ونافستِ الشهب الْحصـا والْجنادل
فيا موتُ زُرْ، إنَّ الحياة ذميمـة
ويا نفس جِدِّي إنَّ دهركِ هازِلُ

وما أكثر ما سمعته يردد قول الشاعر:

إذَا لَم يكُن لِلْفَضْلِ ثَمَّ مزيَّـة
علىَ النّقْصِ فَالْويلُ الطويلُ مِنَ الْغبنِ

ويحفظ من لاميـة الطغرائي الأبيات الآتية:

تقَدمتنِي أُناس كانَ شوطهـم
وراءَ خطوِي لـوْ أَمْشي علىَ مهلِ
هذا جزاءُ ٱمْرِيءٍ أَقرانـه درجـوا
من قبله فتمنى فُسْحَةَ الأَجـلِ

وشانَ صِدْقَكَ عند الناسِ كِذْبهم
وهلْ يطابقُ مُعْوَجٌّ بِمُعْتَدلِ

أُعَلِّل النَّفْسَ بالآمالِ أَرْقبها
ما أَضيقَ الْعَيْشَ لولا فُسْحَة الْأَمَلِ

أَما استاذه الذي كان متأَثراً به إلى أَبعد حدٍّ ، ومعجباً بشعره كلَّ الاعجاب ، والذي يكاد يحفظ العدد الوافر من قصائده ـ هذا إذا اختصرت القول عند هذه الجملة ، خشية من أَن يقال أنني بالغت فيما لو قلت ربما يحفظ الفقيد ديوان ذلك الشاعر كله ـ فهو علي بن المقرَّب الاحسائي شاعر الحماسةِ المهيج ، والذي يحض بشعره دائماً على مكارم الاخلاق ، وعلى البطولات والعلى وينهى بشدة وعنف عن الخمول والجبن .

والواقع أَن الفقيد يميل بِفطرته إلى شعر الحماسة بصورة عامة ، سواءً أَكان الشعر الفصيح أَو الشعر الشعبي كشعر محمد العوني ، كما يحفظ بصورة خاصة وبلا حدود للشاعر الآنف الذكر علي بن المقرب . ولما لم أَستطع أَن أُحيط علماً بكل ما يحفظه فقيدنا من شعر

ابن المقرب فإنه ليطيب لي أن أورد ما استطعت أن أحفظه عنه على الوجه الآتي :

ولا يبلغ العلياءَ إلا ٱبْنُ حُـــرَّةٍ
قَلِيلُ افتكارٍ في وقوعِ العَواقِبِ

جريءٌ على الأَعداءِ مُرٌّ مذاقُـــهُ
بعِيدُ المدَى جَمٌّ النَّدى والمَواهِبِ

* * *

وقائلــةٍ هوِّن عليك فإنَّـــه
مَتاعٌ قَلِيلٌ والسلامَةُ بالزُّهْـــدِ

فإن عَلَتِ الرَّأسَ الذُّنــابَى لسكــرةٍ
من الدهرِ فاصْبرْ فهو سُكْرٌ إلى حدِّ

فقد تملك الأُنْثَى ، وقد يُلْثَمُ الحَصَا
وتُتَّبَع الغَوغَا ، ويُسجَدُ لِلْقِــرْدِ

ويعلو على البحر الغُثَاءُ ويلتقـــي
على الدُّرِّ أَمواجٌ تزيدُ على العَــدِّ

ولا بُدَّ هذا الدّهْرُ من صَحْوٍ سَاعَةٍ
يَبين لنا منه الظَّلالُ من الرشْدِ

أَبَى اللّهُ لي والسُّؤْدُدُ الْعَوْدُ أَن أُرى
بـأَرْضٍ بها تَعْدو الكلابُ على الأُسْد

* * *

فلا عاشَ من يرضى الهوان فهل تَرى
جباناً على مَرِّ الزمانِ مُخَلَّـدَا ؟
وهل مات من يَغْشَى الوغا قبلَ يومه
فتى لضروب الحرب لا زال مُنْجِدَا ؟!

* * *

ولو أُحْسِنُ التّصفيقَ والرَّقْصَ فِيْهِمُ
ورَفْعَ المَثانِيْ والغِنـاءَ المهوّدا
لعِشْتُ عزيزاً فِيْهِمُ ولمـا ٱجْتَـرَى
يَمُدُّ عليَّ الضَّيْمُ باعـاً ولا يَدا
ولكنني لم أَرضَ ذاكَ صِيانـــةً
لعرضيَ أَن أُعْطِي الْمُضِلِّينَ مِقْوَدا
وأَكْبرتُ نَفْسي أَن أُجالِسَ قَيْنَـةً
وَدفّاً ومِزْماراً وعُوداً وأَعْبُـدَا

وأَنْ أَجْعل الأَنْذالَ حِزْبِي وشِيْعَتي
ولو جَارَ فِيَّ الدّهرُ ما شاءَ واْعْتَدى

* * *

أَأَبْقَى كَذا لا يَتّقِيْنِي مُشَاغِبِـــي
وليس لِخيرٍ يَرْتَجِينِي مُصاحِبِي ؟
وكُنْتُ إِذا ما أَحْمَقٌ زَم أَنْفَه
شَمَخْت بـأَنفي عنه واْزْور جَانِبِيْ
غشُومُ علىَ الأَدْنَى وإِنْ صَلك أَنْفَه
عدوٌّ بسيفٍ أَو عصا لَمْ يُشَاغِبِ
أَشَرْياً علىَ الأَدْنَي وأَرْياً على العِدَا
وخَصْماً لِذي الْقُرْبَي وجُنْداً لِغَاصِبِ ؟
أَرى الناسَ مذْ كانوا عَبِيداً لِغَاصِبٍ
وضِدّاً لمغلوبٍ وسَيْفــاً لغالــب

* * *

لا الزَّنْدُ كَابٍ ولا الْآبَاءُ مُقْرفَــة
ولا بباعِكَ عَنْ باعِ الْعُلىٰ قِصَرُ

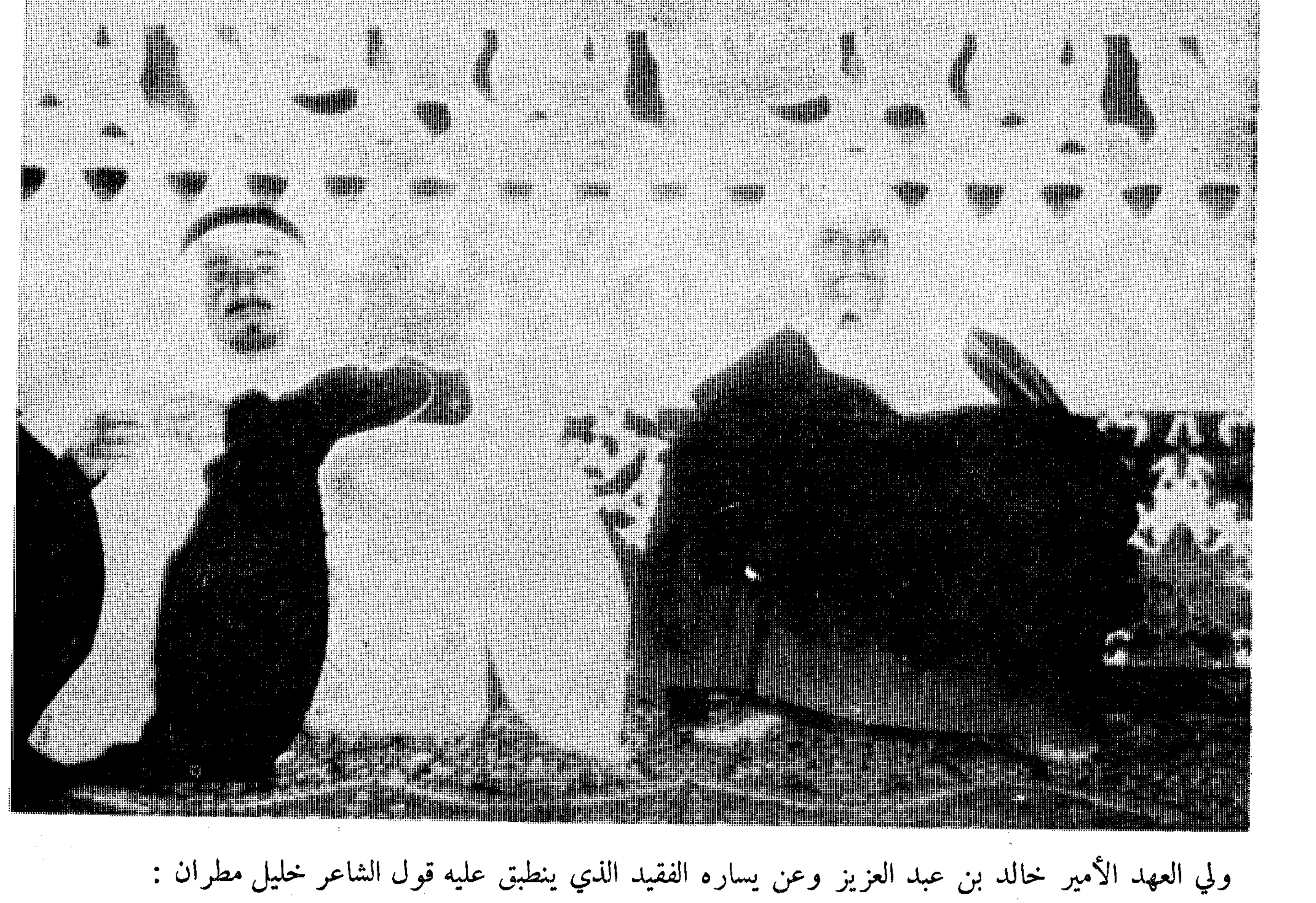
* * *

تكِلَتْهُمُ الْآبَاءُ إِنَّ حَيَاتَهُمْ
غَمُّ الصَّدِيْقِ وفَرحَةُ الأَعْداء

أَما القصائد الشعبية التي يحفظها ويرويها فهي أَكثر من أَن تحصر ، وإِنشاده لها جميل جداً ، ولكنه يحفظ للشاعر محمد العوني أَكثر من غيره من الشعراء الباقين ، وسمعته مراراً ينشد بيتاً للعوني ويقول : إِن هذا البيت لم يسبق العوني إِلى معناه ، والواقع أَنني أَيضاً أَرى أَن العوني لم يسبق الى معنى هذا البيت الآتي:

لولا الخَمَالْ وْمَا تَسوّلْ مْنَ اللَّوْمْ
ما كانْ صَارْ الْعَفُو لَهْ سايِل سَالْ

يقول الفقيد: لقد ذكر كثير من الشعراء ميزة العفو ، وترنموا ودندنوا في هذا المعنى كما قال المتنبي في البيتين السابقين ، ولكن الشاعر العوني في هذا المعنى لم يقف به الأَمر على أَن جاءَ بميزات العفو فقط ، بل جعل مرتكب الخطإِ فعل معروفاً بصاحب العفو حيث أَفسح له المجال بأَن يقوم بالعفو ، ولو لم يذنب المعفوُّ عنه على رأْي العوني ، لما صار لصاحب العفو فضيلة يُنْعَتُ بها بعفوه .



ولي العهد الأمير خالد بن عبد العزيز وعن يساره الفقيد الذي ينطبق عليه قول الشاعر خليل مطران :

لا ترثه فاليوم بَدْءُ حيـاتـه　　إن الأديب حياته بمماته

إذا كان هذا البيت ينطبق معناه على الفقيد الشاعر الأديب فإن ولي العهد ينطبق عليه معنى قول معروف الرصافي :

وما إن طاب أكثرنـا علومـاً　　ولكن طاب أسلمنا ضميـراً

فلقد عرفت عن ولي العهد قصة لا يسعني شرحها ولكن خلاصتها تعبر ابلغ التعبير عن سلامة قلبه وصفاء ضميره .

نُبَذ مِمّا ظفرتُ بهِ من شعر الفقيد

إذا كان المثل يقول: أَزهد الناس بالعالِم أَهله ، فإن الكثير من الشعراءِ لا يَعْبَأُ بشعره ولا يهتم بحفظه ، وهكذا كان المغفور له . ولا أَذكر أَنني سمعته ينشد قصيدة من شعره ، وكل الذي استطعت الحصول عليه عليه من قصائده هو القليـــل الذي وجدته عند بعض الرواة ، مما أَهمل الكثير منه ـ مع الاسف ـ وإليك بعض ما ظفرت به من القصائد قصيدتان قصيدة قالها في ابن عمه الأَمير محمد بن عبد العزيز لا أَعلم المناسبة التي قالهـــا من أَجاهـــا ، وأَما الثانية فإنها في ابن عمه الأَمير فهد ابن عبد العزيز أَنشدها جواباً منه على قصيدة جاءت إليه من الأَمير فهد ، ولم أَظفر بالقصيدتين كاملتين . فمما أَمكنني الحصول عليه من قصيدته في أَخيه محمد :

يا (بُو فَهَدْ) عَيني قَزَتْ عن مَنَامِي

سَهْرٍ وحِيدٍ والْمخالِيقْ هِجّـــاعْ

ما بِي وَجِــعْ أَيْضاً ولاَ بِي غَــرامِ
وْلاَ نِي مِنْ مِيْلاتَ الاَيَّامِ جَزَّاعْ
ما كلّ مخلوقٍ لْرَبْعِهْ يْحامِــي
إلاَّ مِثِلْ شَرْوَاكْ يا خَيْرْ فَزَّاعْ
عَسَاكْ تَسْلَمْ يا رِفِيْــعَ المقَــامِ
نَبْغِيْكْ مَذْخُورٍ لْطَلْقِيْنَ ٱلابْــوَاعْ
يفداكْ من بَاع الْعــلا بالحُطَــامِ
حَيٍّ كما مَيْتٍ دفنّــاهْ بالْقَــاعْ
دنْيا كَفَى اللّهْ شرّها يَالْقَطَامِــيْ
ما هِي مَع كِلَّ الْمخالِيقْ مِطْــواعْ
يَا شَوْقْ مَنْ خَدِّهْ كَشَفْ بالظَّلامِ
عَيْنَ الرّبِيْبَ اللِيّ عَلى الشّلُو مِرْيَاعْ

من أَوضح الأَدلة أَن هذه القصيدة مفقود منهــا أَبيات هو أَن أَي انسان لديه أَقــل المــام بالشعر سوف يجد أَن هناك معاني مفقودة بين بيت وآخر .

وإليك القصيدة الثانية . وإنمــا أَود أَن أُورد أَولاً قصيدة الأَمير فهد بن عبد العزيز التي وجههــا إلى

الفقيد ثم آتي فيما بعد بقصيدة المغفور له التي جاءت جواباً لهـا وقد نظمهـا الأَمير فهد وهو في (لندن) يعاني مرضاً خطراً ظل شهرين ملازماً للفراش ـ كمـا ظل يراجع الأَطباء في (لندن) كل عام يعالج من أَثر ذلك المرض الشديد إلى يومنا هذا ـ ونتيجة لذلك بعث إلى الفقيد رسالة من لندن ضمنهـا قصيدة كان مطلعها يعبر عن شدة الأَلم الذي أَلَمَّ به ثم تجده في البيت الخامس يأْتي بمعنى يؤكد به أَن هذه الآلام التي انهكت صحته لم تؤثر على عزيمته ، إنـه يتحملها ويصبر لهـا كصبر نبي الله أَيوب ، وإنما الذي يهتم له ويقلق باله ويشغله في كل أَوقاتـه هو حرصه على صحة أَخيه جلالة الملك الفيصل ، فهو يرى أَن حياته ونفسه لا أَهمية لهمـا امام صحة الفيصل كما أَكد ذلك بالبيت الذي أَراه وما بعده من الأَبيات بيت القصيدة وهو قوله :

مانِيْ علىَ نَفْسيِ كَثيرَ الْحَسَافَـاتْ

إلىَ سِلِمْ (فَيْصَلْ) رُوْسْنَا نرفَعَهْ حَيْلْ

اما القصيدة بكاملهـــا فهي الآتيـــة :

يا (بُو سَعَدْ) صَبَّتْ على اْخُوكْ غَارَاتْ

شَهْرِيْنَ آقَاسي مِن شَدِيْد الغَرابِيْلْ

وَخْزَ الأَلمْ يَحمِلْ على اْخُوْكْ حَمْلاَتْ

واصْبِرْ صَبرأيُوب لآوْجَسْتْآنَا الويْلْ

حِنَّا هَلَ (الْعَوْجا) رجال الشّجاعَاتْ

كلَّ المَصَايبْ نَشْرَبَه شَرْبَة الْهَيْلْ

وْلاَ يَنْفَعَ الخايِفْ والأَقْدَارْ عَجْلاَتْ

الخوفْ للرَّعْدِيْدْ لا لَلْمَشاكِيْـــلْ

لَكِّنْنَيْ مَشْغُولْ في كِلَّ الآوقَـــاتْ

على الذي حِنَّا بِظِلَّهْ زَمِلْ شَيْـــلْ

مانِيْ على نفسي كثير الْحسافات

لى سَلِم فيصل روسنا نَرفَعَهْ حَيْلْ

حامِيْ حْمَانَا بالليالِي الْمِخيفَـــاتْ

بأَيَّامْ سُودٍ كنَّها طيْر أَبَابيْـــلْ

فَخْر العروبهْ بالنَّقَــا والمَساواتْ

هذا هو (الفيصل) ولا فِيه تـاويْلْ

وآبَشّرْكْ ياخُوي يا زَبْنَ الونيّاتْ

يا (ابو سَعَدْ) نَطّاحْ وَجْهَ المَقَابِيْلْ

الله فزعْ لي فُوقْ سَبْــعَ السّمَاواتْ

وآنا آحْمِدَ اللهْ يُوْمْ صارتْ تَسَاهِيْلْ

وقد أَجابه الفقيد بقصيدة على الوزن والقافية ، مطلعها بيت يحمل معناه الترحيب بالرسالة التي وصلت إليه من أَخيه (فهد) التي ضمنها القصيدة ثم تلي ذلك بيت حمد الله به على بلوغ أَخيــه الصحة . واتبع هذين البيتين أَبياتاً يسأَل الله لاخيه ان يمد بأَجله . مؤكداً له أَن لو كان أَجله يدفع بشجاعة الرجال لكان هناك أَبطال باستطاعتهم أَن يدافعوا حتى الموت عنه ، ثم جاءَ بعد ذلك بيت القصيدة الذي يوضح فيه الفقيد أَنه يرى أَخاه فهد بن عبد العزيز بعين التقدير والإِعجاب ، لا في الوقت الراهن فحسب ، بل وفي الليالي المقبلة

كما أنه في البيتين الأخيرين من القصيدة ـ أيَّد ما يراه أخوه فهد بالفيصل بأنه هو الحصانة والسور المنيع في الظروف الحرجة ، والليالي الحالكة السواد ، فإذا نضب كل ما لديهم من أمل ورصيد وجدوا الفيصل الطود الشامخ الذي يلجأون إليه ويستجيرون به ـ بعد الله سبحانه ـ فيمـــا إذا شحت آمالهم ونضب معين كل ما لديهم من رصيد ، وهذا بيت القصيدة :

تَرَى لَنَا بكْ يا فَتَى الجُوْد هَقْوات

فِيْ وَقْتِنَا الحَاضِرْ واللِّيْ مَقَابِيْــلْ

وأول القصيدة :

يا مَرْحَبَاً بِكْتابْ [1] زبْنَ الْمخَلاَّتْ

أَهلاً هلاً بِهْ عِدّ وَبْلَ المَخَاييــلْ

حَمَدْت من زَالْ الْكَدَر بالمسَرَّاتْ

فَكَّاكْ منَ صكَّتْ عَليهَ الْمحابِيْلْ

---

(١) كتاب : يعني الرسالة التي ضمنها القصيدة

فِزع لَك اللّي عَالْمٍ بالخَفِيّـاتْ
مبْرِي جْرُوْحَ (ايوب) غَيْثَ الْمراميلْ [1]
يَعَلّ مَا يِزْعَجْ عَلى فْقَدكْ اَصْوات
ولعلّها لَكْ يا (بو فيصل)تَماهِيْلْ [2]
اللّهْ يِجِيركْ مِنْ صوادِيْفَ الافَاتْ
عساكْ تَسْلَمْ يا ربيعَ الْمشاكيلْ [3]
ما اَنْتَهْ رخِيصٍ يا ربيعَ الْقرابَاتْ
لَوْهِي بالايْدِي كانْ دُونَكْ حَلاحِيْلْ [4]

* * *

. تَرى لَنَا بِكَ يَا فتى الجُودْ هَقْوَاتْ
فِيْ وَقْتَنَا الحاضِرْ واللّيْ مقابيْـــل
وْ (فَيْصلْ) ذَرانا بالسّنينَ الْمِخْيفَات
هُو دِرْعنا الضّافي إلى ضَدّنَا الميْـــلْ

---

(١) المراميل : جمع ارامل .

(٢) ابو فيصل : كنية للامير فهد بن عبد العزيز . يعلّ : لعل .

(٣) المشاكيل : الصناديد

(٤) الحلاحيـــل : الرجال الأبطال .

اللِّي نَقْل عنّا حْمُولٍ ثَقِيْلاتْ
رَاسَ الحَصِيلْ إنْ كَمّلَنَّ المَحَاصِيْلْ

وقد أنشد الفقيد الأديب قصيدة عاطفية رثى فيها قرينته المرحومة منيرة ابنـــة عمه الملك عبد العزيز. ولما لم أحظ بهـــا كاملة فإنه ليطيب لي أن أورد مـــا استطعت الحصول عليه من الأبيات الآتية:

مَا لُوءِ عينِي لَو قِزَتْ عنْ منامَهْ
على الذي حِطَّتْ عليهَ الْمَرَاسِيْمْ [1]
علَيْكْ يا سِيْد العذارى يْمامــه
يا زاهْي الماهُودْ يا قَايْدَ الرِّيْمْ [2]
من محصنات البِيْضْ ما بِهْ ملامَهْ
منْ خِلقِتِهْ ما عِيْبْ يومٍ ولا لِيْمْ
حلفت انَا مآنساه لَيْنَ القيامَــهْ
لَوْ ماتْ عِندِي لهْ جلالٍ وتعظيمْ

---

(١) قزت العين : أي عزفت عن النوم . الـــذي : يستعمل للمؤنث والمذكر .
(٢) الماهود : الجوخ الثمين .

طاهِرْ نِزيْهَ العِرضْ طُهْر الحمامَهْ

من نَسْل زَيْزُومَ الْعَرَبْ ، طَيّب الْخِيْمْ

عبدَ العزيز الليْثْ شِبْلَ (اليمامه)

هو حِصْنِنَا ، هُو دِرْعَنَا بالْملازيمْ

مَنْ لامْنِي بِلكْ يا سَليلَ الشهامهْ

عسَى علَى قَلبه تْجَرَّ الْمُوَاسِيمْ [1]

(آمِين) يَا قَبْرٍ بْعَالَ الْعَدَامَـهْ

يسْقِيكْ مِنْ وَبْلَ السّمَا ماطرٍ دِيْم [2]

لَعَلّ قَبْرٍ ضَمّ بالِي عْظَامـــهْ

يِصِيْر جنَّاتٍ ثِمَرْهَـا مجاهِيْمْ

قبرٍ سَكَنْهَ اللِّي عَـزِيزٍ مقامهْ

مِنِّي عَلَيْـهَ أزكَى التحيهْ وتَسْلِيمْ

وللفقيد الشاعر قصيدة أَنشدها تعزيـة لسلطان الطلال الجبر ، في المناسبة التي قطعت بها يده اليمين ، وذلك إثر حادثة آلة (مكينة) لضخ الماء في أَحد المزارع

---

(١) المواسيم : اسياخ الحديد التي توسم بها الابل وتكوى بها .

(٢) العدامة : المكان المرتفع من الرمل .

من مدينة الرياض. وقد كانت الحادثة مجرد جرح بسيط. وإنما التهب ذلك الجرح، وقرر الأَطباءُ قطع يده من العضد.

ولما كان سلطان صديقاً للفقيد المعروف بوفائه لأَصدقائه، فقد انشد قصيدة يعزيه بما أَصابه، مؤكداً له في مطلع القصيدة أنه هو وأُسرته المالكة سوف يكونون خلفاً له بيمينه، والقصيدة من عيون قصائد المغفور له، وإنما الذي يؤسفني أَنني لم أَظفر بها على الرغم من أَنني سمعتها من الراوي الشعبي عبد الكريم المكادي الذي كان حافظاً لها، كما حفظ المئات امثالها وكان يلحنها تلحيناً شيِّقاً، إلا أَنني عندما ذهبت إليه هذه الأَيام وسأَلته عن القصيدة أَفادني أَنه نسيها، فلم أَلمه لأَنه الآن بلغ العقد التاسع بل العاشر.

وكل الذي ظفرت به من القصيدة هو:

سلطانْ لا تجزَعْ على فْراقْ يِمناكْ

إنْ سلْمْ راسِكْ كلّنا لِكْ أَيَادِيْ

حِنَّا لَكَ اللّهْ مِسنَدِ لِكْ ومَنْصَـاكْ

هَرْجٍ صحيحٍ ، يَعْلَم اللّهْ وُكَادِ

لَيْتَ الْمصِيبهْ بالرّدِيْ عنك يَفْدَاكْ

حَيْثِكْ يا (بو طلال) سقْمَ المعادِيْ

أَرْجِي عسى مَا جا يكفِّرْ خطاياك

وْعَسَاهْ ما يِلْبَسْ عليكَ السُّـوادِ

مِنْ سَمْعَتي لَلْعِلْمِ بالقلْبْ دَكَّـاكْ

يكْفَخ كَمَا طيرٍ ليالي الْهَـدادِ

وله قصيدة على وزن آخر ، يخالف وزن القصائد التي أَوردتهـا آنفاً ـ وتلحينها غرامي جذاب ، يلحنها الشعبيون سواءً الفتيان أَو الفتيات ، ويسمى التلحين لمثل هذه القصيدة ، (سَامِريْ) ويقال له (سوقية) بصورة يأْتي اثنان أَو أَكثر ويجلس امامهـم نفر يضارعونهم بالعدد ، ولا مانع فيما إذا زاد عدد صف عن صف ـ ومن ثم تُقرع (الطبول) الكائنة بين يدي رجال الصفين ، ويلحن رجالُ البيت الأَول من القصيدة بصوت غناءٍ غرامي شيّق ، ويأْتي رجال الصف المقابل ،

مجاوباً للملحنين على نفس النغمة والوزن ، ويتمايل المغنون وهم جلوس تمايلا غرامياً يوحي بالنشوة والحبور في نفس المغنيين ، واعتقد أن هذه القصيدة أنشدها الفقيد في عنفوان فتوته ، إلا أن فيها بيتاً يعبر عن علو همـــة المغفور له ، مما يدلنا على أن الطموح في نفسه طاغٍ على الغرام ، إذ عادة لا تنشد قصيدة على هذا الوزن إلا أن تكون غرامية وإنمـــا الفقيد أخلف هذه القاعدة في قصيدته هذه ، التي بدأ مطلعها ببيت يعبر عما عاناه من الهاجس الذي أقاقه في بداية النصف الأول من الليل ، ثم يأتي بالبيت الثاني بمعان يؤخذ من مفهومها أنه يرثي لوضع الرجال الأبطال الذين وصلوا من تعاسة حظهم درجة تجعل أحدهم إذا أُصيب بسهم من الأعداء فإنه يقضي نحبه بصورة فورية ، بدون أن يكون له فيها مُتَّسَعٌ من الوقت الذي يئِنُّ به ، لعدم من يعتني به أو من يعطف عليه .

ثم يأتي بالبيت الثالث معلناً غرامه وتغزله ، واصفاً من يتغزل به في صدر البيت بجمال العينين ، اللتين

ظلالهمـــا الرمش ـ الهدب ـ وفي عجز البيت ما يشير إلى أنه لم يتمكن ممن يتغزل به ، بل إنه انفلت من بين يديـــه .

وفي البيت الرابع يشير في صدره بأَن من يتغزل به سافر ورحل عن الدار ممتطياً الراحلة التي تبعده عنه في رحيله هذا ، وفي عجز هذا البيت يزعم الشاعر ان صاحبه تنكر عليه بعد المودة .

وقد يكون في وصف الشاعر لمحبوبه بالرحيل وبجفائه وبعدم تمكنه منه ـ قد يكون في ذلك نوع من التمويه ، وهو اسلوب يستعمله كثير من الشعراء عندنا ، لكي يبعدون الشك لئلا يدور الاتهام حول المعشوق ، قاصداً الشاعر إبعاد الظنون عن محبوبته . أَمـــا البيت الخامس فهو الذي تنعكس فيه نفسية الفقيد ، بصورة يؤخذ من معنى هذا البيت أَن الغرام لم يكن غايةً بحدّ ذاته لديه ، وإنما هو وسيلة للتسلية ، أَمـــا الغاية فهي علو همته ، الذي بات يهنيءُ الأَغبياءَ الخاملين ، الذين أَراحوا أَنفسهم من هَمِّ الفطنة والإِحساس ، وعلو الهمة ،

والقصيدة هي واحدة من قصائده التي لم يصل الينـا منها إلا القليل كهذه الأَبيات التي يقال إنه أنشدها في مطلع شبابه وهي :

الساعةَ ارْبَعْ مْنَ اللَّيْلْ	هواجِسِـي ضَيَّعَنِّـيْ
عِـزِّي لْحالَ المشاكِيْلْ	طريحهـم ما يْوَنِّـي
أبُو عْيُـونٍ مظالِيْـلْ	مِنْها الْيَدَيْنَ ٱفْلتَنِّـيْ
مَعْ مِبْعِدَاتَ الْمراحِيْلْ	بَعْدَ الْغَـلاَ صَدَّ عَنِّـيْ
هَنَّيْتْ بَعْضَ الْمَهَابِيْلْ	يا بِعْدِ ظَنِّهْ لْظَنِّـيْ

أَرجو الاَّ يؤاخذني الأَديب الواسع الثقافة ، والراسخ العلم بالأَدب الشعبي عندما يبدو له أَن بين معنى بيت وآخر في هذه القصيدة عدم ارتباط من حيث المعاني ، وهذا هو الواقع ، ولكن الخطأَ لم يقع مني ، وإنمـا جاءَ ذلك من عدم عثوري على القصيدة بكاملهـا فما وسعني إلا أَن أَوردتهـا كما رويتها ، حرصاً مني على على أَمانة النقل وصدق الرواية .

بين يديَّ رسالة وردتني في ١٩ ـ ١٠ ـ ١٣٩٢ هـ من الصديق الشهم أَمير الجوف وجازان سابقاً الشاعر الأَديب

صاحب كتاب «أبطال من الصحراء» الأخ محمد الأحمد السديري الذي سألته فيما إذا كان بينه وبين الفقيد قصائد، اعتقاداً مني أن الأمر لا يخلو من ذلك، فأجابني ـ مشكوراً ـ بهذه الرسالة ومعها قصيدة منه. وجواب المغفور له على قصيدته الآتية:

يا ميرْ وصلْتِكْ على مَوعدِ لِّـــكْ
واقفيْتْ وانْتَ اقْفيْتْ تَمْشِي لْحالِكْ[1]

لَلِّي يريْدَ القلبْ رِجْلِكْ تِدِلِّكْ
أَقفيْتْ منْ عِنْدِي ذِلُولِكْ نْعَالِكْ

مِنْ شانْ مَنْ هُو بَالْوَفَــا، صَافِي لِكْ
يـ (ابو سَعَدْ) مَمْشَاكْ يَسْبِقِ ظْلاَلِكْ

تَسْرِيْ بْلَيْلٍ عارْفٍ مَذْهَلٍ لِــكْ
صَافٍ غَلاَكِ لْصاحْبٍ لِكْ صفَي لِكْ

أَبْعَدْتْ عَنْكَ اللِّيْ كِرِهْتِهْ رْضاً لِّكْ
حَرَمْتْ عَيْنِهْ مِنْ مَراعِي خَيَالِكْ

(١) (تمشي لْحالِك): أي وحدَك.

وْقِدْ قِلْتْ لِهْ : يا زَيْرَقٍ وِشْ غَدَا لِكْ

أَبْعِدْ وْوَجِّهْ للرّذيْلَهْ رْحَالِــكْ

لا تَتْبَعَ الأَجْواد مــا هُمْ هَلٍ لَكْ

ضَلَّيْتْ ياغادِي الْجِدَا وِشْ غَدَا لِكْ[1]

وإليك القصيدة التي جاءت جواباً من الفقيــد الشاعر :

وَالله يا (بو زَيْدٍ) فَلاَ نيبْ أَمَلِّكْ

وَاللّي طَرَا فِي خاطْرِي قد طَرَا لِكْ

وَاللِّيْ جَرَى لي بَالْوفَــا جارْيٍ لِكْ

كَمْ مِنْ وفِيٍّ بالموده وَفَــا لِــكْ

طِيْبَ المعانِي والوفا شِرْعَةٍ لِــكْ

وْتِرِدْ علَى كلَّ الْموارِدْ حْبالِــكْ

الطِّيْبْ وَالْمَعْرُوْفْ هُوْ عَادةٍ لِــكْ

وآنَا بْدَرْبَ الطِّيْبْ قَلْبِيْ نَحَالِكْ

(١) غادي الْجَدا : ضائع الرأي والحظ ـ والشاعر هنا يشير إلى شخص ثقيل النفس كان ملازماً للمرحوم ، ويود أن لو ابتعد عنه ، إلا أنه تركه خجلا منه كعادته ، ولكن صديقه الشاعر أبعده عنه ، كمــا أشار إلى ذلك في الأبيات الثلاثة الأخيرة .

مِنْ لوعة الخِلاَّنْ يا كُبُر غِلــك

(وْغلِّيْ وْشَيٍّ صَابْنِيْ صَابْ حَالِكْ)[1]

تَذَكَّر اللِّي بَالْمُوَدَّهْ يِظِلِّــكْ

اللِّي بْمَيْدانَ المودّهْ مَشَا لِـــكْ

أَشكركْ وأَرْجِي جِعِلْ رَبِّي يِحِلِّكْ

وْعَسى السَّعَدْ يا مَنْقَعَ الطِيْبْ فالِك[2]

وللفقيد قصيدة على الوزن الذي يقال له عندنـا (هْجَيْني) وهذا النوع من القصائد الشعبية يلحنه عادة المواطنون إذا ركبوا الهجن النجائب، سائرين في الصحراء كمـا يلحن أَحياناً (سامري) وهو نادر تلحينه، والذي مارس تلحين(الهجيني)سامريّاً هو شاعر الغراميات

---

(١) أرجو أن يعذرني القاريء فيما إذا أكدت أنني ما استطعت أن أفهم معنى عجز هذا البيت. والواقع ان قافية القصيدة صدراً وعجزاً ثقيلان ممـا جعل الشاعر الأول لا يستمر في الزيادة على هذه الأبيات التي تعتبر دون الحد المصطلح عليه بما يسمى قصيدة فيما إذا اعتبرنا القصيدة ثمانية أبيات فأكثر اما عجزي عن معرفة البيت الخامس. فانني اعتقد ان الخطأ جاء من كاتب القصيدة الذي لم يكن الشاعر (ابو زيد) إذ لو كان هو الكاتب لها لما تعذر علي معرفة معنى عجز البيت – كما أن امانة النقل قيدتني من التصرف به.

(٢) منقع الطيب: أي معدن السجايا الفاضلة – (المنقع) المعدن والمنبع والدوحة الخ – والطيب شامل لكل معاني الفضيلة، وبالأخص الشجاعة.



الفقيد في العرضة الحربية ، مع بعض مواطنيه

وتَعَلَّمُوا رقْصَ الحروبِ وجنِبوُا   رقْصاً يَضُمُّ بــه الشبابُ نِساءَ

(أحمد الصافي النجفي)

محمد بن لُعْبُون ، في قصيدته اللامية الرائعة في وصفه الغرامي والتي جاءَ مطلعهـا :

حَيَّ المنازِلْ تحِيَّةْ عيْـنْ　　لَلنّوْمْ والعَيْنِ سَهْرانَهْ
وآلاَّ تحيةْ غَرِيقَ الدَّيْنْ　　مِعْسِرُ ولاقاهْ ديَّانه[1]

والقصيدة إذا كانت على وزن ما يسمى (الهُجَيْنِي) فإن العرف المتبع لا يلزم الشاعر بأَن يستمر في إنشاده للأَبيات الكثيرة – بل يجوز أَن تكون القصيـدة (الهجينية) بيتين فقط لكي يسهـل حفظها على ملحنيها في أَسفارهم فوق ظهور الرواحل ، كما اسلفت – أَما المناسبة التي أَنشد الفقيد الشاعر قصيدته الآتيـة فقد جاءَت في غزوته إلى اليمن السالفة الذكر – وقد جرح أَحد رجاله المدعو (جَزَّاع) وكانت إصابته بالجرح في الوقت الذي كان العدو منتصراً بهجومـه ، والكرة على جريح كهذا من رفاقه المهزومين تعتبر انتحارية

---

(١) في رأيي لو قال ابن لعبون : (حَيِيْ ولاقاه ديانه) لكان ذلك أبلغ لأن المدان إذا كان لا يستحي فإنه لا يبالي بدائنه معسراً كان أو غير معسر ، أما إذا كان خجولا فإن سلامه واعتذاره من دائنه سوف يكونان إلى المعنى الذي قصده الشاعر أكثر بلاغة واصابة للهدف .

لمن يقوم بهـا ، كما سبق أَن أَشرت إِلى ذلك ، إِلا أَن أَحد رفاق (جزاع) أَبت مروءَته وشجاعتـه إِلا أَن يكر على رفيقه ، حتى ولو دفع حياته قرباناً لوفائه ورجولته ، كما هو الأَمر الواقع ، حيث قتل الكارُّ رحمه الله على صخرة الرجولة والنخوة ـ وهو المغفور له ـ فهيد بن بَرّاك السُّبيعي .

ويؤخذ من معاني القصيدة التي أَنشدها الفقيد أَنه لم يكن حاضراً تلك المعركة التي كَرَّ فيها ابن براك ، إِذ لو كان حاضراً لما وسعه إِلا أَن يشاركه في كرته ، ولا يسع المقاتلين وقتها إِلا أَن يكروا بجانبه ، راضين أَو مرغمين ، كما فعل ذلك في كرته على جهاز المدفع التي سبق أَن ذكرتها في الفصل الخاص بشجاعته ـ وقد جاءَ في البيت الأَخير من القصيدة معنى يهجو به رفاق ابن براك الذين لم يشاركوه في كرتـه هجاءً مُرّاً ، وإِليك القصيدة المختصرة :

عَلَيْتْ (يا فهيد بن بَرَّاكْ)

يَا لِلِّي ثَنَــا دون (جَـــزَّاعِ) [1]

المــدْحْ تستاهلــه بِمْنَـــاكْ

لَــوَ اَنْــتْ مَا تَسْمَعَ الدَّاعي [2]

لَوْمِكْ عَلى اللِّي رَقَى مَرْقــاكْ

واَقْفَـــى منَ الرِّيعْ مِرْتَــاعِ [3]



---

(۱) عـَلَـيْـتْ : عـَلاَ قدرك وارتفع لشجاعتك عن مواقف الذل وقد يكون يقصد عليك رحمة الله يا اللي : يا الذي . ثنىَ : كرَّ لما انهزم رفاقه .

(۲) تستاهله : تستحقه .

(۳) قفى : ادبر وانهزم – يهجو ويلوم رفاق فهيد الذين لم يكروا عندما كر بل تركوه وحده وهذا يدلنا ان لو كان المرحوم حاضراً لما تأخر عن الكرة .

الفصل الرابع عشر
مساعي الفقيد في الأعمال الخيرية



لا أَعتقد أَن هناك مجالا من المجالات الحيوية سواء الاجتماعية أَو السعي بإصلاح ذات البين ، أَو المجال الأَدبي أَو الانساني ، إلا ولفقيد الوطن ونبيل العروبة باع واسع ، وميدان فسيح الأَرجاء فيه ، ولا بُدَّ من أَن أَورد أَدلةً ناصعة على ما أَشرت اليه ، وإلا فيكون الحديث بدون دليل محسوس هُرَاء ، أَو كلاماً تَذْرُوه الرياح ، لا يستحق الخلود في عالم التاريخ .

وإذا كنت لا أَستطيع الإحاطة بكل ما قام به الفقيد من الأَعمال ذات النفع الشامل لمواطنيه ، فإنه لمن دواعي غبطتي أَن أَورد ما استطعت الحصول عليه أَو ما أُتيحت لي الفرصة بالإلمام به ، بادئاً بذكر جزءٍ يسير من الأَعمال الانسانية التي أَنجزها الفقيد وهي أَعمال خالدة ستشهد له مدى الدهر ، أُشير إليها على الوجه التالي :

جاءَ الفقيد من باريس إلى بيروت بعد مدة قضاها لعلاج مرض أَلمَّ به ، وذلك في سنة ١٣٧٢ هـ. وقد كنت ايامها في دمشق ، فذهبت اليه في فندق (بريستول) فأَلفيته يتدفق حيوية وأَريحية ، مُتَهَيِّئاً بأَن يجد أَي سبيل من سبل الخير ليقوم به .

لم يكن في تلك الفترة جالية سعودية في بيروت من المرضي أَو من المعوزين ، ولا من المصطافين ممن يجد فيهم النبيل مجالا يهبهم من أَريحته الدافقة ، وفي إِحدى زياراتي له ، أَلقى إِليَّ سؤالاً فهمت من مضمون سؤاله هذا أَنه يرغب بأَن يمنح هبة مالية لمواطني بلاده .

وقد وجدت نفسي بمواجهة سؤاله هذا بين ثلاثة أُمور :

أَوَّلاً ـ بدا لي من النبيل أَنه يعاني قلقاً نفسيّاً ناتجاً عن حرمانه في خلال المدة التي قضاها في (باريس) من عادة لم تتح له الفرصة في مزاولتها أَلا وهي عادة الإِنفاق والبذل للمستحقين من مواطنيه ، فهو والحالة هذه يشعر بمجاعة الكرم وبِظمإِ السخاء والبذل ،

والأنفاق لمواطنيه تلك السجايا التي لم يعتد أن يحرم منهــا مدة كتلك المدة التي قضاها خارج بلاده .

ثانياً ـ أدركت للوهلة الأولى من سؤاله السالف الذكر أنه إذا لم يجد مستحقين من أبناءِ بلاده ، فإنه سوف يغدق هباته على موظفي السفارتين السعوديين بسورية ولبنان على اعتبار أن سفيرهما واحد ،وهو المرحوم الشيخ عبد العزيز بن زيد .

ثالثاً ـ وهذا هو المهم عندي ـ وهو أنني كنت أُعاني قلقاً نفسياً بعدم قدرتي على نجدة وصيانة كرامة عدد من يتامى وأرامل وعجزة وشيوخ الجاليــة السعوديــة أُولئك الذين كان آباؤُهم يهاجرون إلى سورية وغيرها في طلب العيش عندما كانت بلادنا قاحلة مجدبة ، والحروب الأهلية فيهــا قائمة على قدم وساق ، قبــل أن يوحد الجزيرة المغفور له الملك عبد العزيز .

ومن مسلمات الأُمور أَن الفقير الجاهل الذي يأْتي من بلادنا لا يتمكن من أَن يتزوج في سورية إذا أَراد ذلك إلا من بيت فقير من وزنه أَو أَقل منه ، ثم إذا انجب هذا الغريب الفقير ثم توفي أَو شاخ أَو هرم فماذا

يكون مصير ذريته الأَطفال من فتيات وفتيان ؟! وما مصيره هو بعد هرمه؟ هل هناك مصير يلاقيه هؤلاء غير التشريد والبؤس ؟! ..

كان قلبي يتفطر عندما أَنظر إلى أَبناء بلادي من هؤلاء حين يأْتي أَحدهم إلى سفارة بلاده طالباً ثمن لقمة العيش التي تسد رَمَقَهُ .

وكنت واثقاً كل الثقة التي لا حدود لها أَن الفقيد إذا عرف عن هؤلاء الاملاق الشديد والفقر المدقع اللذين يعانيهم أَبناء بلاده ، فإنه لن يتأَخر لحظة واحدة عن نجدتهم وعطفه عليهم ورحمته بهم ، رحمه الله رحمة واسعة .

حينما وثقت أَن ذلك النبيل مصمم على أَن يبذل ما في يده للمستحقين من مواطنيه ، انتهزت تلك الفرصة وذهبت أَشرح له الوضع الراهن الذي يعانيه أُولئك البائسون. ولما كنت أُدرك مدى غيرته الشديدة على المعوزين بصورة عامة وعلى كرامتهم وصون اعراض نسائهم بصورة أَشد وأَخص ، فقد ذهبت اشرح له قصة فتاة

توفي والدها السعودي وهي على جانب كبير من الجمال ، كما كانت بمنتهى الاملاق والفاقة ، فكان جمالها شفيعاً لها ومغرياً لابن رئيس عشيرة من عشائر سورية بأن يتزوجها زواجاً شرعياً ، كما كان فقرها دافعاً لها بأن تقبل ذلك الزواج بأي ثمن يسد رمقها ويصون عرضها ، وبدون أن تحتفظ لنفسها بالشروط اللازمة في حالة كهذه ، كالمهر المقدم والمؤخر كما جرت به العادة في سورية .

وهكذا تم القِرانُ بين الزوجين ، هو يحفزه إليها ويغريه جمالها الفتّان ، وهي يدفعها اليه الفقر والحرص على صيانة عرضها . وقد ظل الزوجان فترة كافية بأن يقطف ابن رئيس تلك العشيرة ريعانَ شباب تلك الفتاة ، ثم بعد ذلك تخلى عنها بعد أن وثق أن شبابها ذَوَى ، وأصبحت كثمرة الليمون التي عُصِر ماؤُها . ولم يظل فيها الا الهيكل الخاوي ، ليس ذلك فحسب ، بل لم يتخلَّ عنها ذلك المجرم إلا بعد أن أنجبت منه مولوداً ذكراً ، ثم تمادى المجرم بجريمته أكثر فأنكر المولود ،

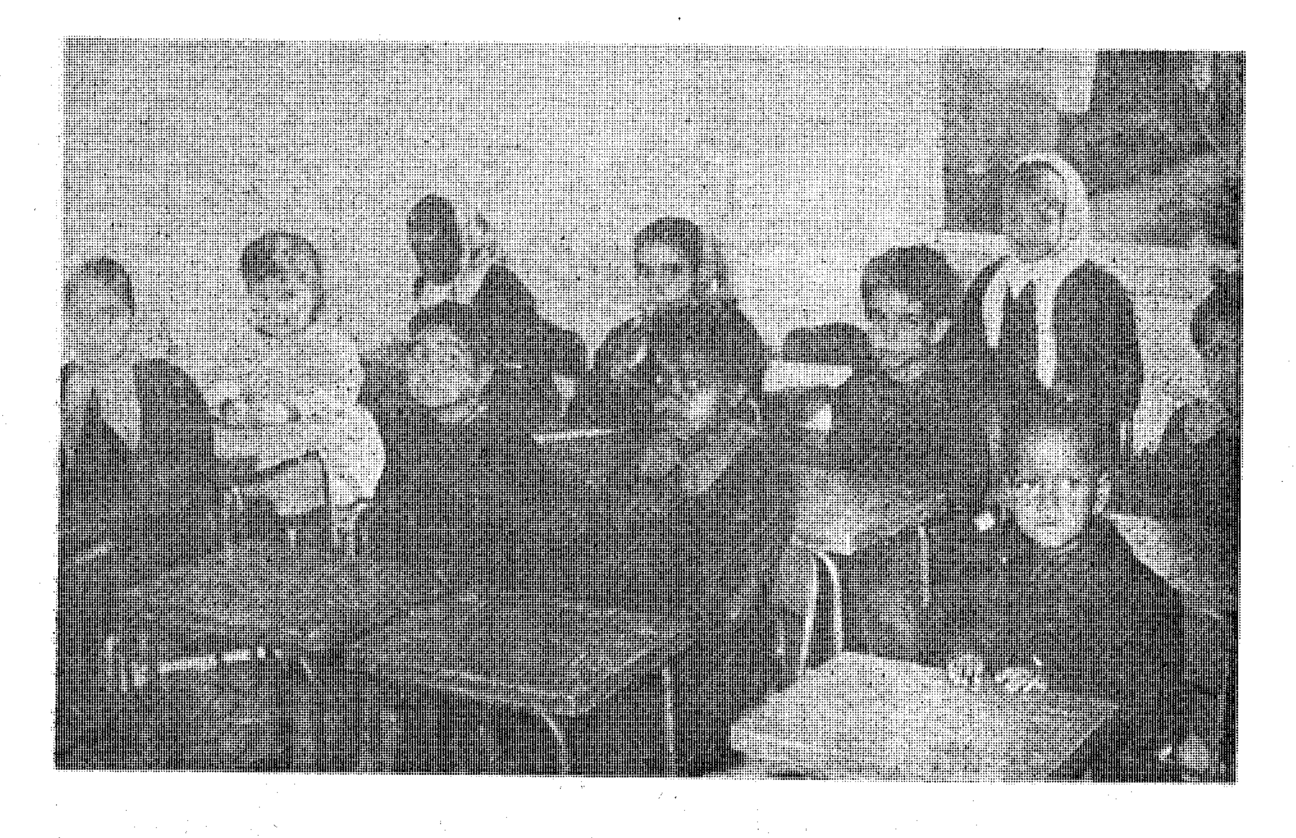
فجنا على الفتاة بحيث تركها غريبة فقيرة ، عاجزة عن إعالة نفسهـا ، فضلا عن أن تعول طفلا رضيعاً لا تسمح لها عاطفة الأمومة بأن تطرحه في الشارع ، كما لا يسمح لهـا وضعها التعيس أن تعوله وتربيه تربية حسنة ، كما جني ابن رئيس العشيرة على الطفل بأن تركه يعيش بين الناس بلا نسب .

حينما شرحت للفقيد حالة تلك الفتاة التي كانت من صميم الواقع ، ثم أكدت له أن أمثالهـا من فتيات وفتيان وطننا كثير في سورية ، التي كان يتوافد عايها المهاجرون من بلادنا بصورة مستمرة ، بعد شرحه هذا أيقنت وآمنت أن سردي لتلك القصة أثار نخوتـه العربية المعهودة ، وهزَّ مروءته الوطنية وفجَّرَ عاطفته الانسانية .

ولم يكن يقيني هذا مجرد حديث عابر ، بل إنه كان واقعاً عمليّاً ، وتطبيقاً فعليّاً ، حيث سألني على الفور قائلاً : ما هو مقدار المال الذي تظن أنه يفي بحاجة هؤلاء ؟ ..

كان من الأَساس قد اختمر في ذهني تأْسيس خَلِيَّة تَلُمُّ شمل فتيات بلادنا وتصون أَعراضهن ، لكي لا تُمْتَهَن عفتهن بدافع الفقر والفاقة ، كما تلم أَيضاً شمل اليتامى الذكور من الاطفال البائسين وتضم العجزة الهرمين والأَرامل الثكالى. وهكذا جاءَت مروءَة ونخوة وعاطفة الفقيد في أَمس الحاجة والضرورة اليها ، وفي الظرف الذي كما أَسلفت كانت تلك الفكرة في ذهني مجرد خيال ، وقد تكون هذه الفكرة نفسها خيالا ايضاً في نظر وفكر بعض الإخوان المواطنين السعوديين ، الغيورين

ولكن شتان بين من ليس له قدرة على إنجاز الأَعمال الحيوية إلا بخياله وأَمانيه ـ وإن كانت هذه الأَماني وذلك الخيال قد يصبحان حقيقة واقعية في بعض الاحيان النادرة ـ. وبين من لديه القدرة نفسيّاً وأَخلاقيّاً وإنسانيّاً ووطنيّاً بإخراج الخيال والأَماني من خبائها الكامن في الفكر والصدر إلى عالم الوجود بصورة عملية ، كما فعل الفقيد.



(من الفتيات اللائي اجتمع عليهن الفقر واليتم والغربة ، فماذا يكون مصيرهن
لو لم توجد المؤسسة التي غرس الفقيد نواتها)

ما ظننته خيالاً أبرزه الفقيد حقيقة

حينما طلب مني الفقيد بأَن اقدر له المال الكافي الذي تجود به أَريحته هبة منه لإخوانه المواطنين السالف ذكرهم ، لَفَتُّ كريم انتباهه إلى اقتراح عرضته عليه بالعبارات التالية : « إن أَية هبة تمنحها هؤلاءِ قاصداً توزيعها عليهم مهما كثرت لا يمكن أَن تكون إلا كالعلاج الذي يسكن آلام المريض فترة وجيزة ، دون أَن يجتث المرض من جذوره أَما إذا شئت أَن تحسن إلى هؤلاء فإنني أَرجو أَن توفق في إحسانك بوضعه في المحلّ الملائم الذي ينبغي أَن يكون شاملا للفوائد الآتية :

اولا ـ أَن يكون عملك في هبتك هذه عملا خالد الذكر بصورة أَبدية مدى الحياة ، لاهبة ارتجالية تذهب بذهاب وقتها .

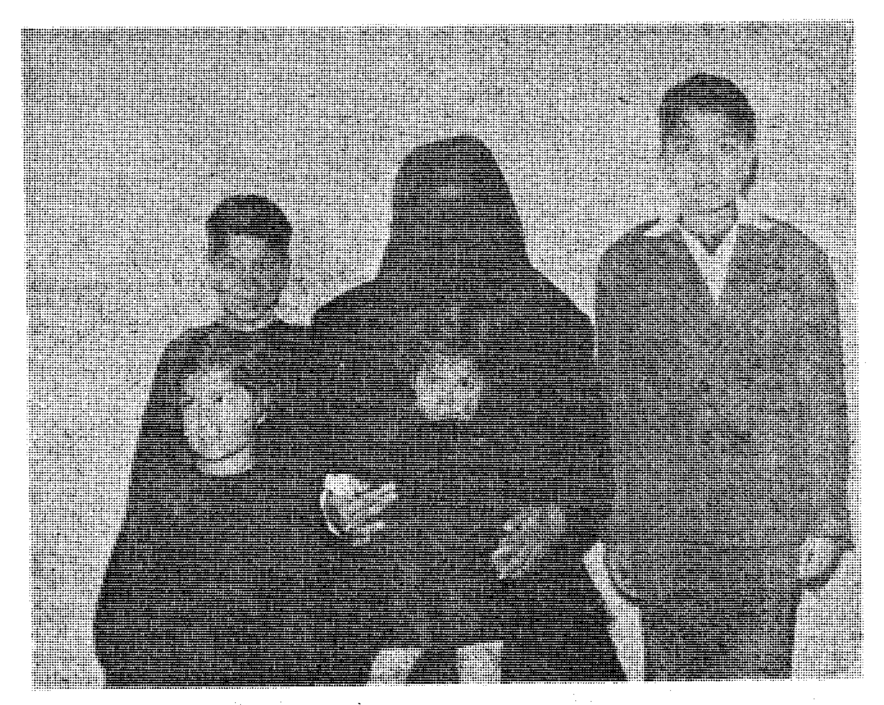
ثانياً ـ أَن تكون هبتك هذه كالعلاج الذي يقضي على جرثومة المرض قضاء تامّاً لامسكنا له ثم يعود بعد ذلك

ثالثاً ـ تكون بهبتك هذه سننت سنة حسنة يقتدي بها كل زائر سعودي من الأُمراء أَو من أَفراد الشعب الأَثرياء .

رابعاً ـ سوف يكون لك فضل السبق في غرسك البذرة الاولى للمشروع الذي هو عبارة عن فتح دار في دمشق تلم شتات الفتيات السعوديات وتصون عفتهن وتستر أعراضهن كما تلم شمل اليتامى والعجزة والأرامل الثكالى من بني الوطن.

خامساً ـ إذا برز هذا المشروع من حيز الخيال إلى حيز العمل والتنفيذ، وذهب المحسنون من المواطنين السعوديين وغيرهم يتنافسون على التبرع لعمل وطني كهذا، فانه مهما تبرع المتبرعون من الأموال، ولو زاد احدهم عليك زيادة مضاعفة بالعشرات أو بالألوف فإن الأجر والثواب وخلود الذكر في الدنيا والآخرة سيكون لمن سنَّ السنة الحسنة وغرس نواة هذا المشروع الذي هو انت».

بعد أن ذكرت المعاني التي عرضتها على الفقيد ـ لا بد لي أن أورد الحكمة العربية القائلة: «ليس الفضل لمن ينطق بالحكمة أو من يتكلم بها وإنما الفضل لمن يعيها وينفذها عملا وفعلا».



(أسرة تتكون من خمسة أطفال ووالدتهم توفي والدهم محمد جليدان أبو طقيقة من (المدينة) فقيراً فضمتهم المؤسسة حتى تخرج الأبناء الثلاثة وشغلوا وظائف مرموقة في الدولة ، وتزوجت البنتان فأصبحتا من ربات البيوت)

أجل ... إن الفضل كل الفضل لذلك النبيل ـ الذي كان يصغي لحديثي هذا بقلبٍ واعٍ يقظٍ وعقل رزين يميز به بين الصواب والشطط ، وذكاءٍ سريع الإدراك ، لا تنطلي عليه العبارات المنسقة من كلام الصدق ، البعيد عن النفاق والتزييف ، نعم الفضل له الذي حالما عرضت عليه فكرة هذا المشروع استوعبها وقرر العمل بها وبتنفيذها ـ إلا أنه أدباً منه وتواضعاً قال: من جهتي فإنني موافق على الفكرة موافقة تامّة وإنما أرى من الأفضل أن نعرض الموضوع على السفير عبد العزيز ابن زيد .

كنت واثقاً كل الثقة أن السفير سوف يبارك الفكرة ويحبذها ومصدر ثقتي هذه استلهمتها من علمي بأنه كثيراً ما يجري الحديث بين السفير وبيني في هذا الموضوع فأجد منه روحاً طيبة لقبول الفكرة ـ بل كثيراً ما سمعته يقول: إنني لا أغبط كثيراً ممن نالوا وظائف في الدولة كما أغبط مهدي الصالح ـ يقصد مدير الأمن العام في الحجاز سابقاً ـ على ما وُفِّق فيه



(الواقف هو مرزوق، ووالده المرحوم عليان الجبري الشاعر الشعبي المشهور من بادية المدينة (انظر جزء ٤ من شيم العرب للمؤلف ص ٢٨٤) والجالسان ممدوح موسى من الرياض . وعبدالله المرشود من (بريدة) وجميعهم الآن ضباط في الجيش السعودي وخلفهما عدد من زملائهما طلاب الدار) .



(هذا الشيخ هو المرحوم صالح الدبيّان من (بُريدة) ظل في رعاية المؤسسة كغيره من الشيوخ الذين ضمتهم ، بقي حتى توفاه الله بعد أن كفّ بصره)

بقيامه بعمله الطيب الذي هو فتح مدرسة داخلية للايتام الفقراءِ في مكة المكرمة .

فرجل أَعرف عنه هذه الروح الانسانية لا يعتريني شك بأَنه سوف يؤيد النبيل في الموضوع عندما يعرضه عليه ، ولم أَكن مخطئاً في حدسي ذلك أَنه مجرد ما عرض الفقيد عليه الفكرة رحب بهـا وأَقرّها ودعا له بالتوفيق في تنفيذه للهبة التي يجود بها كنواة أُولى لهذا المشروع .

أعثرتُ الوعدَ من الفقيد عهداً

تبادر إلى ذهني أَن الفقيد النبيل يود أَن يتبرع لهذا المشروع بمبلغ حَسَنٍ ، وأَن الذي بين يديه وقتها لا يفي بما يريد أَن تجود به نفسُهُ الكريمة . لذلك قلت له : (إذا كنت ـ طال عمرك ـ قانعاً في صواب الفكرة من حيث المبدأْ ، ووضعك الحالي لا يساعدك على دفع ما تريد ان تتبرع به ، بحكم كثرة الواجبات والهدايا التي حملتها من بيروت للرياض ، فإنني أَرى أَن ترجيءَ الموضوع إلى أَن تصل إلى الرياض ، ومن هناك تحول القدر الذي يأْمرك به الله) .

يبدو أَن كلامي هذا وجد فيه الفقيد حلاً لما كان يريد الوصول إليه ، بدليل أَنه وافق على هذا ووعدني بأَنه حالما يصل إلى المملكة فإنه سوف يحول لي الهبة التي يتبرع بهـا للهدف المنشود ـ هذا وقد سافر إلى المملكة والوعد منه لا زال قائماً .

لم يخامِرْني أَدنى ريب بأَن النبيل سوف يفي بوعده ،

بل اعتبرت وعده هذا عهْداً. فوجدت من الأَفضل أَلاَّ أَدع الفرصة تضيع ، ففكرت بالمبادرة في تنفيذ ذلك المشروع ، حالما تتاح لي الفرصة المناسبة ـ حتى لو تأَخر التحويل من الفقيد. علماً بأَنه لم يتأَخر وذلك أَن الفقيد ما أَن وصل الرياض حتى وردت برقية منه تتضمن إخباري بأَنه حول مبلغ سبعة آلاف ليرة لبنانية.

ولما كنت مسجلا لأَحداث وتاريخ قيام هذا المشروع في حينه فانني أُؤكد بأَن النبيل ـ غفر الله له ـ سافر من بيروت إلى بلاده المملكة في أَول يوم من شهر صفر عام ١٣٧٢ هجرية ـ ولم يكن بين سفره وتحويله للمبلغ إلا اياماً لا تتجاوز عدد أَصابع الكف ـ وهذا يعني أَن المشروع الآن بلغ واحداً وعشرين عاماً.

حالما ورد ذلك المبلغ إليَّ بادرت فوراً وسجلته باسم التاجر المعروف الأَخ محمد الزبن واعتبرته بموافقة السفير ابن زيد أَميناً لصندوق الجمعية.

الشجرة المباركة آتت أكلها شهيًا

بعد أن تبرع النبيل بذلك المبلغ الذي له قيمته في ذلك الوقت اجتهدت وبذلت كل ما لدي من الطاقة ، ساعياً في الجمع من الاخوان السعوديين من الأُمراءِ والأَثرياءِ. وفي مدة وجيزة وفقت لجمع مبلغ لا بأْس به ، وكان ما استطيع الحصول عليه أُحوله فوراً إلى أَمين الصندوق السيد محمد الزبن ، وقد تشكل الأَعضاءُ بعد ذلك بصورة عملية على النحو الآتي : السفير الشيخ عبد العزيز بن زيد رئيساً فهد المارق نائبا للرئيس وجابياً وأَمين سر الجمعية ، محمد الزبن اميناً للصندوق ، صالح ابن صالح ، ابراهيم بن خميس ، محمد العريفي ، سليمان العبد الله الغنيم ، عبد العزيز بن راشد ، علي الحمراني ، عبد المحسن الزيد ، أَعضاء. وقد تبرع السفير بثلاثة آلاف ليرة سورية كما تبرع كل واحد من هؤلاء بأَلف ليرة سورية ما عدا الحمراني وعبد المحسن الزيد وأَنا حيث كان تبرع الواحد منا بخمسمائة ليرة سورية .



بعض طلاب المؤسسة منذ ثماني عشر سنة . ولم يكن الأمر غريباً أن نرى الأطفال بالأمس رجالا يتولون الآن أعمالا حيوية في بلادهم المملكة العربيـــة السعودية .

وعندما توفر المال باشرنا في فتح المدرسة التي كانت ولا زالت تؤتي أكلها شهيّاً. ولا يسعني إلا الاعتراف بأنه بعد أن وضع الفقيد الحجر الأساسي لتلك الخلية الانسانية، انهالت التبرعات انهيالاً مرضياً، وذلك بفضل البذرة الأولى التي غرسها الفقيد، ثم وجود السفير ابن زيد الذي استفادت المؤسسة من جاهه، بصورة وجدتني اصطاد كل زائر يأتي إلى السفارة في دمشق أو لبنان من الأثرياء الذين يزورون بطبيعة الحال السفير الذي هو رئيس للجمعية، عندئذ اصطاد هذا الزائر ولا أفلته حتى يتبرع بل لا يسعه أمام سفير بلاده إلا أن يتبرع لبني وطنه من اليتامى والعجزة والأرامل.

وإنني لأعترف بأن للمرحوم الشيخ عبد الله آل سليمان اليد الطولى في تشجيعه لذلك المشروع، وتأييده له ومؤازرته إياه بصفته وزيراً للمالية. فكم من مرة ومرة أَنْصِبُ فَخِّي في مجلسه، واصطاد أُولئك الأثرياء الذين يحضهم الوزير على التبرع، ولا يسعهم إلا البذل بسخاء، بحيث استطعت في جلسة واحدة بأن أحصل

مائة وتسعين ألف ريال . وعلى الفور اشتريت عمارتين في جدة ، وسجلتهما باسم اليتامى والأرامل والعجزة المغتربين السعوديين ، كما اشتريت بيت سكنٍ لهؤلاء وسجلته باسمهم ، وهذه الأيام ايضاً طلبت من الأخ الشيخ محمد با حارث أن يشتري عمارة في جدة ، وفعلا اشترى العمارة وسجلهـا مشكوراً باسمهم . والأخ محمد من المتبرعين لهذا المشروع والمؤازرين له عندما كان سكرتيراً خاصاً لوزير المال عبد الله بن سليمان ،

وتضم الآن هذه المؤسسة الانسانية التي زرع بذرتها الفقيد العدد الآتي : مائة وخمسة وخمسين بين طفل يتيم وفتاة يتيمة وبين أطفال وفتيات وضعهما أسوأُ من الأيتام ، وكلهم سعوديون ، وعدد الذكور من هذه المجموعة سبعة وثمانون وعدد الفتيات ثمان وستون هؤلاء الذين الآن يعيشون في هذه المؤسسة ، موفر لهم الكساء والغذاء ، والسكن والتعليم والعناية الصحية .

اما المتخرجون من هذه الخلية منذ أن غرس نواتها الفقيد فهم مئتان وثمانية وعشرون بين فتى وفتاة ،

منهم مائة وستون فتى ، وثمان وستون فتيات ، وأما مجموع الأرامل والعجزة فهم ثمانية منهم ثلاثة جيءَ بهم إلى المؤسسة وهم في آخر حياتهم ، ومنهم من هو مكفوف البصر ومنهم من هو بحالة من الهرم يشبه المقعد. وبعد سنوات قضوها في هذه المؤسسة معتنى بهم جميعاً غذاءً وكساءً وسكناً وعلاجاً ، لقوا ربهم بعد عمر طويل لكل منهم ، أَما الأَرامل فهن ستٌ ، منهن من لقيت ربها ، ومنهن من ذهبت مع ابنها بعد أَن تخرج من الدار وباشر الحياة العملية ، لأَن المؤسسة كانت تضم اليتيم ووالدته فيما إذا كان اليتيم طفلا عاجزاً عن فراق والدته وإذا كانت والدته ايضاً فقيرة عاجزة عن فراق ابنها أَو ابنتها .

والذي تجدر الاشارة اليه هو أَن العدد الكثير ممن أَنجبتهم مؤسسة الفقيد النبيل أَصبحوا يمارسون الحياة العملية في نفس بلاد آبائهم ، والعدد الأَكثر منهم أَصبحوا الآن ضباطاً في الجيش السعودي ، والكثير منهم يحمل رتبة (نقيب) فما فوق – أَي وكيل قائد – والفتيات أَكثرهن تزوجن وأَصبحن ربات بيوت

صورة تجمع طلاب الدار عام ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م

وفي مناسبة أحسست فيها براحة ضميري وذهبت أسأل الله للفقيد أن يجزل له الثواب - وهي مناسبة لا أنسى مقدار السرور الذي غمر كياني - عندما كنت منذ أربع سنوات أسير في أحد شوارع مدينة (خميس مشيط) راكباً سيارة مدير الأمن هناك الاخ اللواء عيسى المشاري، وكان عيسى يقود سيارته بنفسه، في تلك اللحظة اعترض للسيارة شاب مفتول الساعدين يرتدي (بدلة) عسكرية تلمع النجوم فوق كتفيه، وقد رأيته يشير بيده للواء عيسى بأدب، فوقف له مدير الأمن ولكنه تجاوز المدير وجاء إليّ يقبلني كما يقبل الابن البار والده، ومضت فترة لم أعرف من هو هذا الشاب، حتى أني ذهبت أسأل اللواء عنه فلاحظ الضابط الشاب عدم معرفتي له، فذهب يعرفني بنفسه وإذا هو عبد الله المرشود، الذي كان هو وشقيقته آمنة أول من ضمتهم تلك المؤسسة الخيرية، حيث توفي والدهما وأصله من مدينة (بُريدة) في القصيم وتركهما عند اخوالهما الفلاحين في إحدى قرى حوران، فبلغني

أمرهمـا ووضعهما البائس فأرسلت إليهما وجاءَ بهما أَحد أَقرباء والدتهما ، وعبدالله في السنة التاسعة وأَما شقيقته آمنة فإنها تصغره .

لم يفلتني الضابط المرشود حتى استأذن لي من مضيفي مدير الأَمن ، فذهبت معه بسيارته «المرسيدس» حيث أَدخلني دارته (فلته) المبنية بناء حديثاً. وهناك عرفني بزوجته التي كانت من الفتيات اليتيمات وتدعى تركية المرزوق أَبوها من أَهل مدينة الرياض يدعي مرزوق العبد العزيز ، وكانت هي وشقيقتهـا في مؤسسة الفقيد فتوفيت أُختها وتزوجت المرشود الذي نحن بصدد ذكره ، كمـا عرفني بشقيقته آمنة التي أَصبحت قرينة لضابط تلمع النجوم فوق منكبيه – وكل من زوجته وشقيقته يتبعهن أَكثر من مولود من الأَطفال .

* * *



صورة تجمع تلميذات المؤسسة عام ١٣٩٣هـ. ١٩٧٣م.

ولم يكن الضابط المرشود بِدْعاً من نوعه ، بل هناك عدد من الفتيان الذين أَصبحوا ضباطاً في الجيش السعودي وسيكونون قادة أَلوية عما قريب ، وهناك عدد من الفتيات اللواتي أَصبحن سيدات بيوت ، وهناك عدد من الأَرامل والعجزة الذين لمت شملهم خلية الفقيد ، أَجل هناك عدد من هؤلاء وأُولئِك كانوا عرضة للتشريد والبؤس ، لولا عناية الله التي وفق لها الفقيد ، فأَصبح صاحب اليد الطولى ، في وضع اللبنة الأَساسية لتلك الخلية الوطنية الإنسانية ، نسأَل الله تعالى أَن يشمله بلطفه وعنايته ورحمته كما لطف واعتني ورحم ابناءَ وطنه الذي اجتمع عليهم مع وحشة الغربة اليتم والفقر والترمل والعجز والهرم .

هذا وقد أَكد لي الأَمير بندر نجل الفقيد أَنه هو ووالدته وإخوته قرروا بأَن يشتروا ارضاً تعمر فوقها عمارة تكون على الطراز الحديث يسكنها هؤلاءِ الأَيتام واليتيمات ، ويكون عملهم هذا امتداداً لمبرة والده ـ غفر الله له ـ ووقفاً لروحه الطاهرة ، ولما كانت هناك

نية لدينا تستهدف إقامة حفل يدعى له بعض الشخصيات بمناسبة مرور عشرين سنة على تلك المؤسسة فقد طلبت من الأَمير بندر ان يؤجل الموضوع إلى أَن يقام الحفل المذكور لتكون المناسبة مواتية ـ غفر الله لصاحب البذرة الأُولى المباركة التي آتت أُكُلَها شهيّاً.

* * *

الفصل الخامس عشر

في كفاءته عندما تولى إمارة حائل



إذا كانت المناصب امتحاناً فهل نجح الفقيد؟!

لا أرى في هذا السؤال ما يدعو إلى الاستنكار ، فهو سؤال منطقي لا غرابة فيه ، وذلك أننا حينما ننظر بعمق إلى المعاني التي تلوح لنا من وراء هذا السؤال نرى أن التاريخ يحدثنا كما يحدثنا الأدباء والحكماء وذوو التجارب بصدق أن أصعب شيءٍ معرفته هو جوهر الرجل ، فكم يغتر أحدنا بشخص يعاشره عمراً طويلا ، ظانّاً به أنه أهل لكل مكرمة وفضيلة ومعتقداً أنه سيكون مضرب مثلٍ للنجاح ، في أيّ عمل يسند إليه ، أو أي منصب يتولاه ، ومن ثم تأتي حادثة مفاجئة من حوادث الدهر فتبين أن جوهر هذا الشخص ومعدنه ، وكفاءته وموهبته مخالفة لما يتظاهر به ، وكثيراً ما تأتي الملمات والمحن ، مبرزة لشخصية رجل مثبتاً كفاءة ورجولة لا يتصور هو نفسه أن هذه الموهبة وتلك الكفاءة متوفرتان في كيانه ، ولهذا نجد المثل اليوناني المترجم

إلى العربية ـ أَصاب كبد الحقيقة عندما قال : (إنَّ الأَبطال الصناديد والجبناءَ الرعاديد لم تصنعهم الحوادث وإنما تكشف عنهم الغطاء) .

وإذا كان من المستحيل الوصول إلى معرفة جوهر الرجل ، والغوص إلى حقيقة معدنه ، فإن الحكماءَ وذوي التجارب حدّدوا الوصول لمعرفة هذه المعاني بالمناسبات الآتية : إمَّا بالحرب ، وإما بالمعاملة ، وإما بالمنصب .

فالحرب إذا خاض غمارها المرءُ كشفت عن جوهره الغطاءَ شجاعاً أَكان أَم جباناً ، والمعاملة المالية تعبر عن حقيقة المرء فيما إذا كان أَميناً ووفياً صادقاً ، أَم أَنه مضلل محتال ، والمنصب ربما يكون الامتحان فيه أَشدّ عنفاً مما سواه فهو محك قاسٍ لاختبار كفاءَة الرجل ، وإبراز موهبته ، وفحص مقدرته ، إن كان ذا كفاءَة ، أَو إبراز عجزه وضعفه إذا كان المنصب أَكبر من قدرته .

* * *

من أدلّة نجاح الفقيد في منصبه

لا بُدَّ أَن أُجيب على السؤال القائل: إذا كانت المناصب امتحاناً فهل نجح الفقيد في هذا الامتحان؟ ...

الجواب: نعم نجح المغفور له نجاحاً عمليّاً في المرافق الثلاثة الحيوية الآتية:

أولا: نجح نجاحاً ملحوظاً في إصلاحه، الرامي إلى تسوية الخلافات بين أَهل البلاد.

ثانياً: نجح نجاحاً له أَهميته في مساعيه العمرانية التي رفع بها مستوى المنطقة .

ثالثاً: نجح في سياسته الإنسانية الحكيمة التي ملك بهـا قلوب أَهل البلاد قاطبة.

ويطيب لي أَن أَشرح ما استطعت شرحه لهذه الأُمور الثلاثة، بادئاً بالأَمر الأَول الخاص في حسن تصرفه في تسوية الخلافات بين أَهل البلاد، وفي جهده الذي بذلـه لإصلاح الشأْن بين مواطنيه، وهي جهود تحتاج إلى شرح وافٍ يسرني أَن أُوضحه كما يلي: جاءَ المغفور له إلى مدينة حائل وأَهلهـا منقسمون إلى فريقين

متنافرين ، شأنهم كشأن أهل أي بلد قريب العهد بالتقاليد القبلية ، القائمة على نوع من النعرة البدوية ، التي وإن كان فيها شيء من المحاسن كالإباء والشمم وعزة النفس والكرم والشجاعة فإن فيها مساوئها كتجسيد الحزازات ، والتحيز العنصري ، والحمية الجاهلية للعشيرة ، إن كان بدويّاً ، وللحي إن كان حضريّاً ، والإصرار على أخذ الثأر ، إلى آخر العادات التي ورثها العرب من العهد الجاهلي ، والتي حاول الاسلام تمزيقها ما استطاع ، إلا أن جذورها بقيت ، وظلت أكثر رسوخاً في المحيط والبلاد القريبي أهلها إلى الحياة القبلية كحائل تلك البلاد التي كما أشرت آنِفاً أن الفقيد جاءَ اليها وأهلها منقسمون إلى فريقين متنافرين ، وكل فريق مقاطع للفريق الآخر ، ومثال على ذلك الفريق الذي في شرقي البلاد لا ينسجم مع الفريق الذي في غربيها وبالعكس بل وعدد من هؤلاء وأُولئك لا يؤدي التحية العربية الاسلامية للقسم الثاني ، حتى في مناسبات الأَعياد . أَجل جاءَ الفقيد إلى البلاد

وأهلهـا على الصورة والشكل اللذين مر بنا ذكرهمـا وكان أول عمل قام به في اصلاح شأن أهـل هذا البلد الذي لعبت التفرقة بينهم دورها البعيد المدى هو أنه عندما جاءَ إليه فريق منهم يدعوه إلى إقامة حفلة على شرفه ، رفض طلب هذا الفريق المفرد ، وأصر بأن تكون الدعوة باسم أهل البلاد جميعاً ، لا أن يقوم كل فريق من المتناحرين بدعوة منفردة ، فاستجابوا لأمره ، وكان عمله هذا يحمل في طياته فائدتين الأولى معنوية ، والأخرى اقتصادية فأما الأولى فإنـه بعملـه هـذا خطا خطوة موفقة لهـا ما بعدها في اصلاح شأن أهـل البلاد ، وإزالة الحزازات والنعرات من قلوبهم .ـ وأما الفائدة الاقتصادية فإنه وفر لأهل البلاد الأموال الطائلة التي سوف يبذلهـا الفريق الداعي بإسراف لا فائدة منه ، محاولا كل فريق بأن يربح قصب السبق على الفريق الثاني في بذله وسخائه لأمير بلاده .

ومما تجدر الاشارة إليه ان رسالة الفقيد التي قام

بها في حياته التي استهدف فيها إصلاح شأن اهل البلاد وتأليف قلوبهم فيما بينهم وإزالة ما في نفوسهم من رواسب الضغائن والتشاحن ـ هذه الرسالة وإن كان الاجل وافاه قبل أن يحققها على الوجه الاكمل الذي يصبو اليه ، فإنها بعد وفاته مباشرة آتت أُكلها شهيّاً.

كيف كان ذلك؟ الجواب هو انه ما إن بلغ اهل مدينة حائل نعي الفقيد حتى وجدوا انفسهم أن خير عمل يقومون به ، ويرضي عنه أَميرهم الراحل وهو في قبره ، هو أن ينفذوا رسالته بصورة أَنستهم ما بينهم من الخلافات الشكلية ، وذهب بعضهم يعزِّي بعضاً بأُسلوب أَشبه ما يوصف به إخوان أَشقاء ، كانوا متشاحنين تشاحناً شكلياً ، فبلغهم نعي والدهم فراح يُعَزِّي بعضهم بعضاً بالمصيبة التي اشتركوا فيها ، وجمعتهم بالأَسى والشجون كلهم على صعيد واحد.

هكذا كانت رسالة الفقيد لإصلاح الشأن غرس بذرتها في حياته ، واينعت ثمرتها بعد وفاته. وهل تريد دليلا على صلاح قصد صاحب الرسالة ، وعلى

حرص محبيه على تنفيذ رسالته أَكثر وأَوضح من الدليل الذي رواه الثقات من أَهل البلاد الذين أَكدوا أنـه هناك نفر من أَهل مدينة حائل بينهم وبين نفر آخر جفاء راسخ الجذور ، بعيد المدى تمتد أَسبابه وحوافزه إلى ما قبل أَن يوحد البلاد المغفور له الملك عبد العزيز ـ أَي منذ إمارة آل رشيد ، والقطيعة بينهما لم يزدهـا الدهر والسنون إلا شدة واحتداماً ، ولم تنته هـذه الحزازات وتتمزق إلى الأَبد إلا في الفترة التي فوجيءَ به أَهل البلاد بنعي أَحب حاكم إلى قلوبهم ، عندئذ ذهب بعضهم يُقَبِّلُ بعضاً والدمع يسيل من مقلتي كل فرد منهم .

بين يدي الآن رسالة وردتني من مدير (معهد العاصمة النموذجي) في الرياض ، وفي هذه الرسالة من المعاني ما هو مؤيد ومؤكد لما أَوردته عن الأُسلوب الذي يتخذه المغفور له بإصلاح ذات البين ، وهو أُسلوب يعبر لا عن حسن قصده وسلامة طويته فحسب ، بل وعن مـا يتمتع به من مقدرة وكفاءة على حل المشاكل ، وعلى

رغبته في إصلاح الشأن ، واليك الرسالة كما جاءت بنصهـا الحرفي الآتي :

أخي الكريم الاستاذ فهد المارك المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فقد بلغني أنكم تقومون بجمع معلومات عن المرحوم الأمير فهد بن سعد ، وهذا عمل طيب تشكرون عليه ، لأن سمو الأمير فهد رحمه الله من الرجال الأفذاذ ، الذين اتصفوا بمكارم الاخلاق والنبل والشهامة والعطف ، وحب الخير للناس جزاه الله خير الجزاء وجعل الجنه مثواه .

وحسبما أسمعه وما شاهدته فإنه رحمه الله يمتاز بخصال جميلة ، جعلته محبوباً في حياته وفي مماته ، وبهذه المناسبة فإنه يسرني أن أسرد لكم قصة طريفة شاهدتها بنفسي منه في مجلسه في إمارة حائل في شهر ذي الحجة عام ١٣٩١ .

كنت في حائل في إجازة عيد الاضحى المبارك عام ١٣٩١ لقضاء الإجازة عند أهلي وأقاربي ، وزرت سمو الأمير عدة مرات ، وكنت حريصاً على زيارته لأنني لا

أَعدم الفائدة عن مجلسه الحافل بطيب القول وجميل الفعل ، وذات يوم وهو كعادته يحدث الجالسين ، والابتسامة تشرق من وجهه ، استأْذن أَحد رجاله لإِدخال بعض المتخاصمين ، ودخل رجلان اشمطان في العقد السادس من عمرهما ، ومعهمـا طفل صغير ، لا يتجاوز العشر سنوات ، وعلامات الغضب والحقد تطفح على وجهيهما ، وادعى أَحدهما ان ابن عمه ضرب ابنه على وجهه بدون سبب ، وهو صغير ، فتحفز الأَمير رحمه الله ، واهتم بالأَمر وناقشهمـا مناقشة هادئة ، واتضح أَنهما حضرا من مسافة تزيد على مائة كيلومتر ، وإِن المشكو أَمير القرية وأَن الشاكي ابن عمه ، وأَن الطفل هو ومجموعة أَطفال معه عبثوا بزراعة عمهم وأَشجاره ، وأَنه طردهم وضربهم ضرباً عاديّاً ، بعيداً عن الحقد ، وحينئذ تـأَثر رحمه الله وأَخذ يوبخهما قائلاً : سبحان الله العظيم أَين المروءَة ؟! أَين الرجولة ، أَين الانسانية ، أَين حسن القرابة ، أَين حق الجوار ، أَين الشهامة ؟! أَنتمـا ابنا عم ، وأَحدكما مسؤول عن القرية أَمـام

الدولة ، وقضية طفل بسيطة تثيركمـا وتدفعكما للشكوى ،واحتمال مصاريف السفر وتكاليفه ، وتعرضكما للشماتة ، أَنت يا والد الطفل لو فرضنا ان ابن عمك كسر يد ولدك خطأً أَو عمداً فواجبك أَن تقابل ذلك برجولة وثبات ومروءة ، وتكون أَطيب منه وأَقرب منه للصواب ، وأَنت يا أَمير القرية ، ويا صاحب البستان لو فرضنا أَن الطفل الذي هو ابن عمك وقريبك ، لو فرضنا أَنه قطع أَشجار بستانك كلهـا ، فواجبك أَن تأْخذه بالرفق ، وتشعر والده ، وتعالج الأَمر معالجـة حكيمة ، ثم إنني فهمت منكما أَنكما لا تكلمان بعضكما منذ عدة سنوات ، فما هو السبب ؟ ! وعملكما هذا يخالف شرع الله ، ويخالف الشهامة والمروءة ، والآن لكما عندي رأْي أَن تتصالحا أَمامي ، حيث لم أَرَ سبباً واضحاً للخلاف ، والطفل أَنا مستعد أَن أُعطيه مكافأَة عن ضربه ، فلم يوافق والد الطفل ، وطلب من الأَمير ـ رحمه الله ـ أَن يعطيه حقَّ الله ،وفعلا كلف احد رجاله باحالتهمـا للشرع ، وما إن خرجا من المجلس حتى شعرا

جميعاً بالندم ، وطلبا من سمو الأمير أن يصفح عنهما ، واعترفا أنهما كانا مخطئين ، وشكرهما الأمير ، وكان ذلك أمام الحاضرين في مجلس الامير ، وبعد ذلك انصرفا بعد أن تصالحا وتسالما ، وبعد أن كافأ الأمير الطفل. فسر الحاضرون بهذه الطريقة الطيبة ، ويا ليت أن كل مسؤول يعالج المشاكل على هذا المستوى من الاهتمام !! وأنا واثق لو احيلوا إلى الشرطة والمحكمة فإن الأمر سيستحكم ، والخلاف سيتفاقم وتكون النتائج أشد سوءاً. وفق الله العاملين المخلصين ، والله يحفظكم ،

٢٣ ـ ١٢ ـ ١٣٩٢ المخلص صالح البكر

* * *



ظروف ساعدت الفقيد

أَما وقد انتهينا من ذكر نجاح الفقيد في الأَمر الأَول السالف الذكر فما علينا الآن إلا أَن نأْتي إلى الحديث عن نجاحه في الأَمر الثاني ، ولكن قبل أَن نتحدث عن نجاحه الملحوظ في هذا المضمار يجب أَن لا يسقط من حسابنا الحديث عن عاملين رئيسين من أَهم عوامل النجاح ، وهذان العاملان توأَمان لا يفترقان ، إذا افترق أَحدهما عن الآخر أَخفق المرء بنجاحه ، وهما الكفاءة من ناحية ، والظروف المواتية من ناحية أُخرى — تلك الظروف التي نسميها بتعبيرنا الشعبي إذا وفق أَحدنا في أَمر حيويّ من أُمور الحياة قلنا عنه : (فلانٌ خَدَمَهُ الحظُّ) ومن يتدبر أَحداث التاريخ بِعُمْقٍ يَجِدْ أَنه ما من شخص لازمه النجاح في أَي عمل من الأَعمال إلا وكان وجود هذين العاملين متوفِّراً ، فالسخي مثلا لا تبرز موهبة سخائه إذا كان فقيراً ، والشجاع لا تبرز شجاعته ما لم تتوفر له الأَسباب التي أَهمها جبن وتفكك

الخصم ، والسياسي المحترف أو بتعبير أَوضح السفير أَو رئيس البعثة لا يلمع نجمه كسفير ناجح في مهمته مهما أُوتي من الذكاء والدهاء ما لم تكن الظروف كلها متيسرة له ، ومن أَهم تلك الظروف أَن تكون بين حكومته وحكومة البلاد التي يمثل بلاده فيها علاقات على غاية من الوفاق ،وإلا فسيكون رئيس البعثة فاشلاً لا محالة إذا ساءت العلاقات .

لقد استرسلت في الحديث عن هذين العاملين لأَصل إلى النتيجة التي أُؤكد بها القول أَن من حسن توفيق المغفور له أَنه بالإضافة إلى مقدرته وكفاءته توفرت له ظروف مواتية ساعدته في نجاحه بمهمته حتى أَصبح سبيله إلى النجاح متيسراً لا يحتاج إلى كثير من العناء.

كيف كان ذلك ؟! الجواب كالآتي : جاء الفقيد ، والظروف كلها كانت مواتية ، فالأَمير السابق قد أَنهى المهمة التي قام بها في ظرفها المناسب حينذاك منذ خمسين سنة ، وبات لا يفكر إلا بعبادة ربه ، وآخرته أَكثر مما يفكر في دنياه ، فهو يرى أَنه عمل في الظرف الذي عيِّن فيه ما يمكن أَن يقوم به الرجال الأَكفاء

ذوو الحزم الصارم ، في زمان ومكان يستوجبان ذلك ، أَما بعد أَن انتهى ذلك الظرف ، وتلاشت فيه قوتـــه بمرور السنين ، فلم يعد أَمامه ما يفكر به إلا صالح الأَعمال النافعة في آخرته . أَما الدنيا الفانية ذات الصلة بمنصبه ، فقد وكل أَمرها إلى رجال من (خوياه) الذين تعاقبوا على تلك المهمة ، ومن عادة الوكيل أَنه بطبيعة حاله ليس كالأَصيل .

وهكذا جاءَ الفقيد إلى البلاد والظروف كلهـــا مواتية لإبراز موهبته وكفاءَته ، فالمشاريع التي منها ما هو موضوع في ميزانية الدولة ولم ينقصه إلا التنفيذ باشر الفقيد فوراً بتنفيذها ، والتي يجري فيها البحث في وضعها في (الميزانية) وسعى بمختلف جهوده لـــدى المسؤولين حتى جعلها حقيقة واقعة . فالمواصلات التي تعتبر الشرايين لأَية مدينة كانت هذه الناحية الحيوية وان كان قد رصدت لها الدولة كل سنة قدراً معيناً ، إلا أَن هذا الرصيدلم يأْخذ مأْخذ التنفيذ حتى جاءَ الفقيد وسعي لتنفيذه وعهد بالقيام به إلى ثلاث شركات كلها تتنافس في تعبيد الطريق المؤدي من مدينة الرياض إلى مدينة حائل ، مروراً بالقصيم واصلاح شوارع المدينة

التي مرصود لها في الميزانية منذ سنين خلت ـ هي أيضاً لم تنفذ ، حتى جاءَ وباشر بتنفيذها ، والصناديق والأَكواخ التي كانت موضوعة في مدخل المدينة وأَمام قصر الإمارة بالذات بصورة مزرية ومشوهة ـ أَمر بازالتها وقصر الإمارة الذي كان مبنياً من الطين منذ أكثر من قَرْنٍ سعي بأَن يعمر على الطراز الحديث وفي مناخ صحي مناسب. والمطار الذي كان قريباً من قلب المدينة بذل جهوداً موفقة لأَن يبعده مسافة خمسة عشر كيلو متراً عن المدينة ، والأَراضي التي كانت توزع من أَملاك الدولة لم يوزع من أَراضي البلاد أَو يهب أَي إنسانٍ على الرغم من انه المعروف بسخائه الذي لا حدود له وبمروءَته الدافقة ، وهيبة الحاكم التي لا عنف فيها ، ولينه ورقته اللتين لا ضعف فيهما كل هذه المزايا والجهود التي بذلها ، والظروف المواتية التي ساعدته على القيام والتنفيذ لتلك الأَعمال ، كل من هذه وتلك ، كسته هيبة ووقاراً . بالإضافة إلى الأَعمال التي عبرت عن شهامته ومروءَته وإنسانيته تلك الأَعمال التي قرنت هيبته ووقاره بمحبة أَهل البلاد وولائهم له ـ وهي أَعمال سوف أُوردها في البند الثالث الآتي :

كانت أخلاق الفقيد عاملاً في نجاحه

إذا كنت ذكرت أن الظروف المواتية التي ساعدت الفقيد على نجاحه في الأمر الثاني مع ما أُوتي من الكفاءة ، فإنني لست بحاجة بأَن أؤكد هنا بأَنَّ أَخلاقه النبيلة ، وأُسلوبه الموفق الرشيد في حسن معاملته لمواطنيه ، وسياسته الحكيمة وسجاياه الفاضلة ، كل هذه الصفات الكريمة كونت عاملا رئيسيّاً استطاع بفضله أَن يستولي على قلوب أَهل تلك المنطقة ويسترق أَفئدتهم بالأَعمال الإنسانية ، التي جعلت المواطن لا يشعر بنفسه أَنَّ هناك فروقاً بينه وبين حاكم بلاده الفقيد الوديع ، وذلك بفضل سيرته المتواضعة التي عاملهم بها على الوجه الآتي :

أَولا – أَنه لم يترك بيتاً إلا دخله من بيوت أَهل البلاد الذين تنافسوا على دعوته وإكرامه .

ثانياً – لم تمر فترة وأُخرى أَو يأْتي من غيابه عن البلاد ولو كان غيابه قصير المدة ، إلا ويذهب بنفسه للشيوخ المقعدين والمكفوفين من أَهل البلاد ، يتفقدهم

واحداً واحداً. هذا بالنسبة للشيوخ الكبار السن ، الذين لهم من الوضع الاقتصادي ما يجعلهم في غنى عن الصدقة.

أما الشيوخ المعوزون فإنه لم يكتف بالزيارة فيما إذا أدرك أنهم في حاجة بل يمنحهم هبات مالية ، ويعدهم بأن هذه الهبة ستكون متصلة ومستمرة ، فيعيش الشيخ الهرم بسرور من تلك الهبة ، ومن كون أمير بلاده يقف عليه ويتفقده هو بنفسه ، وهذا أمر لم يألفه ولم يحلم به ، كما يعيش بلذة وسرور من الأمل الذي وعده به أميره بأن مثل تلك الهبة ستكون مستمرة.

ثالثاً ـ كان بين فترة وأخرى يخرج في سيارته بنفسه كأنه خارج للنزهة بينما قصده من خروجه تفقد فقراء أهل بلاده ، فحالما تقع عيناه على فقير ينزل هو بنفسه ، ويضع بيده القدر الذي لم يحلم به ذلك الفقير

رابعاً ـ والاهم من جميع ما سلف ذكره ـ ان المدة التي تولى فيها المغفور له إمارة منطقة حائل على الرغم من أنها قصيرة الأمد ، لم تكمل السنتين من حين صدور المرسوم الملكي بتعيينه. إذْ إقامته في حائل

لم تتجاوز أَشْهُراً معدودة بحكم المرض الذي يعانيه ، حتى لقي بسببه ربه ، ولكنه في هذه المدة الوجيزة والتي يعاني فيها مرض الموت ، تمكن أَن يقضي إلى الأَبد على تلك الفرية التي اختلقها الواشون النمامون القائلون كذباً وبهتاناً : (إن أَهل حائل لا زال في نفوسهم رواسب من الماضي) .

ذلك الماضي الذي ولى وذهب إلى غير رجعة ـ منذ فترة تزيد عن نصف قرن .

تلك الفرية الخطيرة التي طالما جسدها وحمل لواءَها شخص واشٍ مرتزق (توفاه الله) ولا عجب فقد وجد هذا الواشي وغيره من الوشاة في تجسيدها مصدراً للرزق . والجاه معاً ، ولكن لحسن الحظ لم تجد هذه الفرية الكاذبة قبولاً عند ذوي الحل والعقد ، هذا لا يعني أَننا نقيم من حسابنا المثل الذي قال عنه الحكماءُ : يهدم الواشي النمام بوشايته وافساده في الساعة ما يقوم به السحرة بخمسين عاماً ، وما يكلف المخلصون المصلحون جهوداً

جبارة في عمار واصلاح ما قوض صرحــه أُولئك الوشاة النمامون المفسدون .

أَجل لقد كان لتلك الجهود الطيبة التي بذلها الفقيد لما تولى أَزمة الأُمور في البلاد التوفيق الملحوظ حيث استطاع بفضل ما أُوتي من حكمة وبعد نظر وما وهبه الله من سلامة النية ، وطهارة القلب ، لأَن النية الصافية النقية والقلب السليم الطاهر عليهما مُعَوَّلٌ كبير في نجاح المرء في أَي عمل يقوم به من الأَعمال .

حقاً استطاع الفقيد أَن يجعل تلك الفرية التي اختلقها النمامون المرتزقون تتفتت وتذوب على صخرة سجاياه الفاضلة ،

فنتج عن مساعيه هذه الكريمة الموفقة أَنه حينما لَبَّي نداءَ مولاه وذهب إلى جوار ربه عند ذلك لم يكن بيت من بيوت أَهل تلك المنطقة بدوها وحضرها إلا ودخل عليه حزن شديد ، وفاجعة أَذهلتهم جميعاً عن بكرة أَبيهم ، فالشيوخ بكوه كما يبكي أَحدهم ابنه البار ، والنساءُ بكينه كبكاءِ الثكالى لأَبنائهن ، والرجال

بكوه كما يبكي كل واحد منهم شقيقه الوفي ، والأَطفال فتيان وفتيات بكوه كما يبكي وينعى الأَيتام والدهم الحنــون .

وأَكَّد الرجال الثقاة الذين جاؤُوا من تلك البلاد أَن شيوخاً معمرين يذكرون وفاة أَمير البلاد السابق محمد ابن رشيد المتوفي عام ١٣١٥ هـ. أَقسم هؤلاءِ الشيوخ للرواة أَنهم لا يذكرون أَن أَهــل هذه البلاد نعوا وبكوا وحزنوا وفُجِعوا بموت أَيّ حاكم من حكام بلادهم ـ بما فيهم محمد بن رشيد ـ كمــا نعوا وفجعوا ودعوا من صميم قلب كل واحد منهم للفقيد بجنة الخلد . والمغفرة من رب رحيم كريم ، جدير أَن يشمل برحمته وغفرانه مؤمناً كريماً كفهد بن سعد .



مساعي الفقيد لإصلاح ذات البين

الآيات القرآنية الكريمة ، والأَحاديث النبوية وأَقوال الشعراءِ في الحث على إِصلاح ذات البين كثيرة لا تعد ولا تحصى . وإِنما نود أَن نختصرها ما استطعنا يقول الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز : (لا خَيْر في كثيرٍ من نجواهم إلا مَنْ أَمَرَ بصدقةٍ أَوْ معروفٍ أَوْ إِصلاحٍ بين الناس) .

ويقول النبي عليه الصلاة والسلام : « أَفضل الأَعمال بعد الصلاة المكتوبة إِصلاح ذات البين » .

هذا مما ورد في كتاب الله وسنة نبيه من ذكر ما بإِصلاح ذات البين من المحاسن ، أَما ما ورد في أَقوال الحكماءِ والشعراءِ فيطيب لي بأَن أَختصر ذلك على ما جاءَ من أَقوال شعرائنا الشعبيين ، وفي مقدمتهم حُميدان الشويعر الذي يعتبر أَفحل شعراءِ عصره – وها هو يقول :

أَبِـي أَتَمَنَّـى مَا يِمُوتْ ثَلاثَـهْ
وبَاقْي الجَماعَـة مَوْتْهُمْ حَقٍّ تَرى

الكريمْ بمْالِهْ والشّجاعْ بْفِعْلِهْ

وَمْن هُو يفِلِكّ مِشْكِلٍ بَيْنَ الْوَرَى

فإذا كان الله جل شأْنه ذكر ما للإصلاح بين النا س من ميزة حسنة ، ثم جاءَ حديث النبي عليه الصلاة والسلام بصورة شرح بهـا ميزة الإصلاح ، وجعـل أَفضليَّته تتجاوز جميع الأَعمال الطيبة من الفرائض والسنن ما عدا الصلاة التي هي الركن الثاني من أَركان الاسلام الخمسة ثم جاءَ الشاعر الحكيـم حميـدان الشويعر الذي عرف بين الأَوساط الشعبية بحكمه وأَمثاله الشائعة وقال في المعاني التي جاءَت في هذين البيتين — لو كان له أَن تَتِـمَّ أُمنيته في هذه الحياة لتمنى أَن لا يعيش فوق أَديم هذه الأَرض سوى واحد من الرجال الثلاثة الذين هم الشجاع ، والسخي ، وذو الرأْي السديد الذي يصرفه لإصلاح ذات البين ، ومن لم يكن حائزاً على واحدة من هذه السجايا الثلاث فإنّ موته على رأْي الشاعر يكون واجباً . وشاعر شعبي آخر أَنشد بيتين يطابقان بمعناهما ما جاءَ به حميدان الشويعر وهما :

ثَلاَثْ جنَايِزْ يبْكَى عَلَيْهِــنْ

وباقي النَّاسْ تَخْفيفٍ وَرَحْمَهْ

صَلِيبَ الرَّأْي والرَّجْلَ الكَرِيْــمْ

ومْن تَنْخاه إلى جَاكْ زَحْمَـــهْ

والجدير بالذكر أن هذه السجايا الثلاث متوفرة في الفقيد ، فأَما الشجاعة والسخاءُ فقد كان للمغفور لــه النصيب الوافر فيهما ، كما مَرَّ . مضافاً إليهما مساعيه لإصلاح ذات البين ، وهو عمل له أَهميته ، ولا يصدر إلا من الرجل الحصيف ، ذي الرأْي السديد .

وقد أَوردت جزءاً من مساعيه لإصلاح ذات البين حينماتولىإمارة حائل ،تلكالمساعي التي جاءَت على الصعيد الجماعي ،أَما علىالصعيد الفردي فمنها : ما كان ذا صلةبي.

كان ذلك في سنة ١٣٨٤ هـ. وفي العشر الأَواخر من شهر رمضان عندما ذهبت إلى مكتب الاستاذ حمد الجاسر في بيروت . ولمــا لم أَجده ذهبت إلى مكتب إنسان كانت له صلة بالأُستاذ حمد متوقعــاً أَن أَجده عنده ، وفي ذلك المكتب وجدت شخصاً أَعرفه كمــا يعرفني ،

وبدون سابق إنذار ، وبدون ضغائن مزمنة ، بدا ذلك الشخص يتحرش بي بكلام فيه شيء من الاستفزاز ، ولما كنت قد سمعت أن هذا الشخص إذا صام رمضان يفقد رشده ، بدليل ما نقله لي الثقات بأنه في إحدى المناسبات في شهر رمضان ، تطاول بالكلام على المرحوم السفير عبد العزيز بن زيد فقد عذرته ، وذهبت أربت على كتفه قائلاً : « أهكذا يفعل بك الصيام يا أبا فلان ؟ فأجابني قائلاً : لست صائماً يا .... » .

وما دمت أكتب الآن عن حادثة المعتدي فيها لا زال على قيد الحياة ، والشاهد الذي هو صاحب المكان لا زال حيّاً يرزق. وما دمت شديد الحرص بأن أكون صادقاً ومنصفاً بحديثي بصورة عامة ، وبكتابتي بصورة خاصة التي سوف تكون حجة لي إن أصبت وحجة عليَّ إن شططت. فإنني لا أنكر فيما إذا قلت : إنه أخطأني التوفيق فيما إذا لم أسلكْ أحدَ السبيلين ، إما أن أدرك أن لدي هذا الرجل نية سيئة نحوي وعندها آخذ جميع الاحتياطات اللازمة لدفع اعتدائه المفاجيء واما أن أترك ذلك المكان مترفعاً بنفسي عن مجاراته بأسلوبه

الأَرعن ، هكذا كان الأَوْلَى بي أَن أَفعل ، ولكنني أَقولها مرة ثانية : إنني لم أُوفق لا لهذه ولا لتلك ـ وكثيراً ما يخطيءُ المرءُ التوفيق والتصرف المعقول عندما يُفاجأُ بحادثة لم يحسب لها حساباً كهذه ـ وكان كل ما فعلته هو أَن نفذت ما جاءَ بصدر الآية الكريمة :(وجَزَاءُ سيّئةٍ سيئةٌ مثلها) . أَي إنني أَعدت إلى المعتدي نفس الكلمة البشعة التي قالها لي ، وفي تلك اللحظة حضر أَكثر من واحد من مكتب المعتدي المجاور لمكتب الشخص الذي زرته ، وما إن وثق المعتدي من وجود أُجَرَائِهِ حتى بصق عليَّ ، وقبل أَن تكون لي القدرة على رد الفعل هجم علي البطل ... هو وأُجراؤُه الفرسان ... الذين استغلوا ظرفي حيث كنت في زاوية ضيقة ، تحيط بي جدران ذلك المكتب الضيّق من جميع الجهات يميناً وشمالا وخلفاً ، ما عدا الجهة الأَمامية التي طوقني بها أُولئك الأَبطال الشجعان ... الذين كل ما استطعت أَن أُدافع به عن نفسي هو أَن حرصت جُلَّ جهدي بأَن لا أُمكنهم من أَن يطرحوني أَرضاً ، رغم أَنهم لم يدخروا وُسْعاً في ذلك ، .

صراع بين العقل والعاطفة

لا يسعني إلا أَن أَعترف أَن للاخ الصديق مساعد السيف اليد الطولى في تهدئة أَعصابي ، حيث زرته تلك الليلة في منزله المجاور لمنزل المعتدي ، وكنت مصمماً أَلا أَبيتُ تلك الليلة حتى ينال المعتدي العقاب جزاءً وفاقاً على اعتدائه عليَّ ، كمـا أَنني اعترف أَيضاً أَن لوجود الأَخ السفير محمد الحمد الشبيلي في بيروت الفائدة الكبرى في عدم مبادرتي بالانتقام ، واتساع هوة الشقاق ، وذلك أَنه لم يتركني حتى أَخَذَ مني وعداً بـأَن لا يبدر مني انتقام خلال تلك الفترة ، وقد استجبت لطلبه ، خجلاً منه وتقديراً له ، لا لكونه سفيراً بـل لكونه شهماً كريماً ، ولكني أَخبرته أَنَّ استجابتي له لم تكن نهائية ، وإنما هي محدودة في أَيام تلك الفترة فقط ، وأَهم الأُمور التي جعلتني لا أَستطيع أَن أَتحمَّل إعفاءَ المعتدي من العقاب مهما كانت نتائجه سيئة عليه وعلي معـاً : أَنه توفرت لديَّ الروايات الصادقة الموثوقة بـأَن اعتداءَه علي هذا لم يكن الأَولَ من نوعه ، بل له

سوابق متعددة ، وإِن يكن جسمه لا يساعده ولا يشفع له بالاعتداءِ على من يريد أَن يغدر به ، فإِن باستطاعته أَن يستأْجر من يقوم بعمل كهذا كما فعل مأْجوروه معي

كنت في كثير من الاحيان أَضع نصب عيني أَسوَأَ الاحتمالات التي أُواجهها في حالة تنفيذي للانتقام ، ومن هذه الاحتمالات افترض أَنني أَقتل بجانب المعتدي بعد أَن أُجهز عليه ، ثم إِنني أَضع نفسي مخيراً بين إِقدامي على الانتقام الذي أَفترض أَنني أُلاقي حتفي به ، وبين إِحجامي وتركي للمعتدي يذهب بغنيمته بدون أَن يلاقي الجزاءَ ،ففي وقوفي بين هذين الاختيارين أَشعر براحة تثلج صدري عندما أَختار السبيل الأَول ، بقدر ما اجد قلقاً يؤنبني بل يلعنني في محاولة قبولي للأَمر الثاني ، وهكذا أَجد أَن قبول الموت أَسهل على نفسي من قبولي للهوان ، وهذا منطق سبق أَن أَكده المتنبيءُ بقوله :

غير أَنَّ الفتىَ يْلاقِي المنايـــا
كَالِحاتٍ ، ولا يُلاقِي الْهوانـــا

والواقع أَنني ظللت فترة قاسية أُعاني فيها صراعاً

عنيفاً بين عقلي ، وثقافتي الحديثة من جانب ، وبين تقاليدنا ومؤثرات البيئة التي ترعرعت بها يافعاً .

فالحافز الأَول يدعوني إلى عالم العقل موحياً إلي أَننا نعيش عصرنا الراهن الذي لم يكن فيه لشجاعة الساعد والناب والمخلب أَيُّ مكانٍ لإِنسان الحضارة في القرن العشرين الذي أَصبح رجاله يرون أَن تلك الشجاعة من شيمة الوحوش ، أَما الإِنسان فإِنه مطلوب منه الشجاعة الأَدبية ، وشجاعة العقل والفكر ، ومطلوب منه الصبر والاحتمال ، والجلد أَمام مواجهة المحن والشدائد .

أَما الحافز الثاني ، فإِنه ينطلق من عواطفي ، بل من نشأَتي ومن تقاليد البيئة التي ورثتها يافعاً تلك النشأَة وهذه التقاليد التي مهما بلغ الإِنسان من الوعي ومن الثقافة الحديثة بل ومن العقيدة الدينية التي هي أَكبر مؤثر على مدارك المرءِ ، فإِنه لا يستطيع أَن يتجرد منها ، وإِن تجرد إلى حدٍّ ما ، فإِن الرواسب لا بُدَّ أَن تظلَّ كامِنَةً كالنار تحت الرماد ، تلتهب حالما تهب عليها الرياح ، وهكذا كانت تلك الرواسب تدفعني إلى رغبة الانتقام ، حتى ولو كان عقابي لغريمي يقودني إلى حبل المشنقة .

وجد المعتدي حصناً يلوذ به

بذل المصلحون مساعي في سبيل الاصلاح بيني وبين المعتدي. وممن سعى في الاصلاح: الشيخ عمر السقاف، والشيخ محمد الحمد الشبيلي، والشيخ سليمان القاضي. ولكنني رغم مساعي هؤلاءِ الأفاضل الكرام لم أستجب لأيّ واحد منهم لأنني ما استطعت أن أهضم ذلك الاعتداءَ الغادر الذي ليس له أي مبرر.

في إحدى المناسبات التي جاءَ بها الفقيد ليصطاف في لبنان كنت قادماً من مقر عملي في سفارة بلادي في (أنقرة) وعندما أُخبرت أن الفقيد في فندق (بريستول) ذهبت إليه فوجدته في صالة الفندق، وهناك بدأ يسألني عن الحادثة، فشرحتها له بوضوح، وقد علمت فيما بعد أن صاحبي فلاناً دعا الفقيد لتناول الطعام، وأنه حدثه عن الحادثة إلا أنه لم يستطع أن يبدل في جوهرها وعندما شرحتها للفقيد كما كانت، أدرك ـ رحمه الله ـ من الحديث الذي نقل له بأنني لن أدخر وسعاً من الجهد بأن ينال المعتدي العقاب الذي يكون له رادعاً

في المستقبل عن مثل هذا العمل ، وعند ذلك أَجابني الفقيد الحكيم بالكلام الذي لا شك عندي بأَنه صادر من قلبه ، لأَن كلامه كان له الأَثر الكبير في تغيير تفكيري. وقديماً قالت الحكماءُ: الكلام إِذا خرج من اللسان فإِنه لا يتجاوز الآذان ، أَما إِذا خرج من القلب فإِنه يدخل القلب.

وهكذا كان كلام الفقيد خارجاً من قلبه ، ولذلك وجدته تسلل إِلى قلبي ، بل تغلغل في كل جارحة من جوارحي. وقد كان كلامه يحمل المعنى الذي ذهب به الفقيد مذهب الرجل الحكيم ، الذي راح يخاطب عقلي وعواطفي معاً ـ خطاباً تمكن به من سيطرته عليهما جميعاً في فترة ما استطاع أَن يسيطر أَحدهما على الثاني في مدة تجاوزت الشهرين ، فمن حيث حديثه الذي هو خطاب العقل للعقل فهو وإِن كان جملة وجيزة ولكنها ذات معان لها أَهميتها في قوة مفعولها ـ وتلك الجملة محصورة بلفظها الذي أَورد نصه الحرفي بكل صدق وأَمانة عندما قال: (عايك

أَن تفهم أَنك منذ حرب فلسطين إِلى يومنـــا هذا وانت ترتفع في أَعيننا من علو إِلى علو - ولكنك إِذا أَقدمت على مقابلة (المهبَّل بعمل هبال مثل أَعمالهم) فإِنك عدت بنفسك إِلى أَسفل السافلين) .

هذا كلام العقل للعقل - أَما كلامه الذي خاطب به العاطفة ، وانتصر عليها كانتصاره على العقل فهو قولـــه :

« هل يمكن لعاقلٍ منصف يعرفك جيداً بأَن يظن بأَن فلاناً ... أَخافك وقهرك ؟! أَو أَن يشك أَحدٌ بأَنك عندما تتنازل عن مقابلته بعمل مثل عمله بأَنك خائف منه ؟! ..

أَما وقد شعرت أَنه سيطر على عقلي وعلى عواطفي معاً وأَدركت أَن كلامه كلام العاقل الحكيم المرشد ، الذي يفرض علي بأَن أَهتدي بإِرشاده وتوجيهاته كما استشهدت في بيت من قصيدتي ، يحمل هذا المعنى ، وهي القصيدة التي رثيته بها وقد جاءَ البيت كما يلي :

مَرحُوم يَاللِّي لِي حكيم يْسَلِّيْنْ
بالنصح ، يرشدني إلِيْنَ آهتدي بهْ

أَقول : بعد سيطرته على صراع العقل والعاطفة خشيت فعلاً أَن يتكلم بالهاتف من مكانه فيدعو (فلاناً) ، وينتهي الأَمر بهذه الصفة . فلم يسعني إلا الإِذعان للأَمر الواقع ،فقلت للفقيد : (كل ما أَرجوه منك أَن لا تقوم بأَيّ عمل تحرجني به فأَنا لا أَستطيع رفض ما تأْمرني به حتى ولو كان على حساب كرامتي التي هي أَعز عندي من حياتي ؟) . فأَدرك الفقيد بذكائه ما أَعني – فقال : سوف لا أَمضي في أَي عمل لا يوفر لك كرامتك حتى ولو أَدَّى الأَمر إلى أَن آتي (بفلان) إليك في (تركيا) فخرجت من عنده مودعاً ذاهباً إلى دمشق ثم إلى (تركيا) حيث بعثت عائلتي هناك بما فيهم أَحد أَبنائي الذي يزعم (فلان) أَنه هدده .

وفي الحين الذي وصلت فيه إلى الشام ناوياً أَن أَذهب في اليوم التالي إلى (تركيا) وفي صباح الغد الذي كنت أَنوي فيه مغادرة دمشق ظهراً ، تحدث معي سفيرنا

سابقاً في دمشق الأَخ عبد الرحمن الحميدي بالهاتف قائلا: إن الأَمير فهد بن سعد يقول: إنه سوف يأْتي إليك في ظهر اليوم.

ولما لم يكن لديَّ شكٌّ بأَنه سوف يأْتي مصطحباً معه (فلاناً)، ولما كنت منذ أَن وقعت علي حادثة الاعتداءِ لم أَتخل عن حمل مسدسين واضعاً أَحدهما على يميني والآخر على يساري فقد نزعت المسدسين عني واثقاً أَن الغاية منهما بطلت، وفي الفترة التي كنت خارجاً بها من منزلي بعد العصر، جاءَ الفقيد النبيل، ودخل المنزل يرافقه السفير الحميدي و (فلان) طبعاً ـ وأَحد أُجرائه الأَبطال، والرجل الذي جرى الاعتداءُ علي في مكتبه، وما إن دخلت عليهم مسلماً ومرحباً، حتى قام الفقيد وأَخذ بيد الرجل وجاءَ به ليسلم علي حسب الاصول والتقاليد المرعية في حالة كهذه، كما جاءَ مأْجوره الذي كان أَحد المعتدين وانكفأَ علي يسلم.

فقلت: الأَمر الذي يسعى فيه طويل العمر لم يكن لي مجال الا تنفيذه، ولو كنت يا (فلان) مشيراً بيدي

إليه قاتلا أحد أَبنائي ، ثم أَشرت بيدي إلى جدران منزلي وقلت: هذا البيت الذي أَسكنه هو أَحد هباته ومننه التي طوق عنقي بها.

فسأَل فلان عن ابني عبد الله الذي يزعم أنه هدده فقلت: إنه ذهب إلى (تركيا) فقال الفقيد: المهم أَنت - يقصدني - وكان بعبارته هذه يرغب أَن يُهَدِّيءَ روع فلان.

ولكن الذي ثبت بالدليل الملموس أَن الرجل خرج من منزلي وهو لم يقنع ساعتها القناعة الكاملة بأَن تسامحي عنه هذا أَصبح نهائيّاً ، والدليل الماديُّ على صحة ذلك أَنني عندما خرجت من منزلي مودعاً للفقيد ومن في معيته ، بما فيهم صاحبي فلان الذي بدأَ يتحدث إليَّ بحديث ظاهره الملاطفة وكذلك محاولته دعوتي إلى منزله في بيروت ، وهو في حديثه هذا لصق بي ووضع يده على خاصرتي حتى طوق جنبي بيده ، وقد نفرت من هذا الأُسلوب واستنكرت حركته هذه ، إلا

أن استنكاري له لم يدم طويلا ، وذلك أنه جاءني أحد أقاربه الثقاة يؤكد لي الخبر الذي سمعه عن صاحبي (فلان) الذي يتحدث في مجلسه قائلا: إنني عندما خرجت من منزل فهد المارق وضعت يدي على خاصرته لأتأكد عما إذا كان حاملا مسدساً ام لا ؟! عندما نقل إلي الراوي هذا الخبر الذي أثبتته القرينة التي أعرفها أنا شخصياً حمدت الله أنني نزعت المسدسين حينما أخبرني السفير الحميدي بقدوم الفقيد ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى استغربت أن يظل في نفس أخينا بقية من الريبة والحذر بعد أن لاذ بجوار وحماية ذلك الحصن المنيع. وختاماً لا يسعني إلا أن أعترف مؤكداً أنه بقدر ما وجد صاحبي فلان بالفقيد الحصن المنيع الذي لاذ به و أوصله إلى شاطئ السلامة والنجاة ، وجدت أنا ايضاً بالفقيد الحكيم الذي لا أقول: إنه هداني إلى سبيل الرشد فحسب ، بل أنقذني من القلق والاضطراب ، اللذين لا يقلان تأثيراً وفتكاً

بصحتي من تأثير وفتك ذلك الهلع والرعب اللذين يعانيهما صاحبي. فجزى الله الفقيد عني وعن صاحبي خير ما يجازي به عباده المؤمنين دعاة الخير ، الساعين باصلاح ذات البين ، والباذلين جهودهم الموفقة لقبر الشر ودفنه في مهده ، كما دفنه الفقيد ، غفر الله له ، وأسكنه بجواره مع الأنبياء والصالحين ، وحسن أُولئك رفيقاً.



فيما نعته به الشعراء من السجايا الحسنة

لا أُريد أَنْ أَستوعب ما قيل في الفقيد الكريم من الشعر ، فهذا ما لا يتسع له هذا الكتاب ، وحيث أَن المرءَ في حياته يكثر المتزلفون إليه بالمديح أَيّاً كانت منزلته ، وخاصة عندما يكون شهماً كريمـاً كالفقيد ، ومعروف حالة هؤلاءِ المداحين ، ومثل هؤلاءِ يقال في كثير من المديح الذي يوجه للمرءِ عندما يتولى منصباً رفيعـاً .

ولعل أَصدق ما يُثْنَى به على المرءِ هو ما يقال فيه بعد انقطاع الرجاءِ منه ، رثاءًا من الشعر او تأْبينـاً من النثـر .

وهذا ما دفعني إلى أَن أَكتفي بإِشارات موجزة مما قيل من مدح الفقيد في حياته ،

١ - فمما قيل فيه من المدح في حياته :

من قصيدة للاستاذ عبد الرحمن بن عبد الله الملق من مدينة حايل ، يحيِّي فيها الفقيد :

تحياتٌ شذاهـا نَفْــحُ وَرْدِ
وريحــانٍ ونَسْرِيْــنٍ وَرَنْــدِ

نُوَالِيهــا بتقديــرٍ وحُــبٍّ
لشخص أَميرنا (فهد بــن سعد)

أَمــيرٌ من عريــن طــابَ أَصْــلا
فهــذا الليثُ من أَحفاد أُسْــدِ

فهــذي حائــل تزدان فخــراً
بهــا الأَفــراح عمّت كل فرد

تردد لحنــه أَجَــأٌ وسَلْمَــى
وهاتيك الــذُّرا أَلحــانَ خُلْــدِ

فيومُ قدومكــم أَضفــي جمالا
على الأَوطان في سهــل ونجــدِ

وللشاعر عبد المحسن بن علي العقيلي في الفقيــد
عند توليه إِمارة حايل:

قَالَ الَّذي ياخِذْ مْنَ الشِعرْ مَا زانْ
لا النّقص ياتيها ولا هي تِزيــدِ

حَقايْق ما هِي بِكِذْبٍ وْبهتَــانْ

والنّاسْ تَدْري بالسّمَــلْ والجِدِيدِ

الحَمد لله ربّنا عَالْــيَ الشّــانْ

أَميرَنَــا جانَا عَلى مَا نريْـــــدِ

تَسْتَاهْل التّرْحِيْب يا (طَير حَوَرانْ)

يَا (بو سَعْدْ) يَزهاكْ عَذْبَ النِّشيْدِ

يَا نَادرٍ عَرْبٍ خَوَالٍ وْعِمَّـــانْ

زَبن المخافْ وغايْــة المستفيــدِ

سَاسِكْ وطِيدٍ واْعْتلىَ السّاسْ بِنيــانْ

ونال الثريا مَجدكُمْ وَالْحَمِيــدِ

عِزَّ المجنّى لاَ تَنَصَّاكْ بَحْــلانْ

لا لاذْ بِكْ كَنّهْ زَبَنْ راسْ حَيدِ [1]

اللِّيْ قَنَصْ بِكْ كاسْبِ كِلَّ الأَرهَانْ

سَمْحٍ كريم النّفْس شَرْسٍ عَنِيْدِ

وَلَدْ (سعَدْ) فيه السعَدْ واضْحٍ بَانْ

(ابو سعد) شَهْمٍ شِجَاعٍ أَكيْــدِ

---

(١) الحيد الجبل : تنصّاك : قصدك . بَحْلاَنْ : ضائع الرأي . لا : إذا . كنّه : كانه .

مَا بَين أَبوه وَبين نَزْهَـاتَ الارْسَانْ

خَال وعَمٍّ شَاعْ صِيتِهْ بْعِيــد

بَيتَهْ مِثلْ (هدَّاجْ) للعُرْبْ مِقْطَانْ

عِدٍّ إلى كثرتْ وْرودِه يزِيْــد

شَيْخٍ إلى زرْتِهْ ولو كُنْتْ ضَجْرَانْ

طَارَ الضِّجَرْ وأمْسَى نَهَارِكْ سَعيْد

آمِيْنَ يا ربَّ الملاَ عالْيَ الشَّـانْ

تَقْبل دْعانَا يَالرّحِيمَ الرّشِيْـد

تِعِزّ (فيصلنا) علىَ كلِّ عُـدْوان

دِرْعَ الوطنْ حَزْمٍ ورَايٍ سِدِيْـد

هو حصننا في يوم رَوْغـاتَ الاذهان

حيث قلَّة الحيلة ، وقَل الرّصيد

عَيّنْتِنَـا لَولاَ فَرجْ وَالَى الآحْسانْ

ثُمْ فَيْصَلَ الفَصَّـالْ وافي الوَعيد

يَوم اكفهّر الجوّ واهتـز الأرْكَانْ

صَانَ الوَطَنْ (فَيْصَلْ) بْسُورٍ حَديْد

* * *

ومما قاله الشاعر ابراهيم بن محمد الشويعر من أَهل حائل من قصيدة :

(حَايِل) تْرَحِّبْ بالأَمير الجَديْدِ
وْاجا ، وسلْمَى ترْفع الصوت بِجْهَارْ
و(سَمْرَا) الجبل وام الجبه والوقيد
وْ(يا طبْ) و(صبَّابَهْ) يِطِقِّنْ لْه الطَّارْ[1]

الحَمَد لله جَـا لنا مَا نِريْـد
جانَا (فَهد) والخَير في جَيِّتِهْ صَارْ
شَيْخٍ على الجاني عَنيف شِديْـدِ
وْللرَّاجِيْ اللاَّجْي كَمَا دَرَّ الأَبْكار
شَفْقٍ على المظلوم سَهْلٍ رَشيـد
صَلْفٍ عَلى الظَّالْم شَديدٍ وْجبَّـارْ
جَبَّارْ عْثرات لْطلْقيـنَ الأَيْدي
بْيتِهْ علىَ دِبَّ الدَّهْرَ مَلْفَى الأَخْيارْ

---

(١) أجا وسلمى جبلا طي المشهوران . سمرا الجبل هي الجبل المحاذية لحايل شرقاً . أم الجبه : جبل فيه مخزن للسيل شرقي حائل . الوقيد قرية تقع شمال حائل . يا طب : واد يقع شرق حايل . صبّابة : جبل يجري من اعلاه الماء ايام الأمطار يقع شرق حايل .

يَا شَيخْ يا زاهِي جِميلَ النَّشيْـــدِ
يَا نَادْرٍ مِنْ نَاذْرٍ ماكرَ احْـــرَارْ

إحْذَرْ من الواشي الذي ما يفِيْـــدِ
تِرْهَمْ خرابَ الْحُكم نَذْلِيْنْ وَشْرارْ

أَنا اشْهَدْ انّكْ في زَمَانك وحيـــدِ
أَنْقَذَتْ شَعْبٍ ضَايْعَ الفِكِرْ مِحْتَار

(يَا بو سَعَد) أَبرَمتْ رأْي سديـــدِ
وجعَلت لْحَايِلْ عِقُبْ هِجران تِعْبَارْ

وَصلَّحْت بْعدْلكْ دارْ (حاتَم) وكيْدِ
وَجَلَبَتْ مشارِيْعٍ جَلَيلاَتْ وِكْبَارْ[1]

بِتَوجِيْه (فَيْصلْ) جعلْ عِمره يَزِيْدِ
حمَّايْنَا اَلَى مِن شَعَرنَا بَالأَخْطَـارْ

العَاهلْ الصِّمْصِيْم نِعمَ العَضِيْدِ
من مَاكَرٍ ما دَكْ بِه عِرْقَ خَوّارْ[2]

---

(١) دار حاتم : حائل فهي بلاد حاتم الطائي .

(٢) خوار: عديد جبان. ماكر : وَكـْر ، وهو مكان الصقر . دك: خالط

قَلْبَه على الشِّدّاتْ كَنّــه حَدِيْــد

أَصلَبْ من (البَالُوذْ) وْافتَكْ مْنَ النّارْ

وإنْ جَا الوطنْ عِتْلٍ غَشُومٍ عَنيد

ثَبْت لَه (الْفَيصَلْ) كما ضِلْعْ سنجار[1]

وِخْلافْ ذا والله عليّ شَهيــد

اطْلُبْ لَكمْ بالْعِزّ سِرٍّ مَعَ جْهَــارْ

وللشاعر عيّاد بن نُهَيِّر الشمري :

سَلامْ يَا مِيْرٍ علىَ الْحقّ مِقْـدَامْ

أَهلا بِقْدُومَك عدِّ رمْلَ السّهَــالِ

سَلاَمْ يا زبْنَ الذي جَــاهْ منضَــامْ

سلاَمْ يسمُو عاليات الْجبَــــالِ

سَلاَمْ سِلِيْمٍ صَافْيٍ مَا بَه اوْهَــامْ

مِن مخلصٍ للكْ يا حْماة التّوالِــي

إنْتَ الفهدْ يَا بو سَعد فَرخَ القْطَامْ

نطلب لك التوفيق في ذا الْمِجَال[2]

(١) سنجار : جبل في الجزيرة الفراتية في سورية .

(٢) القطام نوع من الصقور ويقال له قطامي ، وانما قال الشاعر قطام لأجل الوزن .

يا مِيْرنا مِنْ جِيْتنا جَتنَا الانْعامْ
من جِيْتنا جانا الفرَحْ بالمفالي
يا مير حِنّا لكْ كما الدّرْع وخْزَامْ
ما همّنا دوّار قيـلٍ وْقـالِ
يَا شَيخِ نمشي لك حْفاةٍ بالأقْدامْ
بِالعِسْرْ والشّدّاتْ تَلْقَـى رْجَالِ [1]
يَقطَعْ كَلامٍ صَاحْبه غيرْ جَـزّامْ
قَولٍ بْلا فِعْـلٍ مْنَ النِّعِمْ خَـالي
هذا كلامي وانت عَاقـلْ وفَهّـامْ
وعَقْلك وفَهمك شافِـعٍ في مقالي
حنَّا لكم على الشَّرفْ كِلّنا قْيَـامْ
وٱنْتُمْ ذخِيرَتْنـا بْعسْر الليـالي
انتمْ هَلَ الْمَعروفَ عَامٍ وَرَا عَامْ
كلٍ دَعا للشّيْخْ وافي الْخَصَـالِ
(فَيْصل) حَبيب الشّعب بالعدل قَوّامْ
الله يْمَهِّلْ لـه سِنينٍ طْـوَالِ

---

(١) تعني كلمة شيخ : حاكم إذا جاءت في الشعر الشعبي .

واخوانه اللّي بالمواجيب قُـوّامْ

الكلّ منْهم بالمروءة يـوالـي

وعيالِ عَمِّهْ مَعْ خواله والْعمَـامْ

وْربْعِهْ هَلَ العوجا ، النشّامى الدوالي[1]

الحكم يزهونه بعيدين الأعْـلامْ

هَلَ الصّخا هَلَ الوفـا والْعَـدالِ

وهذه القصيدة لعبد الرحمن الزيد من أهل حائل :

الحَمْدْ لِلمَعْبُود عـلاّمَ الأَسـرَارْ

محصي النّفوس اللّي على الخَلْق عَالي

اللي رزقْنَا بْغَرْسةٍ توتي الأثْمَـارْ

ومع الثّمر فيهـا الذّرَا والظّلاَل

(ابو سعد) هُو غَرْسْنا نَسْل الأَخيَارْ

متوارثهْ ما بيْن عَـمٍّ وْخَـالِ

منْ ماكَرٍ طيرهْ يِسرّك إلى طَـارْ

طيْرَ السّعَدْ صيده سْمـانٍ جْلالِ

---

(١) هل العوجاء يقصد آل سعود بصورة خاصة واهل الرياض بشكل عام

حَلِيْبٌ لَلاَخْيارْ سمٍّ للَاشْــرَارْ

وحنّا لنـــا حِلْوٍ قَــرَا حٍ زلال

غيْثٍ إلى قلَّتْ على الخَلْقِ الاَمطَــارْ

له التجوْا به من جِنُوب وْشِمَالِ

من كلٍّ مِحْتاجٍ تَرَى صْغَارْ وكْبَارْ

وْما مِنْهمَ اللِّي عَاْدْ والْجَيْب خَالِ

* * *

وهذه القصيدة أَنشدها شاعر من سكان حائل هو عبد العزيز الدعيع عندما سافر الفقيد من مدينة حايــل للعلاج في سفرته التي لم يعد منها غفر الله له ، وفي القصيدة أَبيات تدل على تشاؤُم الشاعر :

يا واحْدٍ كِلٍّ يَخافكْ ويَرْجِيْكْ

وحكْمَكْ على كِلَّ الخلاَئِقْ عْمُوما

تِرجعْ لَنا شَيْخٍ على الحقّ مرضْيكَ

يا مِرجْعٍ (يوسِفْ) وْآهالِيْهْ نوْما

القلْبْ مِنْ فَقْدِهْ تِقِلْ بهْ مشابِيْــكْ

والعَيْنْ يُومْ اقْفَى لَجا بَهْ هْزُوما

يوم شْلَعَتْ طيّارتك صَوْبْ وَالِيْكْ
وْاقفَتْ كَمَا حرٍّ شَهَرْ للنّجومـا
يَا (بُو سعَدْ) القَلب إلىَ حَلّ طَارِيْكْ
خَطْرٍ علىَ مَحْمِلْ مَحلِّه قْصُومـا
يا بُو اليتامى والضّعوفَ الصَّعالِيْكْ
يا نجدة المضْيومْ عِنْدَ اللزُومَـا
يا فَرْحَةَ المحتاجْ لاَ مِنْ لَجا فِيْكْ
يَا جَابرٍ عَثْراتْ قومٍ كْرومـَـا
يَا مِنْصْف المظلومْ لا مِنْ لفَى لِيْكَ
يا حامْيَ الوندات يوم الخصوما [1]
يالنّمر يالصّنْديْد يا عِزّ ناخِيْـك
يَا حَامْلٍ قَلْبٍ عَطُوفٍ رَحوْمـا
يَا لشّرْسْ يا لْبَطَّاشْ لَلِيّ يْعادِيْكْ
يَا للَّيْثْ يا لْفرَّاسْ رَاسَ الْغَشُومَا
أَرْجِيْ مْنَ المولى عَسى الله يِشافيك
ترجع علينا يا عْنَانَ الْعزومـا [2]

---

(١) الوندات : الخيل التي تعجز عن الجري إذا انهزم فرسانها .

(٢) العزوم : الفرس الجموح .

يُعَلّ ما يبكي مَن الفقْد غَاليكْ

ويَعلّ ما تْسوَّدْ عَليك الْهْدُومَـا [1]

ملكْتنا بَالطِّيْبْ مِلْكَ المَماليْـكْ

بْخلْقِكْ وْجُودكْ يا عَشِيْرَ الْقرْومَا

حِنَّا بْحايِلْ بالملازيمْ نَفْدِيْـكْ

أَيضاً وْترْنَا عْنَ الدَنايا نِشُومَـا [2]

نافِيْ مَعَ الوافيْ ولاَ بِهْ تَشاكِيكْ

صِدْقٍ لِكَ اللّهْ ما خَشرَه الثَّلومَـا

من ساسْنا بَالطَّيب شَرْوَى مسَاعِيكْ

نِصير جِنْدٍ لِهْ على ما يِـرُومـا

القصر جنّبْته ولا شوف كرسيك

إلى شافته نفسي غمرها الهموما [3]

---

(١) يـَعَـلَ : لـَعَـلَّ .   (٢) تـرْنا : ترانا .

(٣) هذا البيت أسمعني إياه الفقيد عندما زرته في باريس ، وهو في مرضه الذي لقي فيه ربه وعندما أنشد هذا البيت لاحظت أن عينيه مغرورقتان بالدموع ولم أدرك في تلك اللحظة التشاؤم الذي قصده الشاعر بهذا البيت والذي يليه كما أدركه المغفور له . ولا أعتقد أن دمعه خوفاً من الموت بقدر ما هو عطف ورحمة بالشاعر المتشائم وكأن لسان حاله رحمه الله يعبر عن المعنى الذي قصده الشاعر ابراهيم الحضراني بقوله :

فوالله ما خفت المنايا وهذه   طلائعها منّي بمرأى ومسمع

ولكنَّ حقّاً في بلادي لأمتي   أخاف إذا ما مت من موته معي

شُبابَنا والعِجْز تَندِبْ وتبكيـك

يوم اختَفَتْ طيّارتك بالغيومـا

عساك تَنْكِسْ بالسلامة لراجيـك

آمين يا فرّاضْ حجٍّ وصومَـا

يقوله اللي بالمـودَّهْ مْصافِيْـكْ

حَرْصٍ على عِزِّكْ لعلّـه يِدُومَـا

وصلاة رب العَرْش عدّ الدواكِيْكْ

على النبيّ الهاشمي كِلِّ يومَـا

* * *

خاتمة القسم الأول

بعد أَن انتهيت من مسودة كتابي هذا بل بعد أَن قدمت جميع مواده للمطبعة التقيت بالدكتور (منيب شهيد) في عيادته في بيروت يوم ٣ ربيع الاول ١٣٩٣ ـ الموافق ٦ ابريل ١٩٧٣ ـ وكان لقائي به بسبب وعكة أَلمت بي ، وعندما رأَيته بدا لي أَنَّ وجهه لم يكن غريباً علي ، وأَخيراً فهمت منه أَن رؤْيتي إِياه كانت في منزل الفقيد النبيل ، وهناك ذهب يحدثني عن شدة وطأَة فاجعته بالفقيد ، قائلا : إِنه لا يذكر في حياته أَنه تأَثر على أَي إِنسانٍ فارق الحياة كما تأَثر على الفقيد ، ثم مضى الطبيب يتحدث عن مكارم أَخلاق الفهد وعن مُثُلِهِ وسخائه ، وقال: إِنني أَتعاطى مهنة الطبّ منذ مدة تزيد على ثلاثين سنة . وعادة عندما أُعالِ مريضاً

أو أَكشف عليه . استوفي أُجرة عملي ، وعندما عالجت المرحوم استوفيت منه الأُجرة كاملة كما أَستوفيها من سائر الناس ، وكم ذهلت ذات يوم عندما جاءَني أَحد رجاله يسلمني مفاتيح سيارته الخاصة ، وذلك بدون أَن يري مني أَدنى إِشارة تدلُّ على رغبتي بالسيارة ، بل وبدون أَن أَتوقع ذلك .

عندما روى لي الطبيب منيب قصة هذا السخاءِ الذي لم أَستغربه من مصدره ، قلت للطبيب : (أَلا ليت لي علما بحادثتك هذه لأَضعها في المكان المناسب من مؤلفي الذي سوف يصدر قريباً عن المغفور له) .

وعندما أَدرك الطبيب أَنني أُعِدُّ كِتاباً عن الفقيد النبيل قال العبارة الآتي نصهـا الحرفي : (كنت أَقول لنفسي دائماً : أَلا يوجد أَديبٌ سعوديٌّ مُلمٌّ بـأَخلاق وسجايا العربي الكريم الشهم ليصدر كتاباً عما يعرفه منها !؟ـ ثم أَضاف ـ: أَرجو عندما يصدر كتابك أَن تبعث لي نسخة منه) . فوعدته بذلك . وقد وجدت في هذه الكلمة الأَخيرة من الطبيب منيب حافزاً يجعلني

أَضيفها إلى الكتاب وأَعني قوله : (كنت أَقول لنفسي)الخ أَجل إن كلمة كهذه تجعلني أَشعر بسعادة عندما أَجدني وُفِّقْتُ للقيام ببعض الواجب ، ترى ماذا يكون مقدار ما أُعانيه من وخز الضمير فيما لو سمعت كلمة الطبيب هذه دون أَن يوفقني الله لتأْدية هذا الواجب ؟!! .

وإذا كانت هذه الكلمة من الطبيب حفزتني – كما أَسلفت – أَن اضيفها إلى الكتاب ، فإِنني أَستحسن أَن أُضيف موضوعين لا يجوز لي إغفالهما . وهمـا اللذان أَسمعني إياهما الفقيد على الوجه الآتي : في مناسبة حديث جرى بينه وبيني حول ما يدخره المرءُ من المال لنوائب الدهر – قال غفر الله له – : والله لا أُفكر قط أَن أَحتفظ بقرش واحدٍ أَوْ أَن أَدَّخِرَ عقاراً أَو متاعاً ، فإِن ادخرت شيئاً من ذلك فإِنما هو من أَجل بناتي فقط . يقصد ابنتيه جُهيّر وسارة – .

هذا أَحد الموضوعين وأَما الثاني فهو أَنني ذات مرَّةٍ وجهت اليه السؤال التالي: أَرجو أَلاَّ تؤاخذني فيما إذا سأَلتك عما إذا كان هذا الكرم الجمّ ، وهذه المروءة

الدافقة أَكانا موجودين في أَخلاقك منذ الأَساس ، وأَنا لم أَعرفهما ـ أَم أَنك كالجواد الاصيل الذي كلما طال به المدى زاد جرياً ، أَو كالرجال الأَفذاذ الذين كلما زادت بهم السنون ازدادوا مروءَة وكرماً وشهامة) ؟ ! !
فرد علي قائلا : بل أَنا هو أَنا ، لم يتغير مني شيءٌ وإنما ربما أَنك تنظر إلى أُناس لا يسيرون سيراً طبيعياً ، بل يقفزون قفزاتٍ مُتعِبةً ، ويجرون جرياً مُنْهِكاً لِقُواهم ، فما كان منهم إلا أَن تعبوا من طول المدى ووقفوا عجْزاً عن مواصلة السير ، بينما كنت أَسير منذ الأَساس سَيْراً طبيعياً ..

اللهم أغفر له وأَجزل له الثواب ! !

